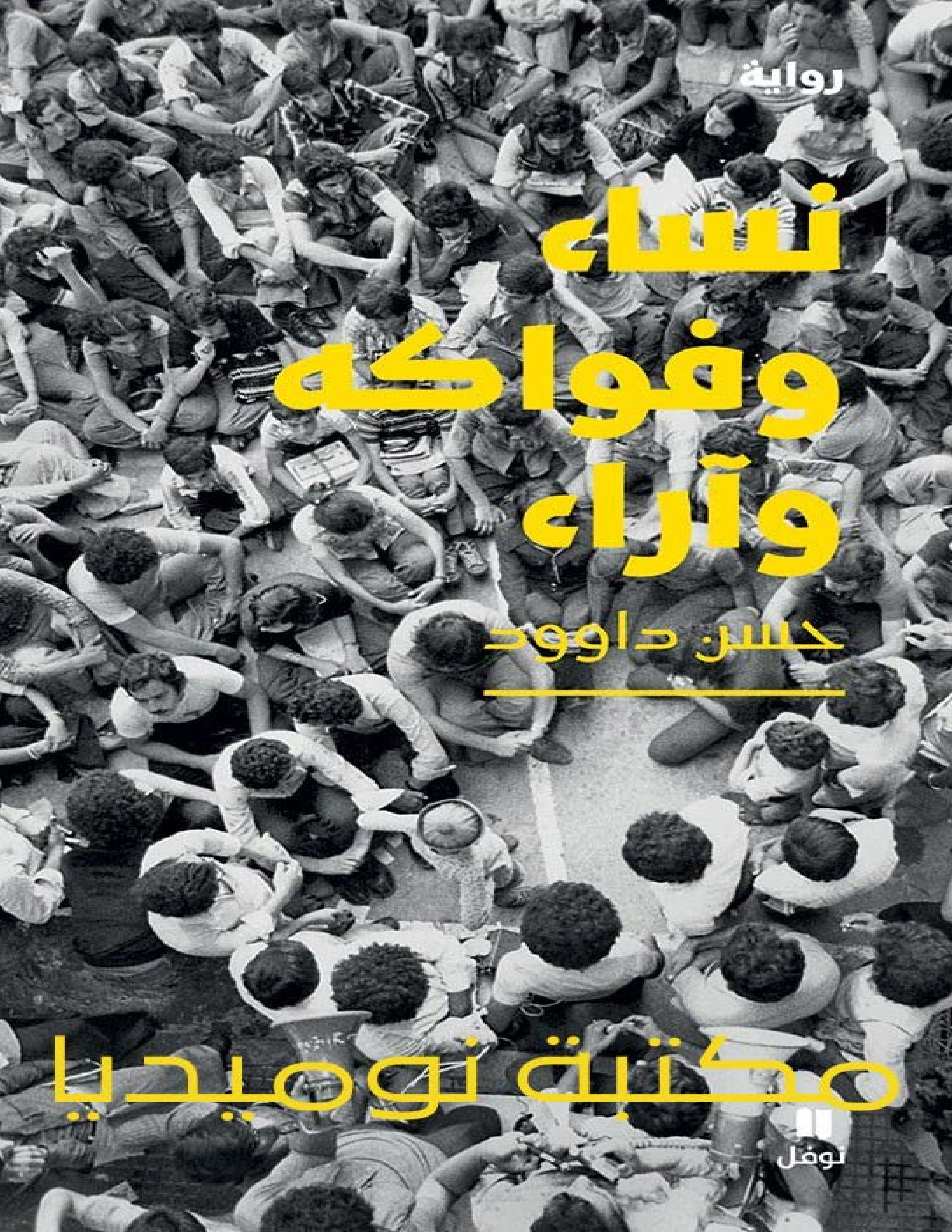

رواية
نساء
وفواكه
وآراء
حسن داوود
مكتبة نوميديا
نوفل

رواية

نساء وفواكه وآراء

حسن داوود



نوفل

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **أرشيف السفير**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-617-0
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-618-7

التشابه الذي قد يلفت نظر القارئ بين ما ورد في حياة بعض شخصيات الرواية وما في حياة أشخاص فعليين هو مقتطع وجزئي. حتى لو استلهمت الرواية مظاهر من عيش حقيقي، فلن يكون ذلك إلّا فاصلاً في سياق قائم في أساسه على التخيّل.

قلت للجالسين إنّ أحداً يجب أن يذهب إليه ليعيده إلى الطاولة معنا. أنا وهو لم نعد صديقين كما كنّا، لذلك رأيت أن يقوم إليه أحد ممّن أبقوا على معرفتهم القديمة به. في كلّ خطوة خطاها إلى هناك، ليصير واقفاً على الصخرة الأخيرة بين الصخور التي جعلوها حاجزاً لصدّ الموج، كان يتمايل، بل يترنّح، مؤرجحاً معه قصبة الصيد المرتفعة عالياً فوق رأسه. حول الطاولة الواسعة كنّا جميعاً مديرين رؤوسنا إليه، مردّدين، واحداً بعد واحد، أنّه سيقع... أكيد سيقع. ليس فقط بسبب وقوفه على الصخرة الأخيرة، التي أبداه سطحها المنتفخ من إحدى جهتيه كأنّ إحدى رجليه أقصر من الأخرى، بل بسبب الكؤوس الكثيرة التي شربها. كما بسبب هبّات الريح أيضاً، تلك التي كانت تنفض طرفي بنطلونه وتخبطهما متسرّبة إليهما من فتحتيهما الواسعتين في الأسفل.

«ليس إلّا نقولا»، قال شوقي الذي لم يكن تمايل يوسف هناك قد أنهى بعد طريقة كلامه الممازحة. «ليش أنا، روح إنت» أجابه نقولا الذي، وإن ظلّ متوجّساً من احتمال سقوط يوسف عن الصخرة وتدحرجه بعد ذلك ليسقط في الماء، تكلّم بطريقة ممازحة هو أيضاً. ثمّ أضاف، لكن لينفي هذه المرّة أنّه الأقرب إلى يوسف من بيننا، «شو؟ ياللا روح إنتَ شيلو...». لم يكن الخوف من الانزلاق عن الصخور الكبيرة هو ما أبقانا قاعدين على كراسيّنا، داعين بعضنا بعضاً إلى الذهاب إليه. ما كان خطِراً وغير آمن هو الوصول إلى

هناك، وإقناعه بالعودة إلى الطاولة. كنّا نعرف أنّه لن يعود، خصوصاً إن شعر بأنّ أحداً أتى ليساعده على ذلك. «قولوا للصيّاد يجيبو، قولولو إذا سقط الزَلمي بالميّ رح تروح عليك القصبة» قال شوقي معلناً ضجره من إشغالنا يوسف بنفسه.

«هيدا رح يروِّح حاله» أضاف شوقي حين أخذ يوسف ينقّل يديه بين جيوبه ليخرج علبة السجائر. كانت الصنّارة قد صارت في الماء وقصبتها محمولة بين إبط يوسف وزنده، وهو أخرج سيجارة من العلبة وراح يكرّر محاولة إشعالها على رغم دفعات الريح المتتالية. ثمّ التفت إلينا من حيث هو هناك وقال إنها «مش عم تولع».

«تعا ولّعها هون» قال شوقي، لكن بصوت حرص على ألّا يبتعد كثيراً عنّا، نحن الجالسين حول الطاولة.

خطر لي أن أقوم أنا من بينهم وأكلّمه من حيث سأقف عند الحافة التي لا تفصلها إلّا خطوة واحدة عن أول الصخرات، أن أقول له إنّه سكران وإنّه سيسقط إن بقي واقفاً هناك، مستعيداً بذلك معرفتي القديمة به، تلك التي لا أعرف كيف سيتلقّاها الآن.

«رايح أنا إحكيه»، قلت لشوقي الجالس بقربي فيما أنا أقوم عن مقعدي. لم أعد أعرف يوسف مثلما يعرفونه. لم أعد شريكاً في السهرات التي يكونون فيها معه، عنده غالباً، في بيته.«إيه، يمكن أحسن تقوم إنت» ردّ زهير، الذي بدأ يملّ هو أيضاً ممّا يسمّيه واحدة من مسرحيّات يوسف.

من معرفتي القديمة به أستطيع أنّ أردّ قيامه إلى هناك، وأخذه القصبة من بين يدَي الصيّاد من دون أن يستأذنه، إلى ما كان يفعله في أيّام ما كنّا لا نزال طلّاباً. تلك الخطوة الإضافية، الخطوة غير المنتظرة، كانت برهانه الدائم على ذهابه إلى أبعد ممّا يذهب إليه

مَن يكونون حوله. الخطوة المجازِفة التي منها مثلاً أن يجلس وراء مقود سيّارة ليبدأ بالسير بها من دون أن يكون قد تعلّم قيادة السيّارات؛ أو يدخل مجتازاً البوابة التي لم تُغلق كفاية، بعد أن يكون قرأ اللافتة التي كُتب عليها أنّها أملاك خاصّة وأنّ الدخول ممنوع قطعاً.

– أنا مش رح قرّب لعندك.. بخاف أوقع أنا ويّاك. قلت من حيث وقفت على أولى الصخرات التي خطوت إليها عن الحافة الإسمنتية.

التفت إليّ. كانت السيجارة التي عجّلت الريح بحرقها لا تزال بين شفتيه، مطفأة وبلا دخان. وهو قال لي بعد أن بصقها أن أقتربَ لأشاهد السمكات الكثيرة في الماء.

– تعا شوف، قال، ثم ارتبكت وقفته فيما هو يزيح نفسه إلى طرف الصخرة مفسحاً المجال لي.

– مش رح إجي، قلتلّك بخاف.

يعجبه ذلك. «أنا أخاف» تعني إقراراً بأنّ في الذهاب إلى هناك مجازفة لم يتردّد هو عن القيام بها. لكنّني مع ذلك، قلت ذلك بلهجة واثقة، كأنّني أهدّد بشيء.

– ولك ليه بتخافو هيك، قال مخاطباً إيّاي بصيغة الجمع. ليس ليصيب الآخرين فقط، أولئك الناظرين إلينا من حول الطاولة، بل راجعاً بنا إلى مواقف سابقة لم يتردّد هو إزاءها ولم يخَف. لكنّه، مقدّراً وقع ما قاله، عليّ أوّلاً، قال لي إنّه راجع... راجع، بادئاً برفع القصبة إلى الأعلى، ومستديراً إلى حيث أقف، قبل أن يبدأ بالتحرّك بخطى متردّدة محاذرة، ناظراً إلى الصخور حوله ليرى كيف سيكون طريق رجوعه.

* * *

أيّام ما كنّا طلاباً بعد في الكلّية، كنت أقول إنّه يتبع أفكاراً عن الحياة قرأها في الكتب أو شاهدها في الأفلام التي حضرها هنا في بيروت. على كلّ حال، كلّنا كنا مثله نتبع أفكاراً ونتشبّه بما يقوم به أبطال الروايات والأفلام. لكنّ ما كان يختلف فيه، ما كان يسبق إليه، هو ذهابه في تغيير نفسه إلى ما يتعدّى تلبّس شخصيّات الأبطال وأمزجتهم. ليس في وقت ما كنّا في الكلية فقط، بل في السنوات الكثيرة التي تلت، تلك التي لم أكن حاضراً فيها معه، وإن كنت أسمع عنها من الكثيرين، الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه.

كان الوحيد من بين الطلّاب جميعهم الذي تغيّر ونحن بعد هناك في الكليّة، وفي وقت مبكّر، ربما كان في السنة الأولى أو مطلع الثانية. قبل ذلك كان يبدو مثل واحد من أولئك الكثيرين الذين قدِموا من قراهم، يقضي أكثر الوقت وحده مطيلاً الجلوس، أو الوقوف، في المكان الذي يكون فيه، ودائماً لا يعرف أين يذهب بيديه اللتين كأنّما يربكه حملهما.

كان يرخيهما ممدودتين إلى جانبيه، طويلتين وقليلتي المراس، كأنّهما لم تتدرّبا كفاية لتكونا رشيقتين في القيام بوظائف اليدين وحركاتهما. كانتا تتأخّران لحظات عن الإمساك بالشيء الذي يُقدَّم لهما، حتى إنّ بائع الأدوات الكهربائية اضطرّ إلى أن يقول له، فيما يسلّمه البيك أب: خذه منّي، تفضّل احمله. وهو مدّ يديه إثر ذلك، مبسوطتين ومتأخّرتين في أن تتلقّيا الأمر التالي من رأسه وهو أن تقبضا، كلّ يد من ناحيتها، على الصندوق الذي أعيدت آلة البيك أب إلى داخله. كان قد خطّط لشرائه من قبل أن ينزل إلى بيروت، بادئاً بالأسطوانات التي ساعده رخص أسعارها على اقتنائها. وهي

أسطوانات قليلة على أيّ حال ظلّ محتفظاً بها مغلّفة في أوراقها وأغلفتها. كانت قراءة الكتب قد أوصلته إلى أن يعرف أسماء موسيقيّيها التي لم يختلف وقعها كثيراً عن أسماء مؤلّفي الكتب التي قرأها. في قاعة الصفّ، ونحن في تلك السنة الأولى، سألتُه:

– بتعرفو؟

– مين؟

– القدّيس أغسطين، اللي عم يحكي عنّو الدكتور.

يعرفه. وكان يعرف الكثير من الأسماء التي يتبارى في ترادادها الطلاب الآخرون. هناك في البيت الذي قدم منه ليلتحق بالكلية لم يكن متاحاً له إلّا أن يقرأ. لا أخ له ليسلّيه، ولا تلفزيون ليتفرّج عليه، ولا بندقيّة في خزانة أبيه كي يخرج بها لتصيّد العصافير. لا شيء ممّا لا يلزم، بل لا شيء ممّا يلزم. حتى إنّني، في تلك الزيارة الأولى إلى بيتهم، كدت أسأله لماذا يتركون البرّاد مُضاءً ما داموا لا يضعون شيئاً في داخله. غير أنّي لم أفعل. لم أجد طريقة ممازحة لقول ذلك. ذاك أننا، أنا وهو، كنّا لا نزال في أيّام تعارفنا الأولى، وهو ليس مثل غيره من الطلاب على كلّ حال، أولئك الذين كنّا نبدأ بمصادقتهم من باب المزاح والضحك.

لم يكن له في بيته هناك إلّا تلك الأسطوانات التي اشتراها متأخّراً، وكذلك الكتب التي بينها ما كان يستعيره من مكتبة الدير. كان الخوري يحمّسه على الإسراع في القراءة وهو يعطيه الكتاب الجديد: هذا في ثمانية أيّام، يقول له الخوري، مقصّراً المدّة يوماً عن المرّة السابقة. ودائماً، حين يهمّ بالخروج، حاملاً الكتاب المغلّف بجلد سميك، يعيد عليه الخوري ما كان قد قاله في المرّات التي سبقت: هذه الكتب ستقرأها كلّها... ستقرأها هنا في الدير.

في تلك السنة الأولى، أقصد في تلك الأيام من سنتنا الأولى في الكلّية، كان سهلاً عليّ أن أتخيّله مرتدياً ثوب الرهبان الأسود، مغطّياً جسمه من رقبته حتى قدميه. راهب من رهبان القرى، حيث تلك السمرة الناشفة التي تتركها الشمس على الوجوه كانت لا تزال صابغة وجهه، وحيث ذلك العضل الزائد في رقبته، على رغم نحول جسمه، لا نجده في رقاب من يعيشون هنا في المدينة.

* * *

معاً كنّا نجلس مستمعَين لريمسكي كورساكوف وتشايكوفسكي وبيتهوفن تطلع موسيقاهم من الأسطوانات التي يفيض اتّساعها عن حدود البيك أب الصغير. كنّا كما لو أنّنا نتعلّم كيف ينبغي لهذا الاستماع أن يكون، وإن غير مزوّدَيْن بدليل يفسّر ذلك أو يسهّله. شيء يشبه القصاص الذي يزيده وطأةً ادّعاؤنا أنّنا نستمتع بما نسمع، وإن كنّا موفّرين على أنفسنا القيام بتلك الحركات التي يقوم بها المنتشون بهذه الموسيقى. شيء يشبه أن نستمرّ في قراءة كتاب لم يرقنا ولم نتمكّن من فهمه. ربّما كانت هذه حال يوسف مع الكتب أيضاً إذ إنّه، ذاهباً في عناده، كان لا يعيد الكتاب إلى الدير إلّا بعد أن يجبر نفسه على قراءته كلّه. هكذا كان يقلب الأسطوانة الكبيرة عن وجهها الأوّل، لنقعد مكمّلين وجهها الثاني حتى آخره. وبعد ذلك يروح يسألني إن كنت أحبّ أن نتسمّع الآن لأسطوانة ريمسكي كورساكوف التي، باستثناء الدقائق الخمس الأولى منها، كانت مثلها مثل سابقتها لتشايكوفسكي. وأنا أوافقه

على أن نستمرّ في الاستماع، على الرغم من علمنا معاً أنّنا كلينا لا نتثّقف ولا نتسلّى.

لكنّه، وهو الأكثر عناداً منّي، لم يملّ من تبديل الأسطوانات وتقليبها حتى بعد أن أغادر من عنده. كان يرى أنّ إصراره لا بدّ أن يوصله إلى شيء، كأن يصير مدركاً لشيء ما في الموسيقى يمكّنه من فكّ ألغازها، أو أن يصل، بعد طول الاستماع، إلى أن يكون انسجامه معها حقيقياً. «قم بنا نخرج»، أقول له قبل أن أغادر، فيجيبني بأنّه يريد أن يبقى هنا. وأنا أعرف أنّه سيعاود الاستماع إلى الأسطوانات ساعتين إضافيّتين، مقطّعاً إيّاها إلى أجزاء صغيرة، كما يفعل في قراءته الكتب الصعبة مجهداً نفسه في محاولة فهمها، جملة بعد جملة.

* * *

ذلك الذي يسمّونه «الماضي الجميل» لم تطل مدّته أكثر من عشرين سنة: من منتصف الخمسينيّات حتى منتصف السبعينيّات. لكن غالباً ما تضيف الآراء الكثيرة كلمة «تقريباً» عند اتّفاقها على تلك المدّة. ذاك لأنّ نهاية الماضي الجميل لم تكن في سنة 1975 بحسبهم، بل في 1973 حين قامت حرب أولى، وإن قصيرة، بين الجيش والمقاومين الفلسطينيين. بل إنّ هناك من يرجع أربع سنوات أخرى إلى الوراء فيقول إنّ البلد بدأ انهياره في 1969 حين اندلعت التظاهرات يوم 23 نيسان من ذلك العام هاتفة لمجيء المقاومة الفلسطينية بسلاحها إلى لبنان. هؤلاء الأخيرون سيكون عليهم أن يقلّلوا من سنوات الماضي الجميل لتصبح دون العشرين. لكنّهم، من أجل أن يظلّوا في حدود ما تمّ الاتّفاق عليه، عمدوا إلى

تقديم تاريخ البداية فقالوا مثلاً إنّ الازدهار بدأ في مطلع الخمسينيات لا في منتصفها.

هي عشرون سنة إذن، وإن على وجه التقريب. لكن هل كانت تلك السنوات العشرون سنوات ذروة كلّها، أي إنّ الزمن الذي سبقها كان قد هيّأ لها فكانت كلّها ماضياً جميلاً لا فرق فيه بين سنة وأخرى، أم كانت حقبة تدرّجت خطوة بعد خطوة نحو الوصول إلى آخر ما بلغه الزمن الجميل. ذلك ما يرجّحه محمّد صافي الذي كان يرى أنّ لبنان بدأ ازدهاره في أوائل تلك السنوات العشرين وظلّ يزداد جمالاً سنة بعد سنة، راسماً خطّاً بيانياً متصاعداً كانت قمّته، تلك التي بدأ انهياره من بعدها، في الساعة العاشرة والنصف من يوم 11 شباط 1968. عند ذلك التوقيت، اقترب صالح من كاتيا التي كانت قد انتسبت إلى الكلّية مؤقّتاً، بانتظار اكتمال أوراقها في الجامعة السويسرية التي ستنتقل إليها فعلاً في السنة الدراسية اللاحقة. قال لها صالح إنّه سمعها تغنّي في الكافتيريا منذ يومين وقد أحبّ صوتها كثيراً. وهو، مستمرّاً في التصرّف بحسب التشجيع، بل التحريض، الذي أمدّه به محمّد صافي، قال لكاتيا إنّه ليس صوتها فقط ما أحبّه بل إنّه أحبّها هي أيضاً. لم تستغرب كاتيا، ولم تُفاجأ. ظلّت تنظر إليه من تحت كفّها التي جعلتها واقياً لعينيها من وهج الشمس، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة، ثمّ قالت له، بصوتها ذاته الذي سمعه مغنّياً قبل يومين:

– طيّب هلّق أنا شو لازم أعْمُل؟

من على المقعد الآخر، هناك في الساحة المشمسة ذاتها، أمدّته إيماءة من محمّد صافي بجرعة تشجيع أخرى، فأكمل صالح:

– بدّي ياكي تغنّي... وإلي لحالي.

ما كانت ستفعله بنتٌ أقلّ جمالاً بكثير من كاتيا هو أن تضحك، وبصوت عالٍ كان سيفضح صالح. لكنّ كاتيا، التي ظلّت تنظر إليه من تحت كفّها المبسوطة مثل رفرف قبّعة، أجابته:

– Tu veux que je chante ici?

لم يفعل محمّد صافي أكثر من رفع إصبعه قليلاً، ليُفهم صالح أنّه يشير إلى قاعات الصفوف، هناك في الأعلى.

– بدِّك فوق...؟

قامت كاتيا عن المقعد، وإذ بدأت مشيها باتّجاه الفسحة المظلّلة الموصلة إلى الدرج، التفت صالح ليرى إن كان محمّد صافي سيزوّده بنصيحة أخيرة. أمّا ما تلقّاه فلم يكن أكثر من حركة اليد تلك، التي لا تعني أكثر من: «الحقها.. روح».

هناك، في قاعة الصفّ الخالية، لم يعرف صالح ماذا يحبّ أن يسمع، وإن كانت واتته شجاعة أن يطبق الباب من فور دخولهما، مهيّئاً نفسه لاحتمال ما قد يحصل.

– متل ما بدّك، أجابها.

– بتحبّ بعلبك؟ سألتْه.

وإذ أومأ برأسه ليقول نعم إنّه يحبّها، غنّت له «بعلبك، أنا شمعة على بابك، وردة على دراجِك...» بصوت أحلى من صوت فيروز كما قال لمحمّد صافي بعد نزوله. كان في صوتها بحّة «متل ما لو إنها كانت سهرانة مبارح وفايقة من نومها هلّق». لكنّ ما لم يكن محمّد صافي ينتظره هو ما قاله صالح بعد ذلك، هامساً في أذنه: «بستها».

– وين؟ سأله محمّد صافي رافعاً نظره إليه.

– فوق، بالصفّ.

– قصدي وين بستها، بأيّ مطرح فيها؟
– عالتمّ، بستها عتمّها.
– عم تكذّب...
– ورحمة إمّي.
– عم تحلف بإمّك، حذّره محمّد صافي.
– ورحمة إمّي بستها... وعتمّها كمان.

هناك، في الأعلى، لم يكن في حاجة إلى شجاعة زائدة ليطلب منها ذلك. لا أكثر من أنّه سألها، بما يشبه أن يكون سؤالاً عاديّاً، إن كانت تسمح له. قبلتْ. أغمضت عينيها واتّخذ وجهها الوضع الذي يجب أن تكون عليه مَن تنتظر قبلة. لم تكن طويلة على أيّ حال. على الفم، لكنّها جرت بالسرعة التي تقع فيها القبلة على الخدّ.

– وبعدين؟
– سألَتْني شو إسمي.
– وبعدين؟
– بعدين ولا شي، قامت بدها تروح. بسّ لما فتحِتْ الباب قالتْ لي إنت لزيز يا صالح.

كان ذلك كلّ ما حصل بين صالح وكاتيا. لم يلتقيا منفردين مرّة ثانية. وصالح صار، هناك في تلك الساحة، أو في الكافتيريا، يسلّم عليها من ضمن حدود السلام العابر العادي، لكنّه يظلّ ناظراً إلى وجهها ليتبيّن إن كانت ستأتي منها دعوة ما. «أهلاً صالح»، تقول. فقط «أهلاً صالح». محمّد صافي قال له إنّها هكذا هي، وإنّها «مش متلنا بتعلق من البوسة. إجا على بالها تعمل هالشغلة، عملِتها وخلص». لكن، مع وصفِه ما جرى بأنّه حادثة عابرة، وأنّها حلوة لأنّها هكذا عابرة، راح محمّد صافي يحمّلها أكثر بكثير ممّا تحتمل. من

يستمعون إليه في الكليّة كانوا يقولون له «تخَّنتها، معقول هالبوسة تكون أحلى شي صار بلبنان؟» وهو، على عادته، يستطيع أن يستدرجهم إلى أن يقتنعوا، أو على الأقلّ، إلى أن يتشوّشوا بين إعجابهم بحججه وبقائهم، رغم ذلك، غير مصدّقين ما تسعى الحجج إلى برهنته. أمّا الكلمة التي يجدونها معبّرة عن تشوّشهم، والتي تريحهم في الوقت نفسه من التفكير ووجع الرأس، فهي «المبالغة»، وهي كلمة، كما يبدو، اتفقوا عليها جميعاً. محمّد صافي «يبالغ»، يقولون، ليس في ما قاله عمّا جرى بين صالح وكاتيا فحسب، بل يبالغ في كلّ شيء.

لكنّه حظي بثلاثة أو أربعة، كلّهم من طلّاب الأدب العربي، ممّن لا يحتاجون إلى براهين ليقتنعوا. هؤلاء كانوا غير مكترثين إن كان ما قاله محمّد صافي صحيحاً أو غير صحيح. بل ربّما يرون أنّ الفكرة، لتلقى إعجابهم، يجب ألّا تلقى موافقة من أكثر سامعيها. يريدونها غير صحيحة إذن، لكن جديدة، ومفاجئة، كأنّهم، حين يسمعونها، يقولون، كلّ واحد بينه وبين نفسه: لا أحد يخطر له هذا، لا أحد يقول إنّ ما جرى مع صالح في تلك القاعة بالطابق الثاني هو القمّة التي بلغها لبنان.

معهم، هم الثلاثة أو الأربعة، الذين صاروا خمسة أو ستة أو حتى سبعة في تلك السنة الأولى ذاتها من سنوات الكليّة، لا يحتاج محمّد صافي إلى أن يخترع كلاماً يحوّل البدعة التي قالها إلى شيء منطقي ومفهوم. معهم لا يجد أنّ عليه أن يجهد نفسه في اختراع الأدلّة والبراهين من ذلك النوع الذي يحبّه طلّاب الرياضيّات والفيزياء. تكفيهم، هم مؤيّدوه، تلك الجملة وحدها، تلك الفكرة وحدها، كما هي، ومن دون الحاجة إلى أن يُزاد عليها

شيء. وسيكون عليهم، من ثمّ، أن يؤلّفوا منها أفكاراً يهتدون إليها من دون أن يبذلوا لها جهوداً تتعبهم.

* * *

من النافذة المفتوحة كان يخرج الصوت إلى البنايات المجاورة ضعيفاً مرّة قويّاً مرّة. كان يوسف يختبر إن كانت الموسيقى تصل إلى آذان جيرانه فيقف عند النافذة متطلّعاً في ما قد يظهر من نوافذ الشقق حوله. بذلك كان يتبيّن إن كان يؤدّي ارتفاع الصوت إلى تذمّر أحد. ولم يتأخّر انتظاره لشيء يأتيه من تلك النوافذ التي يظلّ أكثرها مشرعاً. ظنّ في البداية أنّ تلك المرأة التي وقفت هناك إنّما ترسل إشاراتها إلى شخص آخر، ربّما في بنايته نفسها. لكنّه، ما إن يحيد مبتعداً عن النافذة حتى تروح تصوّب يدها نحوه، لتبقيه واقفاً حيث هو: أنت... بلى أنت، تقول يدها الممدودة المصوّبة إليه. ظنّ أنّ الأمور مع النساء تحدث هكذا في بيروت، لكنّه، رغم ذلك، بقي وقتاً يتلقّى الإشارات من دون أن يبادر إلى الاستجابة لها. «تعال... تعال...» صارت تومئ له قبل أن تستدير عن النافذة ليفهم أنّها تهيّئ نفسها لمجيئه إلى بيتها. ليست رغبته فقط هي التي دفعته إلى أن يستجيب لها، بل شعوره بأنّ بقاءه حيث هو، واقفاً عند النافذة أو مرتدّاً عنها، لن يدلّ إلّا على جبنه وخوفه. كان عليه أن يسير مسافة ليصل إلى حيث هي، ملتفّاً حول البنايات المصطفّة على يسار الشارع الذي هو فيه. وفي أثناء ما كان يتقدّم عابراً تحت النوافذ والشرفات، كان يبحث عن شيء يكون عذراً له ليرجع إلى غرفته. لكنّه واصل التقدّم. عند المنعطف الموصل إلى بنايتها فوجئ بزحمة الناس وارتفاع أصواتهم. كاد يتوقّف ويقفل

عائداً لو لم يثنه عن ذلك ظنّه بأنّ استدارته ليرجع من حيث أتى، مجرّد استدارته، ستقلب على الفور أنظار مَن في الشارع لتصير كلّها متّجهة نحوه. لا ينبغي أن يقوم بأيّ حركة تنبّههم إليه. عليه فقط أن يتقدّم في المسافة الباقية مبقياً نظره مُرَكَّزاً على ما تحطّ عليه قدماه الماشيتان. لم تعد أمامه إلّا خطوات قليلة، وها هو يقطعها إلى حيث سيستدير بجسمه، كأنّما بانعطافة اعتادها، إلى مدخل البناية الذي أكمل سيره فيه، ليصعد منه إلى الدرجات التي ستوصله إلى شقّتها، هناك في الطابق الرابع.

الدرج وليس المصعد. لن ينتظر نزول حجرة المصعد من حيث قد تكون في واحد من الطوابق. إن فعل، إن بقي هكذا منتظراً، فقد يأتي رجل ليقف بقربه منتظراً مثله، وربّما سيسأله إلى أين هو صاعد. أو يقول له، كأنْ من أجل أن يعرف من هو، إن كان ساكناً جديداً في البناية. الأفضل أن يصعد على الدرجات، مسرعاً، بل بأكثر من سرعة مشيه في الطريق. لكن عليه أن يبطئ حين يصل إلى الطابق الثالث، لكي لا يصل إليها لاهثاً مختنقاً بأنفاسه. واحدة واحدة صعد الدرجات الباقية الأخيرة. ومتمهّلاً ضغط على الجرس الذي لم يُكتب اسمٌ على لوحته الصغيرة. مرّة واحدة فقط. مرّة واحدة انتظر من بعدها خمس ثوانٍ أو ستّاً، وكان خلالها مستعدّاً ليبدأ رجوعه من حيث أتى، نازلاً مهرولاً على الدرجات.

– نعم؟

أفزعه الصوت. بدا له كما لو أنّ الرجل صاحب الصوت كان يعرف بمجيئه إذ لم يكن منتظراً حتى أن يسمع ردّاً من يوسف الذي لم يكن بوسعه أن يلفظ كلمة واحدة.

– إنت اللي عمتوقف هونيك على الشبّاك؟ سأله الرجل مفلتاً درفة بابه ومندفعاً نحوه.

لم تصل إليه تلك اليد الغليظة ولم تجارِ سرعتَه سرعةُ الرجل الذي لم يكمل نزوله فبقي واقفاً في وسط الدرجات. غير أنّه تبع يوسف بصوته الزاعق الضخم مهدّداً بأنّه يعرف أين هو بيته وأنّه سيلحق به إلى هناك.

لم أعرف أين قضى بقيّة يومه وأين قضى ليلته تلك. في كافتيريا الكليّة التي بكّر في المجيء إليها كان جالساً موارباً بابَيْ الدخول المتجاورين. قال لي من فور ما جلستُ على الكرسي الخالي بجانبه إنّه لن يعود إلى هناك. كان مرهقاً وخائفاً، ومرتبكاً من خوفه ومن خجله أيضاً. لم يقل كلاماً كثيراً على أيّ حال. فقط ما يكفي ليفهمني أنّه لا يعرف إن كان ما جرى مكيدة أوقعتْه فيها المرأة ومعها الرجل الذي ربّما كان زوجها. ثمّ قال لي مرّة ثانية إنّه لن يعود إلى هناك، ليس خوفاً من ذاك الرجل وحده بل من أهل الحيّ جميعهم.

– وأغراضك... بتترك أغراضك هونيك؟

– مش كتار، وهنّي عتاق كمان.

– والبيك أب؟

– ما بعرف، قال، ثمّ رفع عينيه إليّ كأنّما لأقترح عليه شيئاً.

– قصدك روح أنا جيبو؟

– ما بعرف، قال مرّة أخرى قبل أن يسألني، فيما هو يقوم عن كرسيّه، إن كنت أريد أن يحضر لي شاياً.

* * *

«عالم جميل... نساء وفواكه وآراء».

كان ينبغي أن يكون قائل هذه الجملة رجلاً كبيراً، في عمر رجال الروايات الذين امتدحوا العالم بعدما خبروه. «زوربا» واحد من هؤلاء، بل أنطوني كوين الذي هو الممثّل المناسب لأن يقول ذلك، في كثير من أفلامه لا في فيلم «زوربا» فقط. كما أنّ عُمْر أنطوني كوين، الذي بلغ حدّاً من النضج الرجولي، وهو عمر الخمسين مثلاً، هو المناسب لقول حكمة مثل هذه. هي حكمة لاهية، كأن يكون قائلها مقيماً على شاطئ في أحد البلدان الحارّة، رادّاً طرفَي بنطلونه إلى الأعلى وكاشفاً قميصه عن أكثر صدره، وفي يده قنّينة خمر نقص منها نصفها.

كان محمّد صافي كأنّه عاش حياة أخرى سابقة قبل مجيئه طالباً إلى الكلّية. هناك، حيث كان أو حيث عاش، لم تكن متاحة تلك النعم الثلاث، وها هي اجتمعت هنا في هذا «العالم الجميل». من المفهوم أن يُحتفل بالنساء في تلك السنوات، فقد أتاحت الكلّية العيش بين خمسمئة منهنّ، كلٌّ منهنّ مختلفة عن الأخرى ومع ذلك يمكن توقّع مفاجأة مع كلّ واحدة منهنّ. لكن أن يضيف محمّد صافي إليهنّ الفواكه، فذلك ينبّه رفاقه الذين تعلّقوا به إلى أنّ الفواكه هذه ليست تلك التي تأتي بها أمّهاتهم إلى البيوت. إنّها فواكه الشِّعر، يُحتفل بها جنباً إلى جنب مع «النساء» اللواتي، قبل المجيء إلى الكلّية، أي في السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية، كان اسمهنّ «البنات»، أي إنّ ما كان يمكن أن يجري من قبل معهّن، أو مع إحداهنّ، هو تلك المطاردات التي تكفيها قبلة ليكون قد تحقّق الفوز. أمّا هنا فهنّ نساء، نساء الرجال. في كلّ واحدة

نصيب من تلك الصفة (النساء) التي تجمعهنّ. أي إنّ الواحدة منهنّ هي نفسها (كاتيا مثلاً) وهي النساء جميعهنّ أيضاً.

أمّا «الآراء» فهي قطعاً ليست ما جئنا نتعلّمه في الكلّية. إنّها ما سنصوغه ممّا قرأنا في الكتب وما حفظناه من كلام متفرّق جاء على لسان مَن نعرفهم ومن لا نعرفهم. في أحيان تختلط الأمور فلا نعيّن إن كانت تلك الفكرة من اختراع قائلها، الذي هو واحد منّا، أم هو أخذها من كتاب أو من شخص أكبر منه سنّاً عرفه قبل مجيئه إلى الكلّية. الدكاترة في الصفوف حذرون تجاه هذا الخلط، إذ ينبغي بحسبهم أن يُنسب الكلام دائماً إلى صاحبه أو إلى مؤلّفه. أمّا مَن صاروا يُسمَّون «شلّة الشعرا» فكانوا غير مكترثين بأن يقولوا إنّ هذه الفكرة هي لهم أو إنّهم جاؤوا بها من غيرهم. لم يكن محمّد صافي ليجيب إن كان هو الذي سمّى أشياء العالم الجميل، الثلاثة، تلك، أم أخذها عن واحد من الشعراء أو عن بطل في رواية.

«عالم جميل... نساء وفواكه وآراء».

لكنّ زهير، وهو واحد من أفراد «شلّة الشعرا» الأربعة أو الخمسة الذين ربّما صاروا سبعة، لم يتمكّن من توزيع الأشياء الثلاثة توزيعاً مناسباً فراح يضع «الآراء» حيث يجب أن يضع شيئاً آخر. بذلك ضيّع على نفسه فرصة أن تكون له جلسة ثانية مع نجاة، طالبة الأدب الإنكليزي. الجلسة الأولى كان قد دبّرها له وليد الذي لا يجد صعوبة في ممازحة الطالبات، ثمّ جلس وحده بعيداً يراقب ما سيجري بين الاثنين. كان زهير يتكلّم ونجاة تنظر إليه، ضاحكة أولا، ثم مبتسمة، ثمّ ساهية، ثمّ مرسلة نظرها إلى حيث يجلس وليد هناك على طاولته. تلك كانت فرصة ضيّعها زهير إذ إنّه لم يترك مجالاً لكلمة واحدة تقولها نجاة في ربع الساعة تلك. ومن لحظة ما

قام عن كرسيّه غير عارف شيئاً عن الانطباع الذي تركه، أسرع وليد إلى نجاة التي ما زالت جالسة حيث هي:

– شو...؟ سألها وليد.

– ما فهمت شي.

زهير قال أشياء كثيرة هي آراء كلّها. حتى إنّها، هي نجاة، لم تعرف أن تضع كلمة قرب أخرى ممّا سمعت منه. لا أكثر من كلمات متفرّقة مثل تاريخ... معاناة... إيديولوجية... الماركسية اللينينية... الوجودية، كلمات جمعتها هي بتلك الحركة من يديها اللتين بدتا كأنّهما تخلطان أشياء في ماكينة سريعة الدوران.

– وما قلّك شي إِلِك؟

– متل شو؟

– ما قلّك إنّك كتير حلوة مثلاً؟

هذه فهمتْها نجاة. بل وفهمت أنّ وليد قالها نيابة عن نفسه، محوّلاً الفرصة الثانية إليه بعدما تبيّن أن لا أمل لزهير.

– إنت شفت كلساتو كيف هنّي تحت البنطلون، معرّقين، «فلوري»، قالتها بالفرنسية فيما هي تضحك ثمّ تقفل فمها بقفا راحتها كأنّها تعتذر عن ضحكها.

هذه المرّة كان هو، وليد، قد فهم أنّها انحرفت قصداً عن العرض الثاني الذي قدّمه لها، وأنّ فرصته طاشت هو الآخر. لكنّ ذلك لا يهمّ، فهنا في الكلّية يمكن أن تطلق الدعوات من دون تهيئة، ولا داعي إذن لأن يشعر بالخيبة من رُفض أو رُفضت دعوته.

أمّا في الأعلى، هناك في الساحة المشمسة:

– شو... مشي الحال؟ سأل وليد زهير.

– إنت شو بتقول؟ هيّي شو قالت؟

– هيّي ما قالت شي. بس إنت شو حكيتها؟
– يمكن زَوّدْتا عليها، الحقّ عليّي...
– على كلّ حال هنّي جماعة الأدب الإنكليزي متلهن متل جماعة العلوم، بتحسّهن بعد ما طلعو من بيت أهلن. بعدين شايف شو مرتّبي، كأنها رايحة على الكازينو.
– يعني شو... بنساها؟
– ما بعرف... جرّب.

* * *

– إنت بتقول إبراهيم علواني حِلْو؟
– شو يعني حلو؟
– يعني حلو... شَبٌّ حلو...؟
– ما بعرف... بدّك تسألو إلو، أجاب شوقي الذي كان يقصد أن يتمسخر من سؤال وليد، لكنّه مع ذلك أصاب ما كان يتساءل عنه الكثيرون، وهو: ما رأي إبراهيم علواني بنفسه، هل يرى أنّه حلو أم هو محتار في ذلك مثل جميع الذين يعرفونه.

في مرّات، حين يشاهدونه واقفاً بطوله، حاملاً بيده السلسلة التي في آخرها مفاتيح سيّارته الفوكسهول، يظنّون أنّه الآن يفكّر، بينه وبين نفسه، أنّه لا بأس به، بل ربّما يفكّر أنّه جميل. وهو، على كلّ حال، حتى إن كان لا يفعل شيئاً، كأن يكون واقفاً منتظراً عند البوابة، يمكنه أن يفكّر أنّه من أجمل شباب الكليّة. فهو طويل (وكان سيكون أطول ممّا هو لولا انحناءة ظهره في الأعلى، هناك عند تقوّس الكتفين)، وعيناه زرقاوان، وشعره أشقر تقريباً، أي إنّ فيه صفات كثيرة تجعله جميلاً. لكنّ سارة التي في الأدب الإنكليزي

معه ومع نجاة تقول إنّ هذه الصفات كافية لأن تجعل صاحبها جميلاً لكن، في حالة إبراهيم علواني، لكلّ قاعدة استثناؤها.

ولا يعني ذلك أنّ إبراهيم هو استثناء فعلاً ممّن له صفاتهم. يمكننا أن نقول إنّ أمره محيّر ما دام الجميع يتساءلون لماذا لم يستطع أن يصاحب ولا واحدة من بنات الكلّية الخمسمئة. كانت البنات ينصرفن عنه ويذهبن إلى غيره. شيء يشبه أن يمدّ شابّ يديه الاثنتين مستقبلاً بنتاً تتقدّم في الاتّجاه الذي هو فيه، ليُفاجأ بعد لحظة بأنّها ذاهبة إلى شابّ آخر واقف خلفه. وفي أحيان كان هذا يجري من دون علم إبراهيم، مثلما حصل يوم قال له وليد خذنا بالسيّارة إلى شتورة. وإذ استهجن إبراهيم هذا الطلب قائلاً «ليش شو فيه بشتورة؟» عاجله وليد بقوله إنّها صبحيّة، تحب أن تأكل هناك لبنة بلدية. في الطريق إلى شتورة كانت صبحية جالسة في المقعد الأمامي، بجانب إبراهيم علواني الذي كان يسوق فقط، لكن مرتاباً في ما يجري في سيّارته وغير عارف أنّ يد وليد اليمنى تتنقّل بين ذلك القسم من جسم صبحيّة ويدها المستسلمة المرخاة إلى الوراء.

أين الخطأ؟ هل هو في وجه إبراهيم علواني؟ في نظرة عينيه مثلاً؟ هل هو في أسنانه؟ أم هل الخطأ في طريقة تحريكه يديه اللتين تبدوان، حين يتكلّم، كأنّهما تنقّلان أشياء ثقيلة أمامه، تارةً تقرّبانها إلى هنا وتارة تعيدانها من جديد إلى حيث كانت هناك.

أو ربّما كان الخطأ في سوء اختيار إبراهيم لمن يكون في صحبتهم. فبدلاً من أن يذهب إلى حيث يجب أن يكون، مع رفاقه في صفّ الأدب الإنكليزي مثلاً، وجد نفسه بين «شلّة الشعرا»، أولئك الخمسة أو الستة، أو السبعة، الذين لهم طريقتهم الخاصّة

في تصنيف الناس. هناك، بين طلّاب الإنكليزي، كانت نجاة ستفضّل واحداً مثله على زهير الذي، بعدما ظلّ يتفلسف أمامها غير عارف بما يقول، قام منصرفاً بكلساته وقصر بنطلونه اللذين يبديانه مثل بجعة. لقد ذهب إبراهيم إلى المكان الخطأ، أو ربّما وجد نفسه هناك بسبب فوضى السنة الأولى التي لا يعرف الطلّاب فيها أيّ رفقة هي التي تناسبهم. لكنّه، بدلاً من أن يغيّر مَن وجد نفسه بينهم، مثلما فعل كثيرون بعد ثلاثة أشهر أو أربعة من بدء السنة، ظلّ هناك، في المكان الخطأ، باقياً حيث هو، من دون أن يفاجئ الذين هو بينهم بفكرة واحدة يحبّونها.

* * *

كاد إبراهيم علواني ينجو بنفسه لو ظلّ وحده منفصلاً عن أصحابه الذين يقولون إنّه لا يعرف كيف يدبّر حاله. ذاك أنّ وجوده بينهم، وهو يحبّ دائماً أن يكون بينهم، يعطّله عن أن يبدأ شيئاً مع البنات. لكنّ الابتعاد عن أصحابه تحقّق له صدفةً في ذلك اليوم حين تلفّت حوله، ثمّ أمامه ووراءه، ولم يجد أحداً منهم. ربّما كانوا خرجوا من المظاهرة متّفقين مسبقاً على ذلك. أو ربّما لم يسيروا فيها خطوة واحدة، مكتفين بالوقوف مع المحتشدين في ساحة البربير، ثمّ انسلّوا منها لحظة رأوا أنّها بدأت تتحرّك. حين لم يجدهم إبراهيم علواني قرّر أن يخرج من المظاهرة مثلهم، ويعود إلى الكلّية ما دام الوقت في أوّل العصر. لكنّه لم يشأ أن يخرج زائحاً عن الصفّ الذي هو فيه، لا باتّجاه اليمين ولا باتّجاه اليسار. آثر أن يتراجع بدلاً من ذلك، خطوة إلى الوراء ثمّ خطوة أخرى إلى الوراء، تاركاً التظاهرة تتقدّم وهو يتخلّف عنها، تتقدّم وهو يتخلّف عنها، وذلك حتى يصير

في آخرها، فيقف لحظة في مكانه، وبذلك يكون قد خرج من دون أن ينتبه لخروجه أحد.

لكنّ شيئاً حدث أوقفه عن تراجعه. كان قد بلغ الصفوف الأخيرة حيث يتضعضع المتظاهرون ولا يعودون متراصّين مرافقين بعضهم بعضاً، حين رأى تلك الفتاة الطويلة التاركة خصلتين كبيرتين من شعرها تنزلان على جانبي صدرها، لم يلزمه أن يخترع خططاً لكي يصير ماشياً إلى جانبها. ليس عليه إلّا أن ينسّق خطواته، سائراً هذه المرّة إلى الأمام، منحرفاً في المرّة التالية إلى اليسار، ثمّ خطوة مائلة إلى الأمام مرّة أخرى، ليجد نفسه بعد دقائق ماشياً إلى جانبها.

وحين صار هناك لم يعد محتاجاً إلى أن يقول شيئاً. عليه أن يمشي فقط، محافظاً على تلك المسافة القليلة بينه وبينها. وهو، مصيباً هذه المرّة، فكّر أنّ الأمور في المظاهرات تحدث من تلقائها. لم يتأخّر ذلك على كلّ حال. فأوّلاً لم تزح هي من مكانها مثلما كان يمكن أن تفعل لتبقي على مسافة الخطوة أو الخطوتين التي تفصل بينهما. ولم تبطئ مشيها أو تسرّعه لكي يصير أمامها أو لكي يتراجع عنها. بل إنّ إبراهيم، بعدما زادت سرعة المظاهرة قبل أن تصل إلى حيث تجمّع رجال الدرك، هناك في أعلى الطلعة، عرف أنّها راغبة في البقاء إلى جانبه. كانت تسير بسرعته ذاتها، وهو راح يختبر ذلك بأن يوسّع خطواته قليلاً ليرى إن كانت ستلحق به. وكانت تفعل. وحين سدّ الدرك الطريق هناك في الأعلى، مانعين التظاهرة من التقدّم، صارت الصفوف تزداد قرباً بعضها من بعض إذ كان يتقدّم الذين في الخلف فيما أولئك الذين في الصفوف الأولى محجوزون في مكانهم.

كانت الأصوات قد ارتفعت بالهتاف القويّ مع إيقاف التظاهرة عن التقدّم. وتوتّرت الصفوف بسبب ذلك فبدأ الناس يخلون مطارحهم لينضمّوا إلى صفوف أخرى، أو ليكتفوا بأن يقطعوا مسافة إلى الأمام ثمّ يعودوا بعدها، مبقين على توتّرهم، إلى حيث كانوا في مطارحهم السابقة.

– أكيد بدّن يقمعوا المظاهرة، قالت كأنها تكلّم نفسها.

– بلّشوا، هيدا صوت قنبلة مسيّلة للدموع...

– منيح اللي إنتَ معي، قالت وهي تنظر إلى وجه إبراهيم لأوّل مرّة.

لم يُفاجأ. بل إنّه التقط المبادرة وأكمل بها بأن أعلى ذراعه ملامساً كتفها، ليُشعرها بالحماية، ثمّ أخفض يده ليلمس لثلاث ثوانٍ أو أربع يدها الطريّة الطويلة الأصابع.

– ياللا عالفوكسهول، قال له زهير مستبقاً ما ينبغي أن يحصل، ومقاطعاً الحكاية التي بدأت تصير مشوّقة.

وافقه إبراهيم، وأجابه أنّ الفوكسهول لم تكن بعيدة على كلّ حال.

ثمّ استأنف عائداً إلى التظاهرة:

– خايفة يصير شي؟ سألها.

– شويّ، قالت.

– بتحبّي نطلع؟

– إزا بتحبّ...

انسحبا من التظاهرة معاً، ولم يترك إبراهيم يدها إلّا بعدما صارا بعيديْن مسافة عن المتظاهرين.

توّاً إلى الجبل. لم يجب حين سأله زهير إلى أيّ منطقة في الجبل أخذها. لكنّه قال إنّه كان ممسكاً بيدها طول الطريق ومقلّباً إيّاها في يده. وحين وصلا إلى هناك راحا يتحادثان وهما في السيّارة التي ركنها تحت الشجرات. لم يكن ينوي أن يبدأ معها من فوره، قال، فهي ليست من البنات اللواتي يُمكن إنهاء الأمر معهنّ من المرّة الواحدة. لكن حصل شيء على كلّ حال...

– شو هوّي؟ سأله محمّد صافي.

– تبويس، أجابه إبراهيم.

– تبويس كيف؟

– تبويس... بتعرف... قال ردّاً على السؤال جاعلاً يديه الكبيرتين ترسمان شكل كرة بما يعني أنّ التبويس كان كثيراً.

– وهيّ كيف كانت؟

– كانت منيحة... منسجمة...

– كيف يعني منسجمة؟ صارت هيّ تقرّب عليك مثلاً وتبوّسك؟

– لأ، أجاب إبراهيم مدركاً أنّها لو كانت كذلك لبدت واحدة من البنات اللواتي يَقبلن كلّ ما يُعرض عليهنّ. ثمّ أضاف، ممثّلاً على ذلك بضمّ أصابعه، إنّها لا تصحّ لأيّ كان. «بتعجبك» قال لمحمّد صافي.

– طيّب خلّينا نشوفها، ردّ محمّد صافي.

– مرّقلنا ياها، قال زهير مستخدماً صيغة أخرى.

غضّ إبراهيم عن تلك البذاءة، العابرة على كلّ حال، ثمّ قال، ملتفتاً إلى محمّد صافي، إنّه سيدعوها إلى الكافتيريا.

– أيمتى؟ سأله محمّد صافي.

– بكرا... بدّك بكرا؟

وفيما كان محمّد صافي يفكّر إن كان «بكرا» يناسبه، كان إبراهيم يفكّر أنّه أوقع نفسه في الدور الذي يبديه مقبلاً على تسليمها لمحمّد صافي.

– إيه، بكرا منيح، أجاب محمّد صافي.

– أوكي، على كلّ حال خلّيني فكّر كيف بدنا نضبّطا، قال إبراهيم بما يشبه أن يكون خاتمة للحديث.

لكّن زهير أعاده بعد دقيقة السكوت إلى حيث كانوا:

– شو...؟ بدّك تجيبها؟

قال ذلك بنبرة بدا فيها مستعدّاً للتشكيك في كلّ ما رواه إبراهيم عن البنت.

– أوكي، بكرا، هون بالكافتيريا.

* * *

قال لي يوسف إنّهم لو أقاموا باباً بدل النافذة لكان يمكن لهذه الغرفة التي استأجرها أن تكون دكّاناً. هنا لن يكون مضطرّاً لأن يتلفّت ناظراً إلى البنايات حوله ليرى إن كان أحدٌ يحتجّ على ارتفاع صوت الموسيقى، ولن تستدرجه امرأة لتوقع به. ما تواجهه النافذة هذه ليس إلّا حائط المبنى المسدود المرتفع تسعة طوابق. أمّا الطريق الضيّقة التي بينه وبين ذلك الحائط فهي لعبور السيّارات الداخلة إلى المرأب، والتي يسرع سائقوها إلى الخروج، مشياً على أرجلهم، من فور رَكْنها. أمّا داخل الغرفة فخالٍ إلّا من ذلك الفراش الذي يُطوى، وكرسيّين، وخزانة قديمة من درفة واحدة.

لكنّها، بخلاف بيته السابق، كانت قريبة من الكلّية إذ في عشر دقائق كنّا نصل إليها لنجلس ونستمع إلى الموسيقى ثمّ نعود إلى

الكليّة. كان يوسف قد أضاف إلى ما عنده أربع أسطوانات صغيرة، على كلّ وجه من وجوهها أغنية أو أغنيتان لمغنٍّ فرنسي. هنا أقلّه نستطيع أن نسمع كلاماً، أقول له، بعد أن أسمعه يرافق المغنّي، مستحياً مبعداً وجهه كأن من أجل أن لا أراه.

لكننا لن نظلّ هكذا وحدنا في كلّ الأوقات. فالسنة الأولى كانت سنة تجريب الطلّاب بعضهم لبعض، تنقّل خلالها كلّ واحد منهم بين مجموعات عدّة هي قيد التشكّل. ودائماً كان خروجهم معاً من الكليّة بمثابة قيامهم برحلة قصيرة. «في عشر دقائق لا أكثر نصل إلى هناك»، رحت أقول لمن أكون بينهم داعياً إيّاهم إلى مرافقتنا إلى بيته. كان يوسف يسير معنا، متأخّراً عنّا قليلاً في مشيته، تاركاً لي أن أتصرّف بدعوتهم كأنني أرافقهم إلى بيتي لا إلى بيته. على الطريق أظلّ أتلفّت حولي لأرى إن كانوا لا يزالون يرافقوننا جميعهم. لا أكثر من عشر دقائق أقول لهم مذكّراً ونحن في آخر الطريق، مشيراً إلى مدخل السيّارات الضيّق: «هنا... وصلنا»، ثمّ أنظر إلى يوسف ليتقدّم عنا ويفتح لنا الباب.

ومن فور ما نصير في الداخل، كنت أبدأ بإنزال الإبرة على الأسطوانة التي لا تزال في مكانها على صفحة البيك أبّ. في الغرفة الجديدة هذه لم يدم طويلاً سماع الموسيقى الكلاسيكية القديمة. ربّما أدرك يوسف أنّ قضاءه الساعات في تقليب أسطواناتها لم يزده معرفة بها. لذلك أرجعها إلى مغلّفاتها مكتفياً بما بقي متردّداً في رأسه من ألحانها.

لكنّ ثماني أغنيات لا تكفي على أيّ حال. كان يقول إنّه سيشتري أسطوانات أخرى كلّ شهر، أمّا بانتظار ذلك فلن يكون

عليه إلّا أن يملأ الوقت بالوقوف متراجعاً قليلاً عن زائريه، تاركاً لهم الكرسيَّين والفراش المطويّ المُسنَد إلى الحائط.

لكنّ هؤلاء، على رغم بقائه صامتاً، لم يغفلوا عن وجوده معهم. كانوا يعرفون أنّه يصغي إلى ما يدور بينهم وأنّه في صمته وحياد نظرته يكون، بينه وبين نفسه، يوافق ما يسمعه أو يعارضه، بل ربّما يكون يسخر ممّا يسمع وإن من دون أن يظهر شيء على وجهه. لذلك كان واحدهم، في أثناء ما يعلي صوته بقول رأيه، يرسل إلى يوسف تلك النظرة المتسائلة أو المنتظرة تأييداً. أنا بدوري كنت أتوقّع شيئاً ينبئ به ذلك الوجه الذي يبقي ملامحه مقفلة عمّا يدور حوله. شيء ما كان سيتغيّر لا بدّ، وإن لم تكن قد ظهرت بعد أيّ من علاماته.

* * *

الكثيرون، أي من تزيد نسبتهم بين الطلاب عن ثمانين بالمئة أو تسعين، أولئك الذين جاؤوا إلى الكليّة لكي ينجحوا، هم بلا معنى. والذين يحضرون الصفوف وفي أيديهم أقلام يسجّلون بها ما يقوله الدكتور ليعيدوا كتابته في المسابقات هم بلا معنى. وكذلك هم بلا معنى أولئك الذي يسألون الدكتور سؤالاً في نهاية الحصّة على أساس أنّهم يستغلون وجوده حتى آخر لحظة. وبلا معنى أيضاً أولئك الذين يبدون مسرورين، بل ضاحكين، فيما هم يوضّبون أغراضهم عند انتهاء الدرس. وكذلك أولئك الذين يعرفون كيف يمرّرون بالابتسام الكلام المحرج الغريب الذي يسمعونه. ومثلهم بلا معنى أولئك الذين يتجنّبون النزول إلى الكافتيريا، وكذلك الذين لا يدخّنون. ومثلهم الذين يضاحكون البنات لتُعجب بهم البنات،

هؤلاء بلا معنى، والبنات اللواتي يُعجبن بهم هنّ أيضاً بلا معنى. وكذلك الذين لا توحي هيئاتهم بشيء، والذين يظلّون على الهيئة ذاتها لا يغيّرونها. وكذلك بلا معنى هم أولئك الذين بلا عقَد، والذين لا يخفون شيئاً، والذين لا تمرّ عليهم أوقات يكونون فيها مستغرقين بما يفكّرون حتى إذا كلّمت أحدهم، ولو بصوت عالٍ، لا يسمعك. والذين لا يفاجئونك بشيء يقولونه هم بلا معنى. والذين يستحون أمام البنات هم بلا معنى، وكذلك الذين لا يستحون أمام البنات. وبلا معنى أولئك الذين يقول عنهم محمّد صافي إنّهم بلا معنى. وهم كذلك أولئك الذين يقول عنهم زهير، لكن بعد أن يوافقه محمّد صافي، إنّهم بلا معنى.

* * *

لم يوضح محمّد صافي باسم من تحديداً يتكلّم في الاجتماع الذي عقدته الأحزاب للاتّفاق على انتخابات السنة الأولى. حين سأله طالب من الحزب الشيوعي ما هو برنامج هؤلاء المستقلّين الذين جاء يزعم تمثيلهم، أجابه محمّد صافي بأنّ المستقلّين تعني مَن هم في طور التشكّل، وهذه ميزتهم، وهم يتوقّفون عن أن يكونوا مستقلّين حين يصبح لديهم برنامج عمل. كان هذا من نوع الكلام الغريب الذي يداريه سامعه بالابتسام قبل أن يدير ظهره له. لكن الطالب الشيوعي فهم أن ما سمعه ليس إلّا لعباً على الكلام، وسيكون عليه أن يجادل فيه إن أراد أن يُقصي محمّد صافي عن مجموعة القوى الممثّلة للطلّاب. كما لم يستطع أن يقول إنّ الاجتماع هذا مخصّص للقوى الطالبية المعروفة، إذ أدرك أنّ الجواب الذي سيسمعه سيكون على طريقة سابقِهِ، موجعاً للرأس.

لكنّ محمّد صافي استمرّ في إعلان رفضه أن تُدار شؤون الطلاب من المكاتب الحزبية. كان يجلس على كرسي قديم أظهره مرتفعاً قليلاً عن المجتمعين الآخرين. وهو، شاعراً بذلك الارتفاع، ومدركاً وقع جسمه الضخم القويّ عليهم، سألهم كيف قرّرت الأحزاب أن تكون هي المتكلّمة باسم الطلاب. ما ينبغي فعله، بحسب ما قال، هو أن يُجرى استفتاء لهؤلاء الطلّاب ليُعرف إن كانوا موافقين على أن تتكلّم الأحزاب باسمهم. ثمّ أضاف، كأنّ فكرة جديدة خطرت له لتوّها، إنّه يجب أوّلاً إجراء إحصاء لنعرف نسبة الحزبيّين من بين طلاب الجامعة.

– أنا أقترح تعليق الاجتماع، قال ممثّل الحزب الشيوعي.

لكنّ شابّاً من ممثّلي اليسار الجديد قال له إنّ الزميل (قاصداً محمّد صافي) لديه وجهة نظر ينبغي أن نسمعها.

– يمكن الحزبيين يكونوا أكتر من المستقلين، ويمكن يكونوا اتنين بالميّة بسّ، لكن على كلّ حال مش لازم نعرف؟ قال محمّد صافي.

* * *

– وليش بدّك تعرف، علّق اليساري الجديد، لكن من قبيل تشجيع محمّد صافي على أن يستمرّ في ما يقوله.

– لأنو هاي الديمقراطية... يعني اللي هني كتار مش لازم يحكوا بإسمهن القلال.

– صحيح... هيدا صحيح، بس على كلّ حال بدنا نعرف بإسم مين عم يحكي زميلنا... بدنا نعرف مين هنّي المستقلّين تبعولو؟

بدا لمحمّد صافي أنّ الذي قال ذلك أكبر عمراً من أن يكون طالباً في الكلّية، أو ربّما كان في السنوات التالية للسنة الأولى، الرابعة أو الخامسة على الأرجح، وقد جاء مكلّفاً من الحزب ليراقب، من حيث يجلس خلف حلقة الجتمعين، رفاق حزبه الجدد كيف يتصرّفون في الاجتماع.

– الرفيق ضيف مين بالاجتماع... طالب عنّا حضرتو؟ سأل محمّد صافي.

– مش طالب عندك، طالب هون بالكلّية.

لم يكن فقط أكبر عمراً ممّا ينبغي لطالب في السنة الأولى، بل بدا متهيّئاً لمواصلة هجومه على محمّد صافي. الجسم الضخم القويّ المرتفع على ذلك الكرسي العالي لم يُخفه، ولم يُربكه الكلام عن المستقلّين والديمقراطية. محمّد صافي لم يتأخّر في أن يعرف، أو يحسّ، أنّ ما سمعه هو من نوع كلام القرارات التي تتّخذها الأحزاب من أجل أن تُكمله وتستمرّ فيه. وهو، على كلّ حال، يستطيع ألّا يشعر بأنّه أهين إن سكت ولم يجب، فما قاله عنه ذلك الحزبي يعادل ما قاله هو له («مش طالب عندك» التي قالها الحزبي في مقابل «طالب عنّا حضرتو؟» التي قالها هو). لكنّه مع ذلك ألهى المنتظرين لجوابه بسحب سيجارة من علبة المارلبورو التي أمامه وراح يحدّق فيها على مهله مقرّباً إيّاها من عينيه، ثمّ مبطئاً أشعل عود الكبريت لينفخ على ناره نفخة قويّة بعدما توهّج مقدّم السيجارة.

ما سمعه كان مساوياً لما قاله، وقد أضاف على حصّته تلك حركاته البطيئة بإشعال السيجارة، التي يُمكن أن تكون هي أيضاً من نوع الاستفزاز. لكنّ صوتاً ارتفع ليقول إنّ أحداً هنا لا يستطيع

إسكات أحد، وإنّ الزميل، قاصداً محمّد صافي، يستطيع أن يقول ما يشاء.

كان هذا المتكلّم صنو ذاك الجالس، هو أيضاً، في الصفّ الخلفي، فكّر محمّد صافي. كلاهما حضرا ليكونا بمثابة الجبهة الخلفية لرفاقهما. وهو أدرك أنّ ما سمعه أخرجه من الموقف المحيّر الذي كان فيه. يستطيع الآن أن يبقى ساكتاً، وسيكون لسكوته معنى آخر مختلف. كما أنّه، منذ الآن، يستطيع أن يهيّئ نفسه ليبدأ من جديد، لكن عليه أن ينتظر قليلاً ليرى. ولم يلبث أن باشر ذلك حين قال، قاطعاً لحظات الصمت التي كادت تطول، إنّ هناك زملاء آخرين لم يتكلّموا بعد. لكنّ الطالب الشيوعي لم يعجبه ذلك التعليق الذي يُبدي محمّد صافي متنطّحاً لتنظيم الاجتماع، لذلك قال، مستعيداً المبادرة: «خلّينا نرجع لموضوعنا».

* * *

كان يوسف يفكّر ماذا عليه أن يكون، وفي أيّ اتّجاه عليه أن يتغيّر، بصرف النظر عمّا يجري بين الطلّاب الذين يأتون إلى بيته. حتى في الوقت الذي يبدو فيه مصغياً إلى ما يقولونه، ومقلّباً نظره بينهم، كان رأسه يشتغل بما لا علاقة له بما يرى أو يسمع. أعرف ذلك من المرّات التي كان يهمس لي، حين يصادف وقوفي بقربه، بما يدلّ على انصرافه عن كلّ ما هو حوله. حين كانوا مسترسلين مثلاً في إطلاق الأوصاف على بنت الفيزياء التي تعبر في الساحة المشمسة رافعة صدرها إلى الأعلى، وتتصرّف كأنّها لم تسمع الكلمات التي يقولونها عنها، كان هو يقول لي إنّه يرغب في شراء بارودة صيد. لكنّه، بعد يومين أو ثلاثة، وفيما كنت أنتظره قرب باب

بيته المقفل، جاء حاملاً غيتاراً بدا لي أنّه اشتراه لتوّه. رفعه أمامي وهو يقول لي إنّه مستعمل، وأنا أدركت أنّ بائعه كان متساهلاً في سعره إذ إنّه ترك الوترين اللذين انقطعا منه منفلتين وقصيرين. قال لي يوسف فيما هو يخرج مفتاح بيته من جيبه: «بَسّ عشرين»، وكان مبتهجاً بذلك، وحين صرنا في الداخل نقر على واحد من الأوتار الباقية ليُسمعني أنّ الصوت الذي يطلع منه صوت غيتار حقيقي.

– هيدا بدل البارودة؟

لم يجب. كان قد جلس على الفرشة المركونة على الأرض، واضعاً الغيتار في حضنه ومنقّلاً إصبعه بين الأوتار الباقية ليسمع رنّاتها. ثمّ راح يشدّ واحداً من الوترين المنفلتين ليرى إن كان ممكناً عقده. قال لي، بعدما تبيّن له قِصَره إنّ عليه أن يشتري خيطين جديدين، وسألني إن كانت هي ذاتها خيوط النايلون التي تُباع في الدكاكين.

– بتحبّ تجرّبو هلّق أو بتنطر حتى نصلّحو، قال ثمّ قرّب الغيتار لي لآخذه بيديّ الاثنتين. فعلت كما فعل، مطلقاً الصوت وممهلاً نفسي لكي أتبيّن رنينه. كنت أعرف أنّه لن يحتمل بقاء الوترين مقطوعين هكذا، وأنّه الآن يريد أن يرى آلته كاملة بين يديه. سألني، مستحياً من أن يبدو ملحّاً، إن كنت لا أمانع أن نذهب الآن لإصلاحه. وإذ أجبته بما يحبّ، قام من فوره عن الفرشة ووقف منتظراً أن أخطو قبله نحو الباب.

– الغيتار خلّيه هون، قلت.

فكّرت أننا سنلفت نظر الناس في الطريق، خصوصاً عندما نصل إلى تلك الطلعة التي في آخرها صفّ الدكاكين. بل قد يتوقّف بعض

من قد يكونون هناك عن مشيهم، هكذا عن قصد، كأنّما ليفهمونا أنّ منظرنا حاملين الغيتار يستحقّ الفرجة.

– خود الخيطان، بسّ الخيطان.

بدا مرتبكاً. قرّب الغيتار من عينيه كأنّما ليتبيّن كيف يمكن أن ينزع الخيطين، ثمّ، متراجعاً عما كان ملحّاً عليه، استدار عنّي مفتّشاً عن مكان مناسب ليركن الغيتار فيه.

– خلّينا لوقت تاني، قال وهو يسند الغيتار إلى الحائط ويجلس على الفرشة المطويّة بجانبه.

* * *

كان محمّد صافي يبالغ بتعيينه الساعة العاشرة والنصف من يوم 11 شباط 1968 الذروة التي بلغها الزمن الجميل، لكن ما ليس مبالغاً فيه هو أن تلك السنة – 1968 – كانت أجمل السنوات. ذلك نعرفه من الطلاب الذين أرسلهم لبنان إلى الكليّة في تلك السنة: البنات مثلاً كنّ أجمل من اللواتي سبقنهنّ في السنوات الأربع. من بين طالبات السنة الثانية وصولاً حتى الخامسة، ليس في الكلّية واحدة مثل إيلين، ليس فقط لنظرة عينيها التي تُبديها مُتأمّلةً وجه من يكلّمها وقليلة الاكترات بأن تفهم ما تسمعه، ولا واحدة مثل لينا التي يتلوّن وجهها بالأحمر كلّما قالت «لا» لكلّ من يدعوها من الشباب لتناول القهوة. كما ليس بين بنات السنوات الأربع السابقة من تبدو جريئة مثل يولا، حتى لو لبسن تنانيرها القصيرة ذاتها. ولم يسبق للطلاب الذين جاؤوا من الثانويات أن سمعوا زميلات لهم يتكلّمن الفرنسية هكذا، أو يضحكن للنكات الخفيفة ضحكاً لا يوقفنه إلّا حين يبدأن بالسعال، أو يشعلن السجائر من أعقاب

السجائر، أو ينادين بعضهنّ بعضاً بتلك الأسماء التي لم يسمع أحد مثلها من قبل: أليدا، كارليتا، فيكتورين... هؤلاء، أو بعضهنّ، كنّ يتكلّمن في الجمعيات العمومية باسم تنظيمات ثوريّة منشقّة عن تنظيمات ثورية أخرى، هكذا كأنّ قلّة عددهنّ لا تقلقهنّ.

البنات من طلّاب السنوات الأربع التي سبقت، لم يكنّ يحضرن الجمعيات العمومية. أمّا هنّ، طالبات 1968، فكأنّهن جئن إلى لبنان من بلاد أخرى، أو كأنّ لبنان أخرجهنّ، في تلك السنة، بعدما أتمّ تجهيزهنّ. كانت أليدا تتكلّم في الجمعية العمومية بمزيج من العربية والفرنسية خالطة إيّاهما بنغم يشبه ما نتخيّله من رقص الكوبيّات. وفي السياسة التي كانت تُعقد الجمعيات العمومية لأجلها، لم يكن كلام أليدا يؤثّر في ما كان الطلاب الشبان يسمّونه ميزان القوى. ذاك أنّ السياسة ليست كلّ شيء، وليس من أجل السياسة وحدها يتجمّع الطلّاب في تلك القاعة الواسعة المتدرّجة نزولاً مثل صالة سينما. حتى حين يتكلّم الطلّاب الشبّان، أولئك الذين يمثّلون أحزابهم، كان المزاح غالباً، وأصوات القهقهة ترافق ما يسمعه المتجمّعون في القاعة. «هيّا بنا إلى السيرك»، يقول الجالس في الكافتيريا، قاصداً حثّ من هم حوله على الذهاب إلى هناك. في يوم سابق كان هو نفسه، ذلك الطالب في السنة الأولى، قد دعا إلى مؤتمر صحافي ليتكلّم هو فيه، بمفرده، متناولاً مسائل كثيرة تبدأ بضرورة إرغام الدولة على أن تباشر بإقامة كلّيات تطبيقية للطبّ والهندسة خصوصاً ولا تنتهي بدعوتها إلى مقاتلة إسرائيل، أو على الأقلّ فتح الحدود لمن يرغب في مقاتلتها.

بل إنّ طلّاب السنة الأولى تلك استدرجوا طلّاب السنوات العالية إلى أن يتكلّموا في تلك اللقاءات، لكنّ ما كان يقوله أولئك الأكبر

منهم سنّاً كان أقرب إلى الإنشاء العربي منه إلى الحكي بالسياسة. وهم، طلّاب السنة الأولى، كانوا يتندّرون على أولئك المتجمّعين في مقدّمة القاعة فيروحون بعد انفضاض كلّ من اللقاءات يقولون:

– سمعت شو قال هيدا اللي بدّو يدافع عن المقاومة الفلسطينية؟

– أيّ واحد؟

– هيدا اللي بيضلّ لابس طقم.

– إي شو قال؟

– قال بالفصيح إنّو الفدائيّين هم أشرف من أنجبت هذه الأمّة.

– هيدي بسيطة، هيداك الطويل بالسنة الخامسة اللي ما بيقبل يحكي إلّا بعد ما تسكت كلّ القاعة قال إنّ الفدائيّين هم صهيل الشمس...

– عم يعمل أدب عربي؟

– يمكن، بس حتى بالأدب العربي ما في صهيل الشمس.

أمّا بنات السنوات الأربع السابقة، وهنّ قليلات على أيّ حال، فلم يكنّ يأتين أبداً إلى الاجتماعات، بل إنّهنّ كنّ قليلات النزول حتى إلى الكافتيريا، وإن فعلن فلا ينزلن إلّا معاً، ثلاث منهنّ أو أربع، يرحن ينظرن مستهجنات إلى ما يشاهدنه هناك، ثمّ لا يلبثن أن يعدن أدراجهنّ من دون أن تصل أقدامهنّ إلى الصالة الداخلية من الكافتيريا، حيث يعلو صخب الطلّاب على صوت الأغنيات الطالع قويّاً من آلة الموسيقى التي في حجم نصف سيّارة.

* * *

كان إبراهيم علواني بمفرده حين تمكّن، على الأقلّ، من أن يخرج مع فتاته تلك إلى الجبل ويعود بها بعدما أشبعها تبويساً. يجب أن يكون بمفرده إذن، وأن يظلّ بمفرده، كلّما بدا له أنّ فرصة ما قد تسنح له معهنّ. صار لذلك ينتظر خروجهم من الكافتيريا، ليبقى هناك وحده، مفتّشاً بين البنات اللواتي يبقين في الكلّية، يراجعن دروسهنّ، مرجئات ذهابهنّ إلى غرفهنّ التي يضجرن من البقاء فيها وحدهنّ. كان قد قضى أمسيات كثيرة بينهنّ، هناك في الطابق الأوّل المكشوف فوق الطريق. لم يكن الطالب الوحيد، لا بدّ، فليس كلّ الشباب يذهبون للتسكّع في الليل.

وكانت هناك مسافة تفصل بين طاولة وأخرى من الطاولات الصغيرة التي يتوزّع بينها الطلاب والطالبات، وهي مساحة تساعده في كلّ مرّة على أن يخترع طريقة للاقتراب منهنّ: مرّة بأن يقف على مسافة أربع خطوات أو خمس من إحداهنّ مدّعياً أنّه يفكّر أين هو ذلك الشيء الذي أضاعه. لكنّ ذلك لم يؤدّ إلى شيء، إذ لم يأته من الخلف صوت يقول له: «شو... مضيّع شي...؟». كذلك لم تؤدّ إلى شيء خشخشته لمفاتيحه وهو يهمّ بالنزول إلى سيّارة الفوكسهول ليحضر منها دفتراً أو كتاباً. ولم يحصل على شيء حين حمل كرسيّه ووضعه في وسط المسافة بين طالبتين متيحاً لنفسه احتمالين اثنين هذه المرّة لا احتمالاً واحداً.

ما كان عليه أن يفعله هو أن يبادر معهنّ، أن يقترب من إحداهنّ ويسألها، مثلاً، إن كانت تعبت مثله من الدرس. كانت هذه فكرة من اختراعه، وقد أعجبه كيف أنّه يجمع نفسه هكذا مع البنت التي سيكلّمها فيبدوان، من تلك اللحظة الأولى، كأنّهما مشتركان في شيء. لكنّه، مع استحسانه لما فكّر فيه، يعرف أنّه لن يستعمله إلّا

مرّة واحدة إذ سيبدو سخيفاً إن راح يقول الكلمتين نفسهما لواحدة بعد واحدة. لا أكثر من مرّة واحدة إذن، وعليه أن يتحضّر لها، أي أن يستعدّ لسماع الجواب، أو اللاجواب، الذي سيأتيه. من ذلك مثلاً أن ينهمك في تقليبه الأوراق أمامه، لساعتين كاملتين مثلاً يقوم في آخرهما عن كرسيّه، تاركاً أغراضه على طاولة الدرس الصغيرة أمامه، ويتقدّم إلى الأمام، حتى الدرابزين، من أجل أن يشاهدنه جميعهنّ. ثمّ، هناك، يروح يتثاءب مصلّباً جسمه وماطّاً إيّاه من تعبه، ثمّ يبدأ رجوعه إلى كرسيّه وطاولته، لكن متهيّئاً لأن يقول، على أن يبدو ذلك طبيعياً مئة بالمئة: «شي بيتعّب».

هي صيغة مختلفة ربما، لكنّها مثل الصيغة الأولى (تعبتي مثلي من الدرس؟) إذ تُقال بلهجة السؤال، أي بلهجة من ينتظر جواباً. وهي، فوق ذلك، تخلّصه من حرج محتمل مع كلّ من سيسمعه إذ يستطيع أن يقول إنّه كان يكلّم نفسه.

المهم أن تأتي طبيعيّة، أي أن يقولها كأنّها خطرت له فعلاً في تلك اللحظة ذاتها التي صادف فيها وجوده أمام تلك الطاولة الصغيرة، من دون أن يكون مهمّاً من هو الجالس خلفها.

«شي بيتعّب» قالها، لكن كأنّها انفلتت منه. جاءت طبيعية، كأنّ أوان قولها حان قبل أن يختار البنت التي يحبّ أن يقولها لها. جاءت طبيعية تماماً، وهو قالها من فوق الرأس المنحني فوق الطاولة بشعره المقصوص حتى أعلى الرقبة. لم تتأخّر البنت في الإجابة... فعلى الفور بدت كما لو أنّ أحداً نبّهها إلى كونها تعبانة. «أففف» قالت فيما هي ترمي القلم على الطاولة وترفع رأسها إلى إبراهيم. بدت له كبيرة، ربّما في السنة الرابعة مثلاً، وليست جميلة كما كان ينتظر.

لم يقل بينه وبين نفسه إنّه كان عليه أن يلقي نظرة كاشفة على الجالسات، وأن لا ينشغل فقط بأن يبدو قوله للكلمتين طبيعياً. حتى إنّه لم يُظهر شيئاً من الارتباك حين رأى أنّها، فيما تُرجع ذراعيها إلى الخلف لتلتقيا وراء ظهرها، بدت منتظرة أن يستمرّ في ما كان قد بدأه. قال لها، بصوته ذاك الذي يبدو به مقلّداً صوت شخص آخر غيره، إنّه بحاجة إلى أن يريح عينيه.

– إنت ما بتحطّ عوينات؟

– لا، بس صار لي أكثر من ساعتين عم إقرا.

– بتدخّن؟

فهم أنّها تبادر إلى دعوته. بل إنّها لم تنتظر أن يجيبها عن تدخينه إذ نهضت عن كرسيّها وقالت له، بعد أن صار وجهها قريباً من وجهه:

– تعا لنشوف شي محلّ رايق.

حين مشت متقدّمة عنه أدرك أنّه لم يكن قد رأى منها إلّا شعرها. كان قصيراً ومنهدلاً في الوقت نفسه. وهي جميلة لمن يراها من الخلف، جالسة، لا يتحرّك فيها إلّا شعرها القصير. حين بدأ يخطو وراءها خطر له أنّها، بتسويتها شعرها هكذا، تقصد خداع مَن يتأخّرون عن رؤية وجهها، إذ لا ينبغي أن يكون الفرق بين الشعر والوجه كبيراً هكذا. على كلّ حال هو لم يخسر شيئاً حتى الآن، ولن يخسر شيئاً حتى إن ذهب معها إلى أبعد ممّا وصل إليه مع سابقتها هناك في الجبل.

لكن مع ذلك يجب ألّا يبدو أمامها وكأنّه لم يعجبه فيها شيء، أن لا يبدو صافناً مثلاً، مفكّراً في أي شيء آخر ومتحيّناً الفرصة ليقول لها إنّه تأخّر ويجب أن يعود الآن إلى البيت. لن يفعل ذلك، بل إنّه،

بعد أن رأى أن ليس من كراسي خالية، هناك في آخر الطابق المكشوف، أسرع إلى حيث ترك كرسيّه وعاد ليجلسها عليها مستأذناً إيّاها أن يعود ليأتي بكرسيّها.

وحين جلسا، مديرين وجهيهما إلى الحائط الذي يحجز محطّة البنزين عن الكليّة، فكّر أنّ عليه أن يبادر إلى الكلام أوّلاً من أجل لا يربكه فارق السنوات بينهما.

– أنا إبراهيم، قال لها مادّاً يده للمصافحة.

ابتسمت هي، وقرّبت يدها إليه:

– نبيلة.

ابتسم هو هذه المرّة، لكن ليبدو أنّ الاسم أعجبه. ثمّ عاد وابتسم مرّة ثانية، لكن ابتسامة مجاملة ولا معنى لها. ذاك أنّه لم يجد شيئاً يسأله أو يقوله في اللحظات التي أعقبت جوابها عن اسمها. وهي ظلّت ساكتة أيضاً، تنظر إليه كأنّها تنتظر ذلك الشيء الذي سيقوله.

– منيح فنجان القهوة، قال متلفّتاً حوله علامةً على أن لا قهوة هنا.

– بدَّك نطلع لبرّة؟

عادت مرّة أخرى إلى أن تقوده. ليس فقط بإفهامه أن لا مانع عندها من الخروج، بل لتلك النظرة القويّة التي لا تنتظر بها موافقته بقدر ما تختبره وتمتحنه.

– أكيد... ساعة اللي بتحبّي.

من دون أن تقول له شيئاً، قامت متّجهة إلى طاولتها وتبعها هو، متراجعاً خطوات عنها ليرى ساقيها كيف هما. أعجبه امتلاؤهما وبياضهما المنكشف إلى ما فوق الركبتين.

حين أنهيا جمع أغراضهما وبدآ النزول على الدرجات سألها إن كان مقهى التروبيكانا القريب مناسباً لها.

– منروح إذا إنتَ بتحبّو.

– على كلّ حال معي سيّارة إذا بتفضّلي غيرو؟

– إيه يمكن التروبيكانا بعد شويّ بدو يسكّر، منشوف غيرو.

– هون، قال مشيراً بيده إلى سيّارته. ثمّ رافقها ليفتح بابها أوّلاً.

– بورجوازي كمان، قالت عن سيّارته التي لم تزل جديدة. أمّا هو فأعجبته كلمة «كمان»، المفصحة عن أشياء أخرى رأتها فيه.

– بتحبّي نْبَعِّد، قال جاعلاً السيّارة في الوسط بين احتمالي الذهاب من الاتّجاهين.

– متل ما بتحبّ.

ولما راح يتردّد في أيّ اتجاه يدير المقود، قالت له:

– ليك، بلا ما نروح عالقهوة. تعا نكمّل السهرة عندي بالبيت.

* * *

هذه المرّة فعلها إبراهيم كاملة. قال إنّه لم ينم أبداً في تلك الليلة. كان يرتاح بعد كلّ جولة بأن يدخّن سيجارة أو سيجارتين ثمّ يعود إليها من جديد. «الصبح وأنا عم إلبس تيابي حسّيت إني مش قادر أوقف... صارو إجريي متل الخيطان. بس شو...؟ أنا ما كنت عارف إنو الواحد بيقدر يعملها هالقد». وهذا مع أنّه دخّن كثيراً وشرب أكثر من نصف قنّينة ويسكي. «هلّق بعدني جايي، من أقّل من نصّ ساعة، جيت من عندها دغري لهون...».

– وتركتها هونيك؟ سأله زهير.

– إيه بدها تنام، علّق نقولا، عم بيقلّك إنّها ما نامت كلّ الليل.

– مين هيّ اللي ما نامت بالليل، قال محمّد صافي كأنّه من البداية لم يكن يسمع ما كان يرويه إبراهيم.

– شو مش عم تسمع، عم بيقلّك هيّ، قال نقولا مزكّياً ما غمز إليه محمّد صافي من أنّ ابراهيم لم يذكر شيئاً يعرّفهم من هي، أو كيف هي على الأقلّ. وقد تأكّدت لهم رغبة ابراهيم في إبقائها مجهولة حين سأله محمّد صافي، مفاجئا إيّاه: «طيّب شو اسمها؟»، وقد صمت إبراهيم وجعل ينظر في وجه محمّد صافي كأنّه لم يسمع سؤاله.

– سألك عن اسمها، قال له نقولا.

– إذا قلتلكن اسمها مش رح تعرفوها.

– ليه مش رح نعرفها، يمكن ما بتتخالط؟

– بركي بيحبّها، قال زهير.

– معليش إذا ما قلتلكن هلّق، بعدين رح تعرفو، وأنا رح قلّكن أكيد، هلّق اسمحولي.

– بيحبّها، قال محمّد صافي.

– يمكن بيحبها، بس بعد مش متأكِّد، قال زهير.

– مش متأكّد شو؟ سأله محمّد صافي.

– مش متأكّد من حالو إذا بيحبها.

– صحّ، مش عارف حالو... والله بتفهم إنت يا زهير.

* * *

لم يكن زهير معتاداً أن يرى رجال السياسة في مناماته. لم يسبق له مثلاً أن حلم برشيد كرامي أو بصائب سلام اللذين شاهدهما في ذلك المنام، مرتديَين ثياباً قديمة من أيّام المماليك تتدلّى منها

زخارف مذهّبة ونياشين. كانا يبدوان مضحكين وهما يمرّان من أمام الطلاب المتجمّعين في قاعة الجمعيات العمومية، وزهير ينهال على أكتافهما بضربات تأتيهما من خيزرانة رفيعة يحملها. مع ذلك، لم يلتفتا إليه ولم يتوقّفا عن مشيهما المتبختر في تلك المسافة الضيّقة.

محمّد صافي كان يصغي إلى ما يسمعه من دون أن يبتسم. وعندما أنهى زهير حكي منامه أدار محمّد صافي وجهه عنه وقد ظلّت هيئته كما هي.

– شو...؟

سأله زهير بعدما رأى أنّه سيظلّ ساكتاً هكذا.

– شو شو؟

– قصدي عجبك المنام؟

– منام حلو.

– قصدي شو تفسيره؟

– حلو يعني منيح.

– إنما...

– يعني مبيّن إنّو بعدك عالأوّل. كلّهن بالأوّل بيشوفو منام متل هيدا.

كان زهير قد فهم ماذا يعني محمّد صافي بما قاله، ولم يشأ أن يسمع المزيد بعدما جعله ذلك يشعر كم هو ساذج وأهبل في منامه. لكن محمّد صافي، بعدما كان قد عاد للحظات إلى صفنته، التفت إليه وسأله:

– تياب المماليك حلوين؟

– إللي شفتهن بالمنام؟

– إيه، تياب رشيد كرامي وصائب سلام.

ما بعرف إذا هنّي تياب مماليك، بس حلوين، ومكلّفين.

– مكلّفين شغل؟

– شغل ومصاري، كلّ جاكيت فيها شي كيلو ونصّ ذهب.

جعل محمّد صافي يهزّ رأسه ويزمّ شفتيه كأنّه متعجّب من ثياب المماليك كيف هي. ثمّ عاد إلى سكوته للحظات التفت في آخرها إلى زهير ليسأله:

– إنت قريت البيان الشيوعي؟

– قريتو.

– وشو قريت كمان؟

– أصل الدولة والأسرة والملكية الخاصّة، تبع أنجيلس.

– قريتهن بحلقة أو لوحدك؟

– البيان الشيوعي قريتو بحلقة.

– وما قريت غير هالتنين.

– لحدّ هلّق.

– هاو بيكفّوا على كلّ حال، ويمكن يكونو كتار كمان؟

– كتار على شو؟

كان زهير يعرف أنّ من الصعب أن يمرّ شيء على محمّد صافي من دون أن يعلّق عليه بالهزء، خصوصاً ما يتعلّق بأيّ شيء جديد يتعلّمه الشباب الذين حوله. لكنّه هزء لا يؤذي المعنيّ به ولا يصيبه إذ، بطريقة ما، يُشركه محمّد صافي به فيصير مثل نكتة تألّفت من مجرّد اللعب بالكلام.

– ليش ما بتيجي معنا على الحلقة، سأله زهير من أجل أن يجيب بشيء يكمل به سخريته.

– بفضّل إقرا أنا وقاعد لوحدي، هيدا إذا بدّي إقرا. أصلاً هي القراءة انعملت ليعملها الشخص لوحده. بعدين أنا اللي قريتهن بحياتي بيكفّوني. ملاقي حالي منيح باللي بعرفهن.

* * *

لم يكن قصد المتردّدين على بيت يوسف زيارته هو، بل قضاء فترة استراحة في بيته بعد طول المكوث في الكلّية. كان المفتاح الإضافي، الاحتياطي، يُتداول بينهم من يد إلى يد. ليس من أجل الاختلاء بالبنات، ففي السنة الأولى كان صعباً الذهاب معهنّ إلى هذا الحدّ. كان الشباب يأتون اثنين معاً أو ثلاثة معاً أو حتى أربعة، ومن فور دخولهم يتناول أحدهم الغيتار ويبدأ النقر على الأوتار الباقية فيه. لا أكثر من دقيقة واحدة أو دقيقتين، ويعرف الناقر بعدها أنّ الأصوات التي تطلع لا تعِد بأنّ أنغاماً ستطلع منها، فيعيد الغيتار إلى مكانه مسنوداً على الحائط. لم يستبدل يوسف الوترين الفالتين. بل إنّ وتراً ثالثاً انقطع في غيابه.

وقد استمرّ الشباب بالتردّد على البيت رغم غياب يوسف الذي لم يهمل إصلاح الغيتار فقط بل صرف النظر عن شراء البارودة. رحلة صيد واحدة كانت كافية لثنيه عن ذلك، بل أقلّ من رحلة، إذ لم يطق أن تعاد له البارودة التي كان يتبادلها مع ذلك الشاب الذي ذهب إلى الصيد برفقته. بعدما أطلق تلك الخرطوشة أعاد يوسف له البارودة وقال له إنّه لن يقوّص ثانية. كان قد أصاب العصفور الصغير من مسافة قريبة، وحين انحنى ليلمّه وجد أنّ ما بقي منه هو نصفه المهروس اللحم. أخذ يحدّق باللحم المنكشف، باسطاً العصفور على كفّه، كأنّه يسائل نفسه ماذا عليه أن يفعل به.

ولم توقفه رؤيته لما بقي من العصفور عن الاستمرار في التساؤل عمّا ينبغي له أن يفعله ليتغلب على هشاشته وخجله. وهو بدأ ذلك في ضيعته، بل في بيته أوّلاً، أو في بيت أهله. في نهايات الأسبوع التي يقضيها هناك كان يمرّن نفسه على الخروج من سطوة أبيه. لا أعرف كيف انتقل من تمرين نفسه إلى القيام بخطوة المواجهة الأولى، ولا كيف أتبعها بالمواجهات اللاحقة التي حقّقت له ذلك الانتقال من أن يكون ضحيّة الزجر إلى أن يكون هو الزاجر. ليس فقط أنّه صار يعاند أباه مبقياً نظرته المتحدّية في وجهه، بل كان يقوّي لحظات تحدّيه ويزيدها استفزازاً بأن يطلق كلمة مؤنّبة أخرى تصل إلى أذن أبيه بعد أن يكون هذا قد استدار مبتلعاً ما أصابته به الكلمة السابقة.

بدا لي أنّ اكتشافه ذاك في نفسه قد راقه ورحت أظنّ أنّه، في ما خصّ أباه، لن يتوقّف عمّا بدأه أبداً. كأنّه أدرك أنّ تغيير الأمور عن المسارات التي كانت جارية فيها ممكن، وأنّه يستطيع أن يقوم به. وقد فكّرت أنّه، بانتظار أن ينقل إدراكه المستجدّ هذا إلى ناس آخرين، سيظلّ مستفزّاً أباه هكذا، بل ومصعّدا في ذلك إلى حدّ أنّ وجه أبيه المحمرّ مثل النحاس والعنيف القسمات، والمتهيّئ دائماً لأن يتصرّف بحسب ما يمليه عليه غضبه، سيتحوّل إلى أن يكون مستكيناً وغاضّاً عن كلّ ما يؤذيه ويهينه.

* * *

على الرغم من أنّهم ينتقدون الكلام الشائع عن الأحابيل التي تقوم بها النساء للإيقاع بالرجال كانوا موقنين أنّ ابراهيم علواني وقع ضحيّة مكيدة مدبّرة. ليس أنّها، هي نبيلة، خطّطت لذلك، بل

أنّها، على الأرجح، اغتنمت الفرصة التي أتيحت لها وعرفت ماذا عليها أن تفعل من لحظة ما قامت لإبراهيم عن طاولتها. ما دفعهم إلى ذلك الظنّ هو اتّفاقهم على أنّها أكثر نضجاً من إبراهيم، وأنّها أخذتْه إلى بيتها بعد أقلّ من نصف ساعة على أول كلمة قالها أحدهما للآخر. وهي لا تحتاج إلى ذكاء خاصّ لكي تسوق إبراهيم على هواها، فهي، على كلّ حال، أكبر منه بثلاث سنوات أو أربع، وهو، على سبيل التنكيت عليه، أقلّ بسنتين أو ثلاث من العمر الذي هو فيه.

وكان ضروريّاً أن يجتمعوا معه محاولين ثنيه عمّا كان قد قرّره. هناك، حول الطاولة العالية في المقهى المطلّ على بحر الرملة البيضاء، ظهروا مختلفين عن سابق أفكارهم وتصرّفاتهم، إذ إنّهم جاؤوا للنصح هذه المرّة، وهذا شيء لا يحبّون أن يوصفوا به إذ يبديهم مثل الناس التقليديّين.

حين أطلّ حاملاً علّاقة مفاتيحه باثنين من أصابعه، همس لهم شوقي بأن يجب ألّا يعاتبه أحد على تأخّره. لكنّه، هو نفسه، قال له من فور ما أزاح إبراهيم الكرسي لجلوسه: شو كنت نايم عندها؟

بدا إبراهيم مسروراً لكونهم اجتمعوا هكذا خصّيصاً من أجله. لكنّه، من أجل أن يقطع أيّ احتمال بإمكان إقناعهم له، قال لهم إنّه وعدها بالزواج ولا يستطيع أن يتراجع.

– بسّ ليش وعدتها؟ قال شوقي متذاكياً وقافزاً فوق الطابع المتروّي الذي يجب أن تكون عليه جلسات الإقناع.

وقد ردّ عليه إبراهيم بأن قال له، بصوته الذي يبدو دائماً أنّه أضخم أو أعرض ممّا هو حقيقة:

– بلّشنا يا شوقي!

كان قد أمدّ نفسه بقوّة إضافية لمعرفته المسبقة أنهم سيخلطون الجدّ بالتنكيت والمزاح الثقيل. وقد بدا عليه الاستعداد للردّ على كلّ كلمة يقولونها. وهذا ما جعل شوقي يبدأ موضوع الجلسة سائلاً إيّاه: «شو... اتّفقتو خلص؟».

– على شو؟

– على إنّو تتجوّزوا.

– إيه أكيد.

– اتّفقتوا كيف يعني؟ سأل زهير.

– اتّفقنا عادي، هي حكيت مع أهلها مثلاً.

– شافوك؟

– كيف يعني؟

– يعني شافوك هنّي أهلها وشفتهن؟

– إيه، رحت لعندهن عالبيت.

– لوحدك؟

– لوحدي.

– كان لازم يروحو أهلك معك، علّق شوقي.

– رحت لوحدي.

– أهلك عرفوا؟ سأله محمّد صافي قاطعاً صمته، وناقلاً الكلام إلى حيث يجب أن يكون.

– بعد ما قلتلهنّ، أجابه إبراهيم.

– ليه؟

تلك الـ«ليه» فهمها إبراهيم. بل إنّه فهم إلى أين يستدرجه محمّد صافي.

– راح يعرفو بعدين.

– يعني بدّك تحطّهن تحت الأمر الواقع.

هنا فهم إبراهيم. فهم تماماً أنّ الشباب الذين حوله لن يتردّدوا في قول الأشياء كما هي. وهو رأى أن يسبقهم إلى ذلك، مفاجئاً إيّاهم بأن يقول ذلك بنفسه:

– قصدك لأنّها بشعة؟

وقد فاجأهم فعلاً، بدليل أنّ محمّد صافي ارتبك فيما هو يجيبه: «هيك عم تزيدها يا إبراهيم» ثمّ أضاف «قصدنا إنّها مش حلوة... مش حلوة قدّ ما لازم لشبّ متلك».

– لا يا شباب، تعوا ما نساير بعضنا. إنتو شايفينها بشعة. وأنا بعرف إنّو الناس هيك بيشوفوها. ويمكن هيّ بشعة عن جدّ...

– يعني طلعتْ عارف، قال شوقي.

– إيه عارف، وعارف من الأوّل كمان.

لم يوافق على اقتراحهم أن يعطي نفسه فرصة قبل أن يقدم على الزواج. كلّ الأشياء الأخرى التي كان يمكن أن تُذكر في الحديث معه لم يؤتَ على ذكرها. لم يقل أحد إنّها كبيرة مثلاً، أكبر منه، أو إنّه ما زال في السنة الأولى في الكليّة، أو إنّه لن يستطيع أن يجد شغلاً ليستأجر بيتاً يعيش معها فيه. كان مصرّاً على ما اتّفق معها عليه، وكان يعيد ذلك عليهم مرّة بعد مرّة حتى قال له محمّد صافي إنّ الدول، حتى الدول، تتراجع عن تعهّداتها أحياناً.

لم يترك إبراهيم كلمة من دون أن يردّ على قائلها. حين قال زهير، قاطعاً الأمل من إمكان إقناعه، «بيحبّها يا خيّي بيحبها...» سارع إبراهيم إلى الردّ عليه: «إيه بْحبّها». وحين أعاد له شوقي، في الدقائق الأخيرة من الجلسة، ما كان محمّد صافي قد قاله عن إعطاء نفسه فرصة للتفكير أجابه: «يعني بدَّك قلّها إنّي بديّ أجّل

الموضوع شويٌّ يمكن تتحلّي»، رغم أنّه كان قد أرهق من شدّة الضغط عليه وصار يحكي أشياء يسهل ضمّها إلى ما تجمّع عندهم من كلام يتذكّرونه ليتندّروا به.

* * *

يستطيع إبراهيم علواني أن يناكف محمّد صافي بأن يقول له إنّ البنات اللواتي يعجبنك أبشع من نبيلة. كان قد رآه خارجاً مع تلك التي، بحسبه، لا يرضى بها أحد من طلّاب الكلّية جميعهم. كما رآه وهو يمدّ ذراعه ويجذبها إليه عند أول الحائط العالي الذي يحجب الطريق، من أجل أن يبدأ بتقبيلها. غير أنّ إبراهيم، إن تجرّأ على قول ذلك، فلن يلقى من محمّد صافي إلّا تلك النظرة المستخفّة، أو سيفاجئه محمّد صافي بأن يوافقه على ما قاله لكن ليقول له بعد ذلك إنّه يفضّلهن هكذا بشعات في نظر مَن لا يعرفهنّ.

في كلّ شيء يفاجئه محمّد صافي، كما يفاجئ الآخرين أيضاً، إذ غالباً ما يأتيهم بغير ما يتوقّعونه. في إحدى المرّات بدا لهم منجذباً إلى امرأة في عمر أمّهاتهم. كانت تدير مقهى بعيداً عن الكليّة، وصلوا إليه منهكين من طول المشي. ليس فقط أنّها لم تكن محتفظة ببقيّة من جمال، شأن بعض النساء الكبيرات اللواتي يبقى فيهنّ شيء من شبابهنّ، بل كانت من أولئك اللواتي لا يلتفت إليهنّ حتى الرجال الذين في أعمارهنّ. لم يكتف محمّد صافي بإرسال النظرات إليها بل راح يقرّب وجهه منها ويكلّمها مبتسماً لها ابتسامات ملاعبة غاوية.

– تفضّلي اقعدي معنا، قال لها وهي في طريق عودتها إلى كرسيّها قريباً من مدخل المقهى. ابتسمت له، ثمّ رفعت سيجارتها

قاصدة أنّها ستدخّنها هنا قريبة من الباب.

– معليش ما كلّنا عم ندخّن، أجابها.

– لا مش منشان الدّخان، بس عم إرتاح شويّ.

لم تشأ أن تجالسهم. لكنّها مع ذلك راحت تلتفت إلى محمّد صافي بين الحين والحين لتريه نظراتها المتحرّشة والمتمتّعة في وقت واحد.

يفاجئهم دائماً بما يعجبه.

– ولك كبيرة شو بدّك فيها، قال له زهير.

– كبيرة بس فيها شي.

– وين شي؟

– بَطْنُها، قالها بالفصيح، ثمّ كرّر قولها، بالفصيح أيضاً وبنغمة أقرب إلى أن تكون نغمة مرارة وتلهّف.

وهم التفتوا من فورهم إلى حيث هي جالسة. كان الفستان مشدوداً عند بطنها الذي لم يبدُ لهم إلّا بطناً عاديّاً لامرأة في أربعينيّات عمرها أو في خمسينيّاته.

– ناصحة، قال شوقي منتظراً أن يسمع ردّاً من محمّد صافي.

– هيدا مش نصح، أجابه محمّد صافي.

دائماً يفاجئهم، وهو هذه المرّة مثلاً أضاف إلى المواضع التي تثيرهم موضعاً جديداً. لم يكونوا يلقون بالاً من قبل إلى بطون النساء ولم يكونوا يذكرونها في تعدادهم لما يعجبهم في أجسامهنّ. الآن، على الرغم من أنهم لم يجدوا في بطن امرأة المقهى ما يدعوهم إلى موافقة محمّد صافي على ما قاله، أعجبتهم طريقته في نطق الكلمة: «بَطْنُها.. بَطْنُها». وفيما هم يعيدون الكلمة بينهم وبين أنفسهم، مكرّرين قولها محمّلة بذلك

التلهّف ذاته، راحت تتوالى على رؤوسهم بطون كانوا رأوا صورها في السينما وفي الروزنامات وفي الإعلانات عن ملابس النساء.

الفصل الثاني

لا يتوقف زهير عن التساؤل إن كان ما يحدث أمامه تصرّفاً حقيقيّاً أم تقليداً للرجال الكبار. يظنّ أنّ ابراهيم علواني لم يتزوّج إلّا لكي ينتقل إلى هناك، حيث الضفّة التي يكون فيها المتزوّجون. في الجمعيات العمومية كان زهير يتعجّب كيف أنّ الكلام الذي يقوله الطلّاب يسجّله صحافيون يكونون هناك، ثمّ ينشرونه بعد ذلك في الجرائد.

كانت مراقبة ذلك في الطلّاب أكثر ما يشغله. حين ينتقل المتكلمون إلى الكافتيريا، ويستأنفون هناك ما كانوا يتناقشون به، لم يكن يتوقّف عن البحث عن شيء حقيقي، غير مقلَّد، في ما يسمعه أو يراه. في أحيان تستوقفه جملة قيلت بانفعال يبدو له صحيحاً، لكنّ ذلك نادر إذ لا يلبث الضحك الذي يعقبها، والذي يشارك فيه قائلها نفسه، أن يبطلها. وفي أحيان أخرى يعلق برأسه ما سمعه، أو ما رآه لأن ليست الكلمات وحدها ما يهمّ، بل كيف قيلت، وعلى أيّ هيئة كان قائلها حين قالها. لذلك لم ينسَ أبداً ذلك الاعتراض الذي أبداه ممثّل الحزب الشيوعي، القليل الكلام عادة، والذي أوقف النقاش حول حصّة كلّ من الأطراف في انتخابات

الرابطة. قال الشيوعي، فيما هو يقف محتجّاً نافد الصبر: «نقاش مثل هيدا أنا ما بكمّل فيه». كان منفعلاً حقيقة، وبدا كما لو أنّ مبالغة الأطراف في تقدير أحجامها أتعبته. لم يتردّد في الخروج الذي سبقته التفاتة منه إلى الباب اهتزّ لها شعره الأسود المنهدل والكثيف، فبدا أن سخطه الحقيقي كان صحيحاً مئة بالمئة.

هي لحظات أو مواقف تُعجب زهير لكنّها لا توقف ظنّه المستمرّ بأنّ ما يجري يدلّ على أنّ من يقومون به لم يخرجوا من عمْر تقليد الكبار. كان يقول ذلك لمحمّد صافي، لكن على شكل تعليقات عابرة. «وإنت، كيف بتشوف حالك؟» يسأله محمّد صافي.

– يمكن أنا متلن.

– على كلّ حال، يمكن في رْجَال بعمر الأربعين أو الخمسين بيحسّوا هيك.

وحين عاد محمّد صافي إلى سؤاله عمّا إن كان هناك أحد في الكلية يختلف عن الآخرين أجابه زهير بأنّه نعمة الله، مسؤول الحزب الشيوعي. ثمّ، بعد لحظات قليلة انتظر فيها أن يسأله محمّد صافي عمّا أعجبه في نعمة الله، بدا متهيّئاً ليقاطع سؤاله بأن يضيف إلى نعمة الله اسماً آخر:

– ... ويوسف كمان.

– مين يوسف؟

– يوسف ما غيرو.

لم يعلّق محمّد صافي، بل بدا كما لو أنّه توقّف عن قول كلمة ساخرة ينهي بها تلك المحاورة عن الكبار والصغار.

* * *

كان يوسف قد قطع أشواطاً في انتصاره على العقبات الصغيرة والكبيرة التي تقف في وجهه. لم يعد يختار طاولة بعيدة ليجلس وحده منفرداً في الكافتيريا، بل إنّني رأيته، في الساحة المشمسة هناك في الأعلى، في وسط تلك الساحة، رافعاً صوته، ومستخدماً يديه لتأكيد ما يقوله، من دون أن يكترث بالعابرين أو بأولئك الجالسين على المقاعد. حتى إنه جرؤ على تغيير شكله، ذلك الذي لم أستطعه أنا إلّا بإطالة شعري الأجعد وترك سالفيّ ينحدران ليصيرا قريبين من الحدود السفلى لأذنيّ. أمّا هو فأرخى كلّ شعره، وأطلق لحيته أيضاً، واستبدل جاكيته بواحدة من سترات النايلون الزرقاء التي تُغلق بسحابة ترتفع، إن أُغلقت، لتغطّي الرقبة وجزءاً من الذقن.

وقد صار يخالط أولئك الذين يتكلّمون في الجمعيات العمومية، بل وحتى أولئك الآخرين الذين يجيئون من خارج الكليّة ليجتمعوا بهم. كنت أعرف حين أصادفهم واقفين معاً أنّ عليّ أن أكمل طريقي وألّا أرفع يدي لأسلّم عليه. وهو أيضاً يظلّ يكلّمهم، أو يصغي إليهم، وإن التفت إليّ فليس لأكثر من نظرة مستعجلة أعرف منها أنّه رآني. لم نعد كما كنّا، أنا وهو. صارت زياراتي لبيته أقلّ، وغالباً مع شبّان ليسوا ممّن كانوا من أصحابنا المشتركين، يتكلمون عن أشياء جرت بينهم، فيضحكون لها. أقول إنّ عليّ أن أذهب، فأقوم، ويقوم هو مرافقاً إيّاي إلى الباب، لكن مستمرّاً في الاستماع إلى ما يقولونه. وحين أصير في الخارج أروح أفكّر أنّه لن يخبرني إن دعا، مثلاً، واحدة من البنات اللواتي أعرف أنهنّ يعجبنه إلى مقهى ترويبكانا القريب، أو إلى ذلك المقهى الليلي، لكن الذي يفتح في النهار، في الشارع الضيّق بين الكليّة وشاطئ الرملة البيضاء.

بحسب زهير، المشغول بتصيّد المظاهر القليلة، بل النادرة، لما يمكن أن يكون حقيقياً وغير مُقَلَّد، كان يوسف يستمرّ في كسب نقاط إضافية. لا يحتاج إلى رؤيته في مواقف تبديه مثل بطل من أجل ذلك، بل يكفيه أن يراه واقفاً يستمع إلى واحد من متكلّمي أحزاب اليمين، مطرقاً برأسه وممشطاً، بحركة متمهّلة، شعرات لحيته. يوسف لم يعد يحتاج إلى أن يفعل شيئاً ليثبت أنّه حقق ذلك الارتفاع عمّن كانوا يعرفونه. أمّا طريقة زهير في إبداء إعجابه المتزايد بيوسف فقوله لمحمّد صافي مرّة بعد مرّة: «بتتذكّر كيف كان؟»، جاعلاً محمّد صافي، وكذلك من يكونون حاضرين معه، يستعيدون يوسف مستحياً حائراً أين يذهب بيديه، بل بأصابعهما القليلة المرونة، والمتفرّقة كأنْ من أجل أن لا يلامس الإصبعُ الإصبعَ الآخر الذي إلى جانبه.

* * *

لا شيء هناك حول جسر البربير أو بقربه. لا مقاهي ولا دكاكين ولا حتى مشاة يسيرون على أرجلهم. فقط تلك الطريق التي تحت الجسر، والطريق التي في وسطه. لا شيء إلّا السيّارات تعبر مسرعة في الاتّجاهات الأربعة، حتى في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. هناك كنّا واقفين، على رصيف الجسر، نحكي وندخّن، حين قال محمّد صافي: «فلنبقَ هنا ساعة أخرى». وقد أدّى زهير ما يشبه الدور المسرحي حين راح يقلّب نظره بين الجهات ويرسم على وجهه علامات التعجّب، كأنّه يحتار أيّ المناظر حوله يستدعي البقاء ساعة كاملة. وقد سايره محمّد صافي بأن راح يضحك من حركات زهير، ليقول له بعد ذلك:

– بعرف إنو ما في شي بيسلّي... بسْ لازم نحطّ علامة إنّو نحنا كنّا هون... متل لما تحطّ شحطتين تحت شي جملة.

وقد أوقف ذلك حركات زهير فجأة، لكن من دون أن يعيد حركة جسمه المسرحية إلى الوضع الطبيعي. ثمّ، حين بدا أنّه لن يفهم ما سمعه، هكذا بسرعة، قال:

– عن جدّ ما فهمت.

– يعني علشان نركّز وجودنا هون تيصير هيدا المحلّ إلنا.

هذه المرّة تحوّل وجه زهير المتسائل إليّ وإلى نقولا، كأنّما لنسعفه على الفهم. ولم يتأخّر نقولا عن ذلك، فقد أعجبه ما فهمه من كلام محمّد صافي:

– بيقصد إنو بيصير هالمطرح، بس نتذكّروا بعدين، كإنّو إلنا.

كان ذلك صعباً، لكن رغم ذلك قال محمّد صافي لزهير:

– فهمت هلّق؟

– فهمت. بس صار إلنا هون أكتر من نصّ ساعة، ما بيكفّي؟

– الفكرة اللي قالها محمّد صافي مش كلّ الناس رح تفهمها متل بعض، قال نقولا معلناً إعجابه، مرّة أخرى، بما قاله محمّد صافي.

لكنّ زهير الذي رأى في ذلك مسخرة عليه، أسرع في الردّ على نقولا:

– وشو برأيك، أنا فهمت كتير أو قليل؟

لكنّ نقولا، متجاهلاً ما قاله زهير، عاد إلى شرح ما قاله هو:

– لو كنّا واقفين بمحلّ بيروحوا عليه كلّ الناس مش راح يكون إلنا. هون نحنا لوحدنا. أصلاً ما حدا بيخطر على بالو يوقف بها المطرح.

– إلّا اللي ناطرين الأوتوبيس، علّق محمّد صافي، لا ليوقف نقولا عن الكلام، بل لأنّ هذه الجملة خطرت له فلم يشأ أن يحبسها. لكنّه، بعد لحظات صمت أعقبتها، أضاف، فيما هو يدقّ أعلى بطنه بأصابعه المضمومة، إننا دخّنا كثيراً هذه الليلة، وصار يجب أن نذهب إلى بيوتنا.

* * *

لكي نبقى صديقين أنا ويوسف، كان عليّ أن أقبل بأنّه لم يعد مثلما كان. فإذا ما عدنا والتقينا، وإن لقاءات قصيرة نظلّ في أثنائها واقفين، صرت كأنّني أختبر ما الذي يقرّب بيننا، إن قلته، وما الذي يحسن بي ألّا أقوله. ذاك أنّ ما كان يعجبه لم يعد يعجبه. ثمّ إنني بتّ أعرف أنّه لا يحبّ أن أذكّره بكلّ الأشياء التي جرت معنا من قبل، كأن أسأله مثلاً إن كان الغيتار لا يزال في مكانه مقطّع الأوتار، أو إن كان حقّق شيئاً مع تلميذة الرياضيات التي كانت أكثر من يعجبنه من البنات.

سيجيبني بأن يتخّذ وضع من يحاول أن يتذكّر، ويروح يسألني مَن هي، أو أيّهنّ أقصد. وأنا أعرف أنّه يتساءل هكذا ليفهمني أنّنا، في ذلك، لم نعد كما كنّا. كما أنّنا لم نعد كما كنّا في ذلك التساوي بين رفيقين. صار يقطع ما أقوله، كما في المرّات التي سبقت، مصحّحاً الخطأ الذي وقعت فيه. ولم أكن أردّ على ذلك إلّا بأن أنتظر انتهاء كلامه لأقول له عند ذاك إنّني يجب أن أذهب الآن، من غير أن أذكر إلى أين.

ولا أعرف إن كان يدرك أنّني أذهب محتجّاً. لا أستطيع أن أفسّر تلك النظرة التي تبقى، لثانية واحدة، مركّزة في وجهي، تلك التي

يقول لي من بعدها إنّه، هو أيضاً، تأخّر عن شيء وعليه أن يذهب. لكنّني أعرف مع ذلك أنّه لم يعد يقف عند تلك المناكفات الصغيرة، ولا يظلّ حافظاً لها إلى حين التقائنا ثانية. وهذا من الأشياء التي غيّرها في نفسه أيضاً. «وينك؟»، يقول لي حين نلتقي بالمصادفة في الساحة المشمسة أو على الأدراج. «وينك» يقول، من أجل أن يجعلني أفكّر أنّني ابتعدت عن قصد وأنّ عليّ أن أجيب بكلمات معتذرة. لكنّني أعرف أنّ هذه باتت من الأشياء التي تعلّمها لكي يربك بها من يلتقيه ويشعره بأنّ أول ما ينبغي أن يقوله هو الاعتذار.

في أحد لقاءاتنا، وكان وقوفنا قد تعدّى الحوار العابر العادي، سألني إلى متى سأبقى هكذا. حصل ذلك بعد يوم أو يومين من خروجه متقدّماً كثيرين آخرين من قاعة الجمعية العمومية. كان، ومعه أولئك الآخرون، يعلن احتجاجه على ما قاله طالب من أحزاب اليسار الجديد. وقد ارتبكتُ هنا أيضاً وتردّدت إزاء ما سيفكّر فيه إن رآني باقياً في القاعة. لكنّني بقيت، فقط للوقت الذي أبدو فيه أنّني خرجت منفرداً. قريباً من بوّابة القاعة، كان أولئك الخارجون لا يزالون هناك، متحلّقين حوله وهو يفسّر لهم لماذا كان موقفه ذاك ضرورياً. هناك في الخارج لم يكن يوسف واحداً منهم، مجرد واحد منهم، بل كان أولهم، أو قائدهم. ولا بدّ أنّ بلوغه ذلك الموقع بينهم حدث بأسرع ممّا كنت أتوقّع أو أنتظر.

إلى متى ستبقى هكذا؟ قال، منتظراً، هذه المرّة أيضاً، أن أبدأ بالتلعثم أو الاعتذار. كنت أعرف ما الذي يستنكره فيّ وأعرف أيضاً إلى ماذا يدعونني. كان قد بدأ يفكّر أنّ ما نعيشه، نحن في شلّتنا، ليس إلّا تضييعاً للوقت وتلاعباً بالكلام. في مرّة، أو مرّتين، بدا أنّه يتقصّد إفهامي أنّ ما يقوله محمّد صافي لا يعجبه، أو لم يعد يعجبه.

* * *

وافقت على الذهاب إلى ذلك الاجتماع الأوّل، لكن من دون تلك الحماسة التي كان يوسف يظنّ أنّه أوصلني إليها. على الطريق كنّا أربعة نتبع بعضنا بعضاً من دون أن نترافق أو يكلّم أحدنا الآخر. يوسف كان يسير في المقدّمة، إلى جانب «الرفيق» الذي ربّما كان من طلّاب الكليّة السابقين. كانا يتكلمان معاً، وبين الحين والحين يلتفت أحدهما، أو يلتفتان كلاهما معاً، لينظرا إن كنّا نحن الأربعة لا نزال نتبعهما. وحين وصلا قبلنا إلى المنعطف المؤدّي إلى الطريق المستقيمة الطويلة، وقفا هناك، مديرين وجهيهما إلينا، كأن من أجل أن نسرع وأن نتجمّع في الوقت نفسه، ما يعني أنّنا صرنا قريبين من المكان الذي سيكون اجتماعنا فيه.

منذ أن قطعنا طريق الكورنيش عرفت أنّ مسيرنا سينتهي في بيت يوسف. بل كنت أنتظر لحظة وصولنا إلى المفرق الضيّق الموصل إليه. وحين صارا هناك، هما الاثنان، انعطفا بجانب حائط البناية الكبير، الذي يصدّ المشهد من شبّاك البيت، من دون أن يكلّمانا. ولم يقولا إنّنا وصلنا حين راح يوسف يدخل مفتاحه في ثقب الباب، هكذا، كما لو أنّنا أُبلغنا بذلك من قبل. وإذ صرنا في الداخل، خصّني يوسف بقوله لي، على مسمع منهم، إنّي أعرف البيت. وأنا ابتسمت له فيما أنظر إلى الغيتار الذي ما زال هناك، لا تظهر أوتاره إذ كان مداراً باتجاه الحائط. وقد خطر لي في لحظةِ ما كان يوسف ينظر إليّ، أن أشير بإصبعي إلى الغيتار ملمّحاً له بأنّه ما زال هنا، لكنّي لم أفعل.

ذاك الذي كان اسمه، حتى تلك اللحظة، «الرفيق»، أشار بيده إلى الكراسيّ داعياً إيّانا إلى أن نتدبّر جلوسنا. كلّ من الكراسيّ

كان مختلفاً عن الثلاثة الباقية، كأنها جُمِّعت من أنحاء، أو من بيوت، لا شبه بين الناس المقيمين فيها. وإذ رأى أنّنا نتردّد، دعانا مرّة أخرى إلى أن نجلس، بادئاً هو نفسه بذلك متّجهاً إلى الفرشة المطويّة ليجلس عليها، تاركاً الكراسي لنا. ليس أنّه يعرف البيت، بل إنه يدعونا إلى الجلوس نيابة عن يوسف. كان أكبر منّا، بل أكبر من أن يكون قد أنهى الكليّة قبل سنة أو سنتين. وهو، بعد أن رحنا نرتبك أين يجلس كلّ منّا، سأل يوسف إن كان عنده قهوة، ثمّ قال، فيما هو يطلق ابتسامته الأولى، إنّه سيقوم ليعدّها. لكنّ يوسف أعفاه من المهمّة قائلاً له إنّ الشباب سيعرّفونه إلى أنفسهم في هذه الأثناء. كان ينبغي لذلك أن يكون بداية الاجتماع، لذلك راح يوزّعنا على الكراسيّ، بادئاً بي، خاصّاً إيّاي هو أيضاً، بأن رفع يده إلى الكرسي الذي إلى جانبه داعياً إيّاي إلى الجلوس هنا. عرفت من ذلك أنّ يوسف أبلغه عنّي شيئاً، وأنّهما، هو ويوسف، يولياني اهتماماً جعلني أسرع في الجلوس لأخفي ارتباكي أمام الآخرين. قال إنّ اسمه هاني، وهو تخرّج من كليّتنا دارساً الرياضيّات. «نحنا زملا إذن» قال له الشابّ الذي مازحنا حين اقترب بعضنا من بعض عند المفرق الضيّق. ابتسم له هاني، ثمّ سأله إن كان يدرس الرياضيّات هو أيضاً، هكذا كأنّما من أجل أن يوقف ميل ذلك الشابّ إلى المزاح. لكنّ يوسف علّق من وراء باب المطبخ متسائلاً كيف يمكن لأحد أن يحبّ الرياضيات، ثمّ ظهر لنا مبتسماً، حاملاً بيده ركوة القهوة التي أنهى غليها.

من وقوفه هناك، بدا يوسف معارضاً الرفيق بأن اقترح أن لا بأس من أن نكون مرتاحين على سجيّتنا. لم يردّ الرفيق إلّا بإطراقة غير مفهومة انتقل بعدها إلى سماع أسمائنا. كان يوسف يعرف

الأسماء جميعها، فعلّق على الشابّ الذي ذكر أن اسمه صبحي قائلاً إنّ نصف أهله مناضلون في الحزب. كانت الصينيّة التي قرّبها يوسف لتكون في الوسط بيننا جديدة لم أرها من قبل، وكذلك فناجين القهوة المتراكبة واحداً فوق الآخر. خطر لي أنّ كلّ الذين يأتون إلى هنا ليسوا أبداً أولئك الذين أعرفهم أو الذين كنت أجيء بصحبتهم.

الرفيق الذي، ونحن بعد على الطريق، كنّا نرى فيه وسامة القياديّين، سرعان ما بدأ يخسر ما كانت توحي به هيئته. لم يكن نطقه الرتيب وكأنّه يسمّع درساً، متناسباً مع شكل وجهه بشاربيه الأسودين الكثيفين اللذين تجاورهما، هناك فوق طيّة خدّه، شامة سوداء هي أيضاً. فشل وجهه في أن يبقي حركة الاندفاع، بل وسرعة الوثب، اللذين ظننتهما مختبئين خلف مظهره الهادئ. ولا بدّ أن الآخرين أحسّوا بذلك حيث إنّهم ما لبثوا، بعد أقلّ من ربع ساعة، أن صاروا مشاركين في الانقلاب على التراتبية الذي بدا أنّ يوسف، بتعليقاته الغامزة، سيظلّ مستمرّاً فيه. كانوا يديرون وجوههم عن الرفيق المسؤول، الرفيق الأول، مبتسمين ومطيلين النظر إلى يوسف، كأنّهم يدعونه إلى أن يكثر من تدخّلاته تلك. لكنّني وحدي من بينهم كنت أعرف أنّه هنا، في الاجتماع الحزبي، يقوم بما لا يستطيع إلّا أن يقوم به، وهو إزاحة من يرى أنّه واقف في طريقه.

* * *

كان ينبغي عليّ ألّا أخاف هناك في الغرفة التي احتجزَنا فيها رجال الدرك. بين الحين والآخر كان يطلّ علينا وجه الضابط من وراء النافذة

الضيّقة ليقول لنا إنّ الكاميرات صوّرتنا جميعاً. كانت الحجارة لا تزال تُرمى على الدركيّين من التلّة المقابلة للكليّة، وكان هؤلاء يتلقّونها بالدروع التي يحملونها. «أنتم الذين رميتم الحجارة ستحالون إلى المحكمة العسكرية» قال لنا الضابط، عائداً إلينا، كأنّه يبلغنا شيئاً عرفه من زميل له، أو تلقّاه على اللاسلكي ممّا يسمّى مركز القيادة. لم أخف، وكذلك لم يظهر الخوف على مَن كانوا محتجزين معي في تلك الغرفة. قال أحدهم، وهو شابّ نحيل كان قد قال لنا إنّ حجراً منه أصاب دركيّاً في رأسه، إنّهم يهوّلون علينا. ثمّ سألني إن كنت أنا رميت حجارة، فأجبت بهزّ رأسي لأفهمه أنّني فعلت، لكنّي لا أعرف إن كنت أصبت أحداً. «مش رح يعملوا شي» قال فيما هو يتقدّم إلى النافذة الصغيرة ليصبح وجهه في مقابل وجه الضابط حين يعود. بقيت غير خائف، لكنّني لن أفعل مثله. لن أقوم بما قد يغضب الضابط فيشير لي بإصبعه، من الباب الذي قد يفتحه فجأة ويقول لي: أنت، تعال إلى هنا، فأخرج إلى واحدة من سيّارات الجيب التي سيؤخذ من وُضعوا فيها إلى الثكنة. إن أخذوني إلى هناك فستصير الأمور سيّئة ولن يفلتوني في اليوم ذاته. أمّا هنا، فما دامت المعارك بالحجارة والدروع قائمة، وهم يجمّعون من يلتقطونهم في الجيبات، فسيصير الموقوفون كثيرين، لا بدّ، وطبعاً لن يأخذوهم كلهم إلى الثكنة. لا مجال لهم إلّا أن يفرجوا عن الجميع بعد ساعة أو ساعتين. ونحن، الذين في الغرفة، سنخرج أيضاً، بعد أن يكلّمنا الضابط، وربّما ضابط آخر غيره، وربّما جندي عادي، متمسخراً علينا كأنّنا أولاد. لن يحدث هنا ما كان يحدث في الصور التي كانت تعلّق في الكليّة، على حائط الجمعية العمومية، حيث وجه مشدود العضل وقبضتان قويّتان ترجّان حديد السجن

الغليظ. لن يصير هنا ما صار في روسيا أو في الصين. هنا كلّ شيء مختلف. المنظر مختلف. الطقس مختلف. لون الطقس الذي، حتى في أثناء ما كان الدركيّون يتقدّمون على التلّة، لا يناسب أبداً أجواء القتال التي صوّرتها الأفلام الوثائقية عن الحرب العالمية الثانية، ولا تلك التي كان يعرضها الطلّاب الشيوعيّون عن «الدارعة بوتمكين». هنا لا يحدث ما كان يحدث هناك.

حين أخرجونا من الغرفة صار الدرك يتمسخرون علينا فيقولون لنا إنّنا تأخّرنا على البيت وإنّ الماما تنتظرنا. لم ننظر إلى وجوههم ولم نبتسم لهم. لم أكن خائفاً لكنّني صرت أنظر إلى يدي التي أمسكها الدركي السمين المرتفع حزامه إلى أعلى بطنه. لم يوقفني. فقط دقيقة، بل أقلّ من دقيقة. كان يهمّ بأن يقول شيئاً، لكنّه اكتفى بابتسامة مستخفّة أفلتني من بعدها. ثمّ مشينا بسرعة إلى الكليّة. حين عبرنا بابها الممنوع على الدرك تخطّيه صار الشباب، أولئك الذين يتحدّثون عادة في الجمعية العمومية، يسألوننا إن كان الدرك تعرّضوا لنا بشيء. قالوا إنّ ثلاثة من زملائنا أُوقفوا وإنّ مجلس فرع الكليّة دعا إلى مؤتمر صحافي. فكّرت أنّ يوسف ربّما يكون واحداً من هؤلاء الثلاثة، وكذلك فكّر واحد من أولئك الذين كانوا معنا في الاجتماع الحزبي الأوّل في بيت يوسف. قال لي إنّه رآهم يحيطون به ويدفّشونه بأيديهم، وفجأة اختفى. ربّما أخذوه، قال. كان يعرف أكثر ممّا أعرف. قال إنّهم سيعلنون التصعيد في المؤتمر الصحافي، وإنّ الحكاية لم تنتهِ. ثمّ سألني إن كنت رأيت كيف تمترس الدرك عند بوّابة الكليّة حاجزين الطلّاب كلّهم في الداخل. نظرت من درابزين الطابق الأول فرأيتهم هناك وراء البوّابة التي وقف طلّاب عند جهتها الأخرى يحاورونهم أو

يفاوضونهم. ثمّ رأيت هؤلاء الطلّاب يمدّون أيديهم من بين قضبان الحديد المتوازية كأنّما ليُبعدوا الدرك عنها ويدفعوهم إلى الوراء. ثمّ أخذوا يرجّون بأيديهم البوّابة محتجّين هكذا على بقاء الدرك في أماكنهم. وقد زاد ذلك من احتشاد الدرك والتصاقهم بالبوّابة وهم صاروا يلتقطون الأيدي التي تمتدّ ويشدّونها إلى الخارج كأنّما ليخرجوا الذين التقطوا أيديهم من الفراغات التي بين قضبان الحديد.

ثمّ، فجأة، بدأ الطلّاب الهجوم من الطابق الأول المكشوف ومن الطابق الأرضي أيضاً. لمّا رأيت الحجارة تُرمى تراجعت إلى الوراء لظنّي أنّ الدرك سيقتحمون الكليّة هذه المرّة، وسينهالون على الطلّاب بالكرابيج التي يحملونها معهم. لكنّهم بدأوا برمي الحجارة، أو بردّ الحجارة التي رُميت عليهم، ثمّ راحوا يرجّون الحديد من أجل أن يفتحوا البوّابة فعلاً هذه المرّة. ثمّ أرسلوا، بعدما أنذروا الطلّاب بأنّهم سيقتحمون البوّابة، أول قنبلتين مسيلتين للدموع، واحدة إلى الطابق الأرضي وواحدة إلى الطابق الأوّل. وبينما هم يرجّون حديدها لتنخلع، كان غاز القنابل قد اتّسع مثل ضبابة كثيفة، وراح الطلاب، ومعهم طالبات أيضاً، يسعلون ويطلقون هتافات مبحوحة مكرّرين بها كلمة «كلّية». «كليّة... كليّة... كليّة...» كأنّهم يعلنون بعضهم لبعض، كما للدركيّين المهاجمين أيضاً، أنّهم صامدون فيها، أو سيبقون هنا لأجلها... إلخ.

ومع أنّ الدركيّين تمكّنوا من فتح البوابة، وارتدى كثيرون منهم الأقنعة التي تقيهم من غاز القنابل، وأنزلوا سيّارتَي إسعاف أداروا ظهريهما إلى بوابة الكليّة ليسرعوا في حمل الجرحى إليهما، فإنّهم لم يدخلوا. ظلّوا هناك محيطين بالبوابة المفتوحة ومنتشرين حولها، كأنّهم ينتظرون ما سيأتي من الطلّاب. ولم يتأخّر ذلك كثيراً،

إذ من الطوابق العالية، من شرفات الصفوف التي أطلّت منها الوجوه المتورّمة والدامعة، بدأت تتردّد الهتافات، مختنقة ومبحوحة، مستجيبة لصوت طالبة من الأدب الفرنسي: «فاشية... فاشيّة...» تهتف فيما هي تهزّ ذراعها بقوّة، فيجيبها الذين في الغرفة والذين في الغرف الأخرى: «فاشيّة... فاشيّة...».

* * *

صرت أتخيّل فيما أنا واقف وراء المتجمّعين على نافذتَي الغرفة، أنّ هذا الهتاف لن يستفزّهم، بل إنّهم سيتلقّونه بالضحكات الساخرة. كنت أهتف أنا أيضاً، لكن من دون أن أكون بالغاً الحماسة التي يدلّ عليها إطلاق الآخرين لحناجرهم وتدلّي أجسامهم، حتى البطون، إلى خارج النوافذ. بل خطر لي مرّات أن أتوقّف عن مشاركتهم الهتاف الذي يبدو صوتي فيه، لمن قد يسمعني منهم أو تقع عيناه عليّ، كأنّني لا أتبع صراخهم فلا أهزّ يدي فيما أنا أردّد الهتاف. بل إنّني كنت أخاف أن ترتفع وتيرة انفعالهم فيخطر لهم أن يبدأوا برمي الكراسي والطاولات على الدرك في الأسفل، فيردّ أولئك بالاقتحام والهجوم. وسأكون أنا من بين أولئك الذين سيتلقّون ضرباتهم، وربّما يأخذوننا إلى الثكنة، فعلاً هذه المرّة. إنّه هو، هو الذي كان هناك في الغرفة، سيقول بعضهم لبعض فيما هم يتقدّمون نحوي.

لا ينبغي أن أبدو خائفاً. الأحسن لي أن أخرج الآن. ليس عليّ سوى أن أعبر الباب المفتوح أصلاً، كأنّني خرجت لأعود بعد قليل. كأن من أجل أن أتمشّى في الكولوار الطويل الممتدّ على طول غرف الصفوف، على أن أعود مسرعاً حين يبدأ شيء بالحدوث.

يوسف كان من بين الثلاثة الذين أوقفوهم. في الصباح جاء إلى الكليّة كما يجيء عادة. في الساحة المشمسة التي تلي بوّابة الدخول توقّف، أو أوقفه طالبان أو ثلاثة كانوا هناك، شأن ما بات يحصل كلّ يوم. كان ذلك بمثابة نشاطه اليومي الأوّل، حيث سينضمّ آخرون إلى حلقته، إذ يعلمون أنّ ما سيُحكى ليس حديثاً خصوصياً وهو متاح لأن يشترك فيه من يشاء. كان يوسف يتطلع حوله فيما هو يستمع إلى من يكلّمونه، كأنّه يعاين الفوضى التي خلّفتها مواجهة أمس. حين وقعت عيناه عليّ رفع لي يده، ليعلمني أنّه هنا. ثمّ سألني، جاعلاً الآخرين يلتفتون إليّ، إن كنت نازلاً إلى الكافتيريا. وإذ أجبته، بهزّة من رأسي، أن نعم، أشار لي بتلك الحركة السريعة من يده التي أفهم منها أنّه نازل إلى الكافتيريا هو أيضاً، وأنّني إن انتظرته قليلاً هنا، ننزل معاً. لكنّني، بدلاً من أن أقرّر انتظاره، سألته، بالإشارة أيضاً، إن كان يريد قهوة.

كنت أعرف، فيما أنا أحمل فنجانَي القهوة إلى الطاولة، أنّ ما خصّني به، هناك في الأعلى، لن يُزاد عليه شيء هنا. لن يذهب إلى أبعد من تلك الالتفاتة التي تظهر ثمّ تنقطع، هكذا مثل تحيّة مرحّبة لن يجري شيء من بَعدها.

– كانت معركة قويّة مبارح، قال لي فيما هو يركّز الكرسي قبل جلوسه.

– هون بالكلّية؟

– هون وهونيك، قاصداً المواجهة على التلّة.

– الحجارة كانت قاطعة الشارع، قلت عارفاً أنّه يحبّ أن يسمع أنّ أشياء كثيرة، وقويّة قد حدثت. ولكي أجعل ذلك فرحاً، من دون أن أُنقص من قوّته، رحت أحكي له كيف أنّ بنات الأدب الفرنسي

بدأن بتعلّم إلقاء الحجارة. كان مسروراً فيما هو يزفر دخان سيجارته الكثيف. ربّما لم يكن يصغي تماماً إلى ما أقول، أو ربّما يسمع لكنّه ينتظر أن أنهي ما أحكيه لكي يقول:

– شو عملت حتى حجزوك، سأل، مرفقاً ذلك بابتسامة أخرجها من سهوه. كانت مثل تهنئة لي على أنّني أسير في الطريق الصحيح. وأنا ارتبكت، بل ارتحت، فقد اعتقدت لوهلة أنّه لم يعرف بأنّي لم أبق هناك، في الصفّ الذي كانت تخرج الهتافات من نافذتيه.

– الواحد بيحسّ حالو قوي، قال.

وأنا، لكي لا أقع في مزيد من الارتباك، حوّلت ما قاله إلى ما جرى معه هو:

– لأيّ ساعة خلّوكن بالثكنة؟

– تنتين أو ثلاثة بالليل، قالها ناظراً إليّ متسائلاً كأنّه ينتظر منّي أن أوافقه على أنّ وقت خروجه صحيح، في الثانية أو الثالثة ليلاً، ثمّ أضاف:

– يمكن، بس مش مهمّ على كلّ حال... الواحد لازم يتعوّد.

هذه الأخيرة موجّهة لي أيضاً، بل هي لي أكثر منها له. إنّها ما يجب عليّ فعله بعد التهنئة السريعة التي تلقّيتها. ثمّ، لتكون هي كلمته الأخيرة، رفع يده من بعدها لينظر إلى ساعته. «أنا صار لازم قوم»، ثمّ، مبتسماً، أضاف فيما هو يطفئ سيجارته، «عندي صفّ» كأنّه يتندّر كيف أنّه يصعد، هو أيضاً، إلى حضور الصفوف.

بقيت وحدي على الطاولة. خمس دقائق لكي أفكّر في ما قلته وما سمعته. مع محمّد صافي وزهير وشوقي لا أفعل ذلك. هم يقبلون كلّ شيء، لم يكن ثمّة شيء ممنوع، ما دام الغلط طبيعيّاً

مثله مثل الصحّ، بل إنّ الغلط طبيعي أكثر ممّا الصحّ طبيعي كما يردّد محمّد صافي. مع يوسف أفكّر بالكلمات التي قلتها، والتي أظلّ أشكّ، فيما أنطقها، إن كان قولي لها صحيحاً. وهذا يتعبني ويزعجني لأنّ ما أخطأتُ في قوله، ما كان عليّ ألّا أقوله، يبقى عالقاً برأسي طول النهار. الدقائق الخمس هي لأختار من بين ما قلت ما هو الغلط الذي يجب عليّ أن أبقيه ينخر في رأسي ليوجعه. أتعب من الجلوس مع يوسف، بل مع الحكي معه، بل أتعب من تبادلنا التحيّات التي أروح أتساءل إن كان يجب أن أستمرّ في المشي من بعدها، أو أن أقف لأقول، أو أسمع، شيئاً آخر غيرها.

أفكّر في كلّ شيء وأتساءل عن كلّ شيء كلّما جلست مع يوسف أو كلّما التقيته. وأعرف، مع ذلك، أنّي بقبولي أن أظلّ أحضر الجلسات، التي ربّما ستظلّ تُعقد في بيته، سأخسر حتى تلك الالتفاتة التي يخصّني بها. على الطاولة هنا، لم يطل جلوسنا لأكثر من الوقت الذي يحتاج إليه لشرب فنجان قهوته وتدخين سيغارتين أطفأ ثانيتهما بأن كبسها بالمنفضة شادّاً عليها ليخمد بسرعة الدخان الذي يطلع منها. ثمّ قام، رافعاً يديه الاثنتين عن الطاولة، يديه الجامدتين، بأصابعهما التي كأنّها غُطّست بسائل دبق وها هي تتدلّى، مباعدة بين الإصبع والإصبع، منتظرة أن يسيل القطر منها. كان ينبغي أن يتغيّر شيء في تلك الأصابع، أن تلحق بالتغيّر الذي حقّقه هو. لكنّها ظلّت كما هي، علامة يصعب إخفاؤها عن أنّ هناك بطئاً ما زال قابعاً في مكان من عقله، لم يتزحزح بعد.

* * *

إن سألني زهير هل رأيت محمّد صافي في المظاهرة فلن أعرف بماذا أجيب. ربّما يكون هناك، حين يتجمّع المتظاهرون، وربّما يسير معهم ثلاثين متراً أو أربعين، ثمّ لا يعود يُشاهد بعد ذلك. وإذ أجيء إلى تخيّله في تلك المظاهرة الأخيرة، أرى أنّه ظلّ واقفاً في مكانه، هناك عند نقطة الانطلاق، فيما المتظاهرون يتقدّمون. ذاك أنّه لن يذعن لمسير المظاهرات، المسرع حيناً والمبطئ حيناً، بل والتوقّف تماماً في أحيان بانتظار معاودة المسير. ثمّ إنّني لا أتخيّله معلياً صوته بالهتاف، مشاركاً آخرين صاروا، بعد تداخل الصفوف واختلالها، ماشين أمامه وإلى جانبيه. وفوق كلّ ذلك هناك جسمه، القوي لكن من دون مرونة تلزمه للتحايل على الدرك والقفز من مكان إلى مكان، هرباً منهم أو استفزازاً لهم.

– كنت بالمظاهرة مبارح؟ سألني.

اكتفيت بأن أومأت برأسي أن بلى، كنت هناك.

– مظاهرة قوية...

كان يتمسخر، فهذه طريقته في التعليق على ما لا يعجبه.

– وزتّيت عليهن حجار؟ قال مرفقاً ذلك بنظرة شعرت معها بأنّني يجب أن لا أبدو مبتهجاً بما فعلت، لكنّني أجبته:

– مبلى، شلقتن بالحجار.

– كبار...؟

– شو هني؟

– الحجار.

كان يتسلّى، ويتمسخر. ولأني شئت أن أجاريه في ذلك، رحت أتطلّع في الأرض حولي كأنّي أفتّش عن حجر في حجم الحجارة التي ألقيتها عليهم.

– إنت ما كنت؟ سألتُه.

– كنت، بس الشمس قويّة...

كنت أعرف أنّه لن يقول رأيه في المظاهرات، هل يحبّها أم يكرهها. بل ربّما كان رأيه متردّداً بينها، مرّة مع ومرّة ضدّ، أو هو مع وضدّ في نفس الوقت.

– شوف، أنا مع المظاهرات، بس على شرط ما يكون فيها ضرب حجار.

– ... ولا قنابل مسيلة للدموع، قلت منحازاً للطلاب ضدّ الدرك، لكن مدركاً أنّني قلت شيئاً سيبديني سخيفاً أمامه.

أمّا هو، فلكي يتصرّف كأنّه لم يسمع ما قلته، أو ليردّ عليه ربّما، أجابني بما يعرف أنّه يسكتني، ويعجبني:

– أنا بحب المظاهرات، بس المظاهرات الحلوة.

* * *

كي نصل إلى الساحة التي ستنطلق منها التظاهرة الكبيرة، عبرنا الكورنيش كلّه من الأونسكو إلى ساحة البربير. ونحن على الكورنيش كنّا في مظاهرة أيضاً، نهتف أو نردّد وراء الهتّافين ويلوّح أولئك الذين في المقدّمة باليافطات وبعلم الحزب الكبير. ذلك من أجل أن يكون وصولنا إلى الساحة قويّاً. الأحزاب الأخرى فعلت مثلنا. بعضها كان يسير وراءنا على الكورنيش، هاتفاً وملوّحاً بالأعلام واليافطات، وبعضها كان آتياً من طرق أخرى. نحن، وحدنا، في مظاهرتنا، كنّا كثيرين. أمس، بدا يوسف صارماً، بل كاد يكون مهدّداً وهو يشدّد على أنّنا يجب أن نكون هناك كلّنا «... الرفاق والأصدقاء»، جاعلاً إيّاي أتساءل بيني وبين نفسي مع أيّ من

الاثنين أنا، أو مع أيّ من الاثنين يضعني يوسف. لكن، على أيّ حال، كنت أحرص على أن أراه، منذ أن اكتمل تجمّعنا هناك عند الأونسكو، ليعرف أنّني قد جئت.

من حيث ارتفعت طريق الكورنيش شاهدنا التجمّع الكبير لمن كانوا قد وصلوا قبلنا، وكان صخَبُهم عالياً إذ كنّا نسمع هديره من ذلك البعد. زاد أولئك الذين في الصفّ الأوّل من مظاهرتنا سرعتهم في المشي، وتبعناهم، نحن الذين في الصفوف وراءهم، نصف مهرولين، كأن من أجل ألّا يفوتنا شيء سيحدث هناك. لكن لا ينبغي أن تختلط صفوفنا أو أن يصل بعضنا قبل بعض. «ابقوا متلاصقين... لا تخربطوا الصفوف»، صار يقول منظّمو المظاهرة الذين عقدوا حول أذرعهم أشرطة حمراء. كانوا يتنقّلون ركضاً بين الأمام والخلف، لكن مع ذلك، كانت الصفوف الأولى تزداد سرعة في هرولتها، جاعلة تلك التي في الخلف تسرع مثلها وتزداد تفرّقاً وابتعاداً بعضها عن بعض. وقد يئس أولئك المنظمون فصاروا يمشون بمحاذاة الناس، على طرف المظاهرة، متعبين لاهثين بسبب ما كانوا يبذلونه لحفظ النظام. وحتى حين صرنا قريبين من مركز التجمّع الكبير، ظلّوا كما هم لا يفعلون شيئاً. وحين توقّفنا عن المشي أمام تلك الحشود، ارتفعت هتافاتنا ليروا أنّنا كثيرون، وليوسعوا لنا بعد ذلك كي يبدو دخولنا بينهم شبيهاً بوصول نهر إلى شاطئ البحر ليصبّ فيه.

* * *

لكن أكثر البنات اللواتي كنّ قد مشين معنا تركننا، غير راغبات في أن يدخلن معنا إلى قلب المظاهرة الكبيرة. آثرن أن يبقين هناك

منتظرات، ومتفرّقات في مجموعات، فبدون كما لو أنهنّ بتن متفرّجات بعدما كنّ مشتركات، بأصواتهنّ الرفيعة، بل والبطيئة، بالهتاف. أمّا في داخل تجمّع الحشود، حيث تفرّقت مجموعات الأحزاب كلّها لتصير مجموعات صغيرة، فكانت البنات قليلات، ومختلفات عن سواهنّ إذ كانت الواحدة منهن ّتعلي صوتها غير مكترثة بالنشاز الذي تسبّب به طول الهتاف. ومثلهنّ مثل المتحمّسين الشباب، كنّ يقمن بحركات متحدّية ويطلقن أصواتاً ناقمة كأنهنّ يقفن أمام الدرك والجيش، وجهاً لوجه، فيما يفصلهنّ عنهم حشد المتظاهرين الكبير الذي، حتى فيما كنّا نترقب وصول مظاهرات أخرى، كان قد ملأ الساحة كلّها.

ولم يكن ممكناً أن تظلّ مظاهرتنا الصغيرة كما هي ونحن هناك في المظاهرة الكبيرة، إذ كان يلزم لذلك أن تُخلى لنا مساحة تتّسع لأعدادنا كلّها. كان لا بدّ من أن نتفرّق إذن، مختلطين بأولئك الذين لا نعرفهم ولا يعرفوننا. بل صرت أجد نفسي بين مَن قَدّرت أنّهم ليسوا من الطلّاب ولا من الأحزاب التي أعرف عنها من الكليّة. لكن كان لا يزال ممكناً لي أن أبرح المكان الذي وجدت نفسي فيه لأعود، بعد وقت، إلى أولئك الذين كنت معهم، فمجال التحرّك الضيّق سيزداد ضيقاً مع توافد الأفواج التي تأتي، لا من كورنيش المزرعة فقط، بل أيضاً من الشوارع المفضية إلى الساحة. سيصير صعباً عليّ أن أنتقل من حيث أنا لأنّ أجسامهم المتلاصقة ستمنعني من أن أتحرّك إلى أيّ من الجهات حولي. ثمّ إنّني، إن أتيح لي أن أتحرّك، سيصير صعباً عليّ أن أعرف في أيّ موقع أنا من المظاهرة. ستتنقّل بي حركتُهم، أو حركة الكتلة الكبيرة التي صرت واحداً منها، واقفاً في وسطها، فأصير هناك بعد أن كنت هنا. ما

يجب أن أفعله، قبل فوات الأوان، هو أن أنسلّ من بينهم الآن. لا لكي أخرج من المظاهرة، بل لأبقى على طرفها. هكذا أكون ملتصقاً بها من جهة واحدة، ومن الجهة الأخرى أكون خارجها. وعليّ أن أقوم بذلك الآن. وها أنا أبدأ بأن أمدّ يديّ الاثنتين أمامي معيّناً لمن يحيطون بي المسافة التي أحتاج إليها لأمرّ. وقد تمكّنت من أن أتقدّم خطوة، ثمّ خطوة أخرى، ثمّ خطوة ثالثة احتجت إلى أن أخطوها جانبياً كما لو أنّني أمرّ من فتحة باب أضيق من جسمي. وكذا فعلت، من أجل الخطوة الرابعة، لكن بعدما انتظرت لحظات لترفع تلك الفتاة يديها عالياً كي أمرّ من دون أن يحتكّ جسمي بجسمها. كان عليّ أن أظلّ أتقدّم، من دون توقّف، قبل أن يصل فوج جديد فيرجعني إلى الخلف أو، على الأقلّ، يزيد المسافة التي عليّ أن أقطعها لأصل إلى الطرف الذي لا أستطيع تبيّنه من حيث وصلت. لا بدّ أنّ أولئك الذين جاؤوا من بَعد مظاهرتنا كانوا كثيرين وقد أبعدوني كثيراً عن مكاني الذي ظننت أنّي ما زلت فيه. لكن مهما يكن، فسأظلّ أمشي، متسلّلاً أومنحرفاً أو حتى متقدّماً في اتّجاه اليمين حيث وجهة المظاهرة، لمجرّد أنّي رأيت فراغاً يتيح نقل خطوتي.

وفيما أنا أتنقّل بخطى قصيرة ومتعرّجة، كنت أرى طلّاباً أعرفهم فنتبادل هزّ الرؤوس، ما يعني أنّنا هنا أو أنّنا ما زلنا هنا. وكان عليّ، للحظات قليلة فقط، أن أظلّ ثابتاً في مكاني، لأعود فأستأنف بعد ذلك تنقّلي. لكن، لأعرف إن كنت أتقدّم، كان يجب أن أرى الحدّ الذي تنتهي عنده حشود المتظاهرين. لكنّني لن أستطيع ذلك، حتى إن رفعت جسمي إلى الأعلى. ثمّ إنّني إن فعلت، فقد أشعر بأنّني محاصر وسط هذه الرؤوس وأن لا مجال للنفاذ من بينها.

الأفضل لي أن لا أنظر إلى ما يتعدّى هؤلاء الأقرب إليّ، أولئك الذين تنتهي عندهم الخطوة التالية التي أستعدّ لها.

* * *

من فور ما انطلقتْ أولى الرصاصات، هناك حيث المتظاهرون قريبون جداً من الجيش، ارتفع هدير الأصوات مثل سحابة سوداء ثقيلة غطّت الساحة كلّها. ثمّ، بعد أقلّ من دقيقة، حين صار الرصاص رشقات سريعة، دبّت الفوضى وانفكّت التجمّعات التي كانت متحلّقة حول الهتّافين المحمولين على الأكتاف، وأخذت تتعالى أصوات مفردة لا يردّدها من بعد قائليها أحد. بل صارت المظاهرة كلها تموج وتتحرّك من دون اتجاه. «رصاص... رصاص... عم يقوّصو برصاص حقيقي...» صارت تعلو أصوات من هنا وهناك، فيما تدعو أصوات أخرى إلى أن نبقى في المظاهرة. وإذ ظلّ الرصاص مستمرّاً مصحوباً بأصوات قذائف، كان يرجع من يُفترض أنّهم كانوا بين الصفوف الأولى، راكضين، وصارخين في الوجوه أمامهم، أنّهم شاهدوا شابّاً ينزف مُلقىً في وسط الطريق، وأنّ الرصاص يصيب الصدور والرؤوس، وأنّ العسكر يقتلون الناس عن قصد.

بات الخروج من المظاهرة هيّناً على رغم الازدحام الذي يزيده أولئك الراكضون نحونا. كانت البنايات على الجانبين هناك تحول دون هروبهم فيتراجعون إلى حيث المخارج المفتوحة الواسعة. لم أعد محتاجاً، لأخرج، إلى أن أزاحم من يسدّون طريقي بل بات يكفي أن أسير، بخطى سريعة لكن حذرة، مع السائرين حولي. كنت قريباً من الوصول حين سمعت أحداً يناديني، مرّة، ثمّ مرّة أخرى، ثمّ مرّة ثالثة عرفت معها أنّه زهير. أبطأت المشي، لكي يسرع هو. كان

يلهث ووجهه محتقن كأنّه أتى راكضاً من مسافة بعيدة. ومع أنّه يعرف أنّي سمعته، وأنّي رأيته ولوّحت له بيدي أنّني هنا، عاد يناديني كأن من أجل أن أنتظره. لم أتوقف، لكنّني صرت أريه، فيما أنظر إليه مسرعاً نحوي، كيف أنّني أزيد مشيي بطئاً. لم يكن قد بقي أمامي إلّا خطوات قليلة لأصل إلى حيث كان الهاربون يتجمّعون في حلقات صغيرة، تاركين مسافة خالية بينهم وبين حدّ المظاهرة الذي بات، بعد تفرّق مَن فيها، وهميّاً. هناك وقفت مديراً وجهي إلى زهير.

– في نخاع على الأرض، قالها من مسافة الثلاث خطوات أو الأربع التي تسبق وصوله.

– نخاع؟

هزّ رأسه هزّات متتالية.

– نخاع شو؟

كنت أعرف ماذا يقصد، ولم أكن أنتظر منه جواباً، لكنّه قال بنبرة تحوّلت، بسرعة، إلى أن تكون أكثر هدوءاً:

– نخاع إنسان، نخاع شخص.

– إنت شفتو؟

– كتار شافوه.

– يعني إنت ما شفتو؟

– بس كتار شافوه.

كنّا نعرف أنّه لن يحصل شيء هنا، حيث نقف مع أولئك الكثيرين الذين، في حلقاتهم، يستمعون لمن يروي لهم ماذا جرى هناك، عند حدّ المواجهة، حيث أصابت الرصاصات أولئك الذين هم الأكثر قرباً من مطلقيها. وكان المتجمّعون هنا ينتظرون الواصلين الجدد،

أولئك الذين يحملون أخباراً جديدة. «أكتر من تلاتين واحد انقتلوا» قال واحد من هؤلاء الواصلين وهو ما زال يركض بجسمه الضخم، كأنّه يحرّض سامعيه على أن يفعلوا شيئاً، ثمّ راح، من حين وصوله إلى حلقة المتجمّعين الأولى، يفتّش عن شيء يمكنه الجلوس عليه.

– محمّد صافي إجا على المظاهرة؟

– ... ما شفتو، أجابني زهير بعدما أصغى إلى رجل يعبر بين الواقفين مبلّغاً إيّاهم أنّ المظاهرة لم تنته بعد، وأنّ العسكر، إن تمكنوا منّا هنا، فسنقوم بمظاهرات طيّارة في كلّ بيروت.

– وشوقي؟

– شوقي شو؟

– كان بالمظاهرة؟

– جيت أنا ويّاه بس ضاع، ضيّعتو.

ثمّ أتى آخرون كانوا هناك، في الأمام حيث المواجهة جارية، ليقولوا إنّ المظاهرة لم تنته وإنّ كثيرين بدأوا يتظاهرون في البلد.

– إنت شو رأيك؟ سألني زهير.

ما كنت أريده هو أن أرجع إلى الكليّة. تخيّلتها خالية إلّا من طاولتين أو ثلاث، لكن لن يلبث أن يأتي إليها آخرون.

عندما اقتربنا من محلّ السندويشات ومحلّ العصير الذي إلى جانبه قال لي زهير، فيما هو يشير برأسه إلى حيث البنات اللواتي بقين هناك منتظرات، إنهنّ مثل مشجعات الفرق الرياضية في الأفلام. وهنّ سألننا، حين صرنا بمحاذاتهنّ، هل سقط قتلى عن جدّ. وحين أومأ زهير برأسه أن بلى، رحن يكلّمن بعضهنّ بعضاً قبل أن يلتفتن نحونا لتقول لنا واحدة منهن «أكتر من تلاتين قتيل قال

الراديو»، مشيرة إلى موضع الراديو في محلّ السندويشات وراءها. «أكتر من تلاتين قتيل!» قال لي زهير بعد أن ابتعدنا عنهنّ. ثمّ أعادها مرّة ثانية متّخذاً هيئة الآسف المتفكّر. خطر لي أنّه يفتعل هيئة التأسّف افتعالاً وأنّه، هو هذه المرّة، يقلّد الانفعالات التي لا تكون حقيقية إلّا حين تظهر على وجوه الكبار.

* * *

محمّد صافي كان في المظاهرة. لم يبلّغنا متى جاء إليها ومع مَن، ومتى غادرها. ترك ذلك لتخيّلنا له، واقفاً بين آخرين لا يهتف ولا يصفّق، بل يتطلع في وجوه مَن هم حوله، ويوقف نظره عند أيديهم المصفّقة متسائلاً، بسخريته التي نعرفها، لماذا يفعلون هكذا. حتى مشهده، أو تخيُّل مشهده، يبدو غريباً بطوله الفارع ورأسه الضخم وبدلته الرمادية، غير المتناسبة مع ما يرتديه المتظاهرون. «طيّب شفت حدن هونيك بتعرفو؟» سأله زهير من أجل أن يسمع منه ما يؤكّد أنّه كان هناك. لكنّه لم يحصل على أكثر من تلك النظرة التي يعرفها. ولكي يزيد من إرباك زهير أعاد محمّد صافي سؤاله إليه:

– وإنت شو رحت تعمل؟

– رحت إتظاهر، أجابه متفادياً جواباً سيورّطه مهما كان.

كان زهير يعرف، وكنت أعرف أيضاً، أنّ أخذنا أيّ شيء على محمل الجدّ سيلقى استخفافاً منه.

– عن جدّ يا محمّد، إنت ليش رحت على المظاهرة؟ سألته أنا هذه المرّة، مستبقاً أيّ شيء هازئ قد يقوله، خصوصاً عن القتلى الذين صاروا ستة وثلاثين بحسب ما راح يتردّد في نشرات الأخبار.

– رحت أتفرّج.

– على شو؟

– على كلّ شي.

– وشفت حدا من اللي انقتلو؟

– لو شفت كان شي تاني، كانت رَوْحتي عالمظاهرة شي تاني.

للتوّ أدركنا، أنا وزهير، أنّه عاد إلى كلامه الذي يفتننا ويسكتنا. كلامه الحقيقي الذي لا أعرف إن كنّا نؤيّده أو لا نؤيّده، والذي سنجهد في تفسيره ونظلّ عارفين أنّ بقيّة منه، هناك في قاعه، ستظلّ غير مفهومة.

هو كلام صحيح، ومربك لي على الأقلّ إذ أفهمني أنّني، بمقتل من قُتلوا، أرفع من شأن كوني هناك، فيما، وأنا بين متظاهري الحزب في كورنيش المزرعة، كنت لا أتوقّف عن التساؤل لماذا جئت، ولماذا أنا هنا؟

– على كلّ حال، نحنا ما كنّا رح نقتل حالنا من الحزن، قال لي زهير حين قام محمّد صافي ليأتي بفنجان قهوة ثانٍ.

لم يطل بقاؤه هناك، أمام الآلة التي تطلع أصواتاً قويّة قبل أن تنفث بخارها الكثيف. وهو راجع إلينا، راشفاً من قهوته ومدّخناً، سألنا إن كان الكازينو سيقفل هذا المساء.

– الكازينو اليوم معطّل... إضراب، أجابه زهير.

لكنّ محمّد صافي قال، مقدّماً وجهه بيننا نحن الاثنين، إنّنا نستطيع إن ذهبنا إلى الكازينو، أن نكتفي بالفرجة، قال قاصداً إيّانا، أنا وزهير، أمّا هو فلن يذهب لمجرّد الفرجة.

– عم قلّك معطّل اليوم، مسكّر.

– الكازينو ما بيسكّر.

* * *

هذه المرّة، رأى زهير ما حصل بأمّ عينه. كلّ شيء جرى بسرعة. حتى إنّ السيّارات الثلاث التي انعطفت نحو الكليّة وجدت أمكنة خالية لوقوفها معاً، واحدة بجانب الأخرى، لتبدو كأنّها تحجز مدخل الكليّة وتحاصره. وبتلك السرعة ذاتها انفتحت أبواب السيّارات الثلاث ونزل منها رجال ليسوا أبداً من الكليّة، بحسب ما وصف زهير. أوّلهم، وهو ضخم وعريض، قطع، بخطوة واحدة، المسافة بين العتبة العالية والبوّابة التي بعدها. كان عارفاً إلى أيّ اتّجاه يقصد فلم يتوقف، ولو للحظة، حائراً بين المسالك الثلاثة المفتوحة أمامه. وحين وصل إلى الساحة المشمسة، يتبعه نصف من كانوا في السيّارات، سمع زهير شجاراً تخلّلته أصوات نسائية مستغيثة ومولولة. ولمّا سكتت الأصوات هكذا فجأة، أطلّ ذلك العريض الضخم، يتبعه من نزلوا معه، ليخرجوا من البوّابة، لكن لا ليصعدوا إلى السيارات، بل ليتّجهوا إلى المنعطف المؤدّي إلى قفا الكليّة. تبعهم زهير، لكنّه توقّف عند المنعطف ولم يتعدَّه. وهم، كأنّهم عارفون بما سيفعلونه هناك أيضاً، اتّجهوا إلى الحائط العالي الذي يحجز الكليّة عن الطريق، ثمّ ظهروا، جارّين عبد الهادي، الذي ظنّ أنّ هربه نجّاه منهم. «كان خائفاً ومذهولاً، كأنّه يعرف ماذا سيفعلون به»، قال زهير، إذ ما إن وصلوا إلى رصيف الطريق حتى أعلوا جسم عبد الهادي ليصير واقفاً، ورفع أحدهم المسدّس في وجهه، كأنّما ليريه إيّاه. «إعدام... رح يعدموه» قال صوت طالبة انتبه زهير أنّها واقفة إلى جانبه، وفيما كان عبد الهادي ينظر إلى المسدّس

القريب من وجهه، انطلقت الرصاصة. قال زهير إنّه لا يعرف إن كان سمع صراخاً، فيما كان عبد الهادي يسقط بلا حركة على الأرض، أو إن كان حلّ هدوء من ذلك النوع الذي يصمت معه كلّ شيء، حتى صوت السيّارات العابرة على الطريق.

«تماماً كما في الأفلام»، قال زهير فيما هو يصف لنا كيف أنّ الرجل الضخم، الذي أطلق الرصاصة، استدار، مبقياً المسدّس في يده، واتّجه إلى حيث السيّارات الثلاث. كلّ شيء جرى بسرعة. قال زهير إنّ ذاك الرجل، فيما هو يفتح باب السيّارة، لم يكترث بوجود الطلّاب الذين تجمّعوا عند البوابة ولم يلتفت إليهم، على رغم قرب المسافة بينه وبينهم التي لا تتجاوز المترين ونصف المتر. «والشبّ اللي انقتل؟» سألتُه، فقال إنّه لم يعد يراه، إذ فجأة التمّ حوله ناس كثيرون وهو لم يستطع أن ينتبه لكلّ شيء بعد تلك الصدمة.

* * *

كانت تلك «رصاصة زهير» بحسب ما وصف محمّد صافي. «الرصاصة التي فضّت بكارته» جاعلة إيّاه يعرف أنّ ما يجري بين الطلّاب توقّف عن أن يكون «لعب أولاد»، وأنّ طلّاب الكليّة، ما عادوا صغاراً يقلّدون الكبار. ثمّ إنّ هذا الذي جرى لن ينتهي بتلك الرصاصة، بل إنّ أشياء كثيرة ستأتي بعدها. ما سيحصل سيتجاوز الكليّة، أضاف محمّد صافي ذاهباً في مبالغاته باتّجاه التشاؤم هذه المرّة. «على كلّ حال لازم نلحق ننبسط قبل ما يفوّتونا بالحيط»، قال مقترحاً أن نبدأ بذلك الآن، الليلة...

– وشو لازم نعمل؟ سأله زهير.

– بعد معكن مصاري من المنحة أكيد. قال سائلاً ومجيباً معاً.
– إيه، على شو ناوي؟
– على الكازينو، قرشك بتنين، قال مقلّداً كلام البائعين.

* * *

– ما بيخلّوكن تفوتو بلا كرافات، قال محمّد صافي.
– كرافات وطقم؟ سأل زهير.
– كرافات وطقم.
– إيه، أنا ما عندي طقم، قال زهير بطريقة بدا معها أنّ مشروع الكازينو فشل كلّه.

كان متردّداً، وكنت أنا متردّداً مثله. لم يقنعنا كلام محمّد صافي عن أنّ مصاري المنحة الشهرية، أو ما بقي معنا منها، سيتضاعف. فكّرنا أنّ خطّته للربح، لو صحّت، كانت ستفلس الكازينو. ثمّ إنّها لا تحتاج إلى ذكاء زائد حتى تكون خافية على كلّ الذين يذهبون إلى هناك. ونحن سألناه، لنبرهن له أنّ من المؤكّد أنّ إدارة الكازينو تعرف أنّ الناس سيفكّرون هكذا مثلما يفكّر هو، وأنّ هذه واحدة من خططها لتوريط الناس وتفليسهم.

– إنت رحت قبل يا محمّد؟
– أكيد.
– وكنت عم تربح؟ سأله زهير ناظراً إليه ليرى كيف أن لا شيء من الربح يظهر على شكله وثيابه.

لكنّنا ذهبنا. منذ أن نزلنا من السيّارة هناك عرفنا أنّه سبق له أن أتى مرّات من قبل. كان يرتدي طقمه الرماديّ نفسه وهو، بتصرّف الواثق، انتظر حتى وصلنا إلى مدخل الكازينو ليُخرج الكرافات من

جيبه ويعقدها تحت قبّة قميصه. أمّا بالنسبة لنا، فكانت الجاكيت كافية «... المهم الكرافات». لم يعترضنا رجل الحراسة المكلّف بمراقبة الداخلين. اكتفى بأن أطال النظر إلينا ثمّ ردّ على تحيّة محمّد صافي، كأن مرغماً، إذ لم يزد ردّه عن إطراقة خفيفة غير مرحّبة. «فيك تستأجر منّو كرافات إذا بدّك» قال محمّد صافي مخاطباً إيّانا معاً.

كنّا خائفين أنا وزهير، منذ أن أطللنا على تلك الباحة الواسعة التي يرتفع منها درجان عريضان. توجّسنا من أن يركض نحونا أحد ويسألنا لماذا نحن هنا، أو كيف دخلنا. تلك الفخامة التي نتقدّم فيها بدت كما لو أنّها تشي بنا. أمّا محمّد صافي فكان يحثنا على أن نكون مثله في ابتهاجه وخفة حركته وعدم خوفه من أحد. «هيئْتو عم يِجي كلّ يوم» قال زهير. وحين دخلنا إلى واحدة من قاعات الطابق العالي قال لنا محمّد صافي أن نراقب فقط، من أجل أن نتعلّم، وراح، بصوت مسموع لأولئك القليلين الذين يقفون حول طاولة الروليت، يعلّمنا شارحاً لنا، بالكلام، ما يجري على الطاولة.

كنّا خائفيْن أيضاً من أن يتهوّر ونعجز عن إيقافه. فهو، من لحظة ما انضمّ إلى اللاعبين، راح يتصرّف كما يتصرّف اللاعبون في أفلام السينما. بنظرة مترفّعة جعل ينظر إلى مربّعات الطاولة وأرقامها، واضعاً يده في جيب بنطاله بما لا يتناسب مع عتقه من كثرة الاستعمال، كما لا يتناسب مع المصاري القليلة التي سيراهن بها. ذاك أنّه، بحسب خطّته، عليه أن يبدأ بالقليل، أي بالأقلّ المسموح به من أجل أن يتاح له البقاء لاعباً لأطول مدّة ممكنة. «لا مجال لأن أخسر»، كان يقول لنا، «ما دمت قادراً على ضبط أعصابي». لقد درس خطّته جيداً، وبحسابات رياضية. أولاً سينتظر تكرار وقوف

الطابة الصغيرة على الأسود أربع مرّات كي يبدأ اللعب، وذلك بوضع الخمس ليرات على الأحمر، لأنّ احتمال تكرار الأسود للمرّة الخامسة سيكون ضعيفاً. وإن حصل ذلك، أي إن توقفت الطابة على الأسود للمرة الخامسة، فعندها يصير احتمال المرّة السادسة أكثر صعوبة فيرفع مبلغ الرهان ليصير عشرين ليرة، وهذا لكي يكون ربحه عشر ليرات لأنه يكون قد دفع عشراً. وإن عاد الأسود مرّة سادسة يراهن على الأحمر بأربعين ليرة، ثمّ إذ يصير من المستحيل أن يتكرّر الأسود للمرة السابعة، يضاعف محمّد صافي مبلغ الرهان مرّتين، فيكون مئة وعشرين ليرة بدل الأربعين. ثمّ، إن تكرّر الأسود مرّة أخرى، ستكون هذه هي الضربة الأخيرة، إذ يكون محمّد صافي قد خسر لأنّه، بمصرياته الباقية، لن يستطيع أن يكمل خطّته.

أي إنّه كان سيخسر في كلّ مرّة بسبب توقّفه عن متابعة تنفيذ خطّته. «منشان هيك بدّو يانا نِجِي معو»، كان قد قال لي زهير، لكنّه، هنا في الكازينو، ونحن واقفان ننظر إلى محمّد صافي، قال لي إنّه لن يدفع أكثر من ستين ليرة، وهذه نصف ما معه. «وأنت إدفع ستين كمان»، قال لي من أجل أن نكون متساويين، سواء ربحنا أو خسرنا.

تأخّر محمّد صافي في البدء باللعب إذ كان الأحمر والأسود يتناوبان، مرّة هذا ومرة ذاك، أو مرة ذاك ومرّتين هذا. كان ينظر إلينا كأن من أجل أن نهدّئ أعصابنا، أو يقول لنا أن نذهب إلى البار حيث يقدّمون الويسكي مجّاناً، ويوصينا بأن نجلب معنا كأساً له أيضاً. ونحن بقينا متردّدين غير مصدّقين أن يُعطى شيء بالمجّان. ثمّ إنّ الكازينو، الذي يعرف كيف يربح وكيف يخسر، لن يقدّم لنا الويسكي

أنا وزهير ما دمنا واقفين نتفرّج ولا نلعب. لكن لنجرّب، قلت لزهير، مقترحاً أن نقول لرجل البار إنّ الشابّ الذي يلعب هناك يريد كأس ويسكي. ابتسم لنا، ثمّ أطرق برأسه ليفهمنا أنّه سيرسل له الكأس.

* * *

خسرنا، لكن ليس بحسب الخطّة. كان محمّد صافي قد بدأ اللعب بعد توقّف الطابة ثلاث مرات على الأحمر، فوضع الخمس ليرات على الأسود، لكنّه ربح، فكان عليه إذن أن يبدأ من جديد، ثمّ خسر، ثمّ ربح، ثمّ خسر، ثمّ خسر. هكذا صار اللعب بلا خطّة، ونحن، أنا وزهير، عرفنا أنّ المصاري، على رغم هذه المراوحة، تنقص جولة بعد جولة. في السيّارة التي أنزلتنا إلى بيروت قال محمّد صافي صحيح أنّنا خسرنا لكنّنا لن ننسى أنّنا كنّا هنا في الكازينو.

– ذكّرتَنا بجسر البربير، قلت له مذكّراً إيّاه، ومذكّراً زهير أيضاً، بإبقائه إيّانا منتظرين على الجسر لكي نتذكّر أنّنا وقفنا هناك.

– على كلّ حال هيدي فرصة كمان، لإنو يمكن يسكّر الكازينو بعد كم يوم.

* * *

لم يؤخذ بالثأر لعبد الهادي، لأنّه لم يمت. بعد حوالى أسبوعين على حادثته جاء إلى الكليّة. رأيته صاعداً على الدرج الموصل إلى الطوابق، وحده، لا يحيّي أحداً ولا يحيّيه أحد. كان وجهه مقفلاً، لا يثير تعاطفاً أو شفقة، ولا حتى فضولاً، بسبب الرصاصة التي

أحدثت فجوة في خدّه. كان خدّه الثاني، حيث من المفترض أن تترك الرصاصة أثرها الثاني، سليماً، كأنّها سقطت في داخل فمه ولم تكمل طريقها إلى الخروج.

أن لا يؤخذ له بالثأر فهذا يعني أنّ حزبه غير قادر على المواجهة هنا في الكليّة، كما يعني أيضاً أن تقوى شوكة الحزب الذي أرسل أولئك الذين أطلق عليهم محمّد صافي، لكن بعد شهور من ذلك التاريخ، صفة أول ميليشيا لبنانية. لم يعودوا ثانية إلى الكليّة، لكنّ أثر زيارتهم لها بقي فاعلاً، كأنّ السيّارات الثلاث جاهزة للمجيء في أيّ وقت.

في أحد الصباحات، عند وصولي إلى الكليّة، أخافني، بل أرعبني ذلك العلَم الذي يتدلّى من أعلى المبنى الأوّل، نزولاً على طول الطوابق السبعة. كان مهدِّداً، وعدوانياً إلى حدّ أنّني أبطأت خطواتي كأن من أجل أن أعرف إن كان رجوعي أسلم لي. كانوا متجمّعين هناك، مالئين درجات الصعود الى المبنى الأول. عبرت من أمامهم مسرعاً، ملتقطاً بنظرة مختلِسة ساقَيْ أوديت وقد زادهما مكانها المرتفع انكشافاً، فوق ما يكشفه الميني جوب. كانت منحنية قليلاً كأنّها تضيّف الجالسين من علبة حلوى تحملها بيدها. مسرعاً أكملت نزولي إلى الساحة المشمسة، ثمّ إلى الكافتيريا. هناك كان زهير جالساً مع شوقي. ومن فور ما وصلت إلى طاولتهما قلت لهما «شفتو أحلى فخاد كيف هي اليوم»، هكذا كنّا نسمّيها «أحلى فخاد» أو «إم أحلى فخاد». وكانت تعرف ذلك، بل تعرف أيضاً أنّ جمالهما يعوّض عن وجهها الأقلّ جمالاً بدرجتين أو ثلاث من معدّل الوسط.

– شايف شو عِمْلِت بحالا... صرنا نخاف نتهيّج عليها، قال شوقي.

– أنا بصراحة صرت خاف إجي على الكلّية. لو بتعرف شو عملو مبارح... خبّرو يا شوقي.

– عملو حفلة ما قبل راس السنة...

– لوحدن؟

– لوحدن، بس كانوا كتار.

* * *

أمّا رصاصتي الأولى، رصاصتي أنا، فهي التي أردَت ناطور بنايتنا خليل. لم أكن هناك حين أصابته لكنّني، مع ذلك، أقول إنّها رصاصتي. ذاك لأنّي كنت أوّل من رآه ميّتاً. ثمّ إنّني كنت الأقرب إليه من ساكني البناية كلّهم. لأنّه كان يكلّمني، أمّا الآخرون فيبتسم لهم فقط. ليست تلك الابتسامة المجامِلة التي تنقطع أو تتوقّف بعد أن يمرّ مَن رآها، بل هي ابتسامة خليل. ابتسامته المولودة معه والباقية دائماً على وجهه، حتى لو كان وحده، جالساً في غرفته أو متمشياً حولها على مساحة السطح الواسعة. «شو يا خليل...؟» أقول له منتظراً أن يخبرني شيئاً. ومع أنّه يعرف أنّ ما قلته ليس إلّا طريقة في الكلام، يهزّ رأسه مستفهماً، موسّعاً ابتسامته حتى تصير قريبة من الضحك.

كان يعيد تلك الضحكة القليلة حين أقول له «صديقي خليل» قبل أن أوضح له أنّه، إن ظلّ مرابطاً هنا على السطح، فلن يحظى بفتاة، مثله كردية، تعجبه. «إنت قاعد هون ناطر عالفاضي»، أقول

لأنّه كان ينتظر فعلاً، متأنّقاً ومسرّحاً شعره، ومتهيّئاً لأن يحصل هناك على فرصته.

«الرصاصة أصابته في رقبته»، قال المسعف في الدفاع المدني الذي لم يتأخّر في المجيء. وأنا ساعدت في شطف السطح، بعدما أخذوه، لإزالة الدم الكثير الذي تيبّس بعد يومين من إصابته. دم كثير، امتدّ مثل شريط عريض كان يخلّفه وراءه فيما هو يزحف من درابزين السطح، حيث كان يقف حين أتته الرصاصة، باتّجاه البوّابة التي ما يزال أمامه نصف متر ليبلغها. الجار الذي في الطابق السادس قال إنّه لم يسمع شيئاً، مع أنّه لم يخرج من بيته طيلة يومَي الاشتباكات الدائرة في الأسفل. ربّما كان خليل يظنّ أنّه سيبلغ البوّابة، حيث يمكن سماع صوته طالباً النجدة، أو ربّما استحى أن يعلي صوته من أجل أن يأتوا ليساعدوه فهو، كما يفكّر بينه وبين نفسه، جاء إلى البناية من أجل أن يشتغل لا من أجل أن يشغل الناس بنفسه.

رصاصتي تلك، مع أنّها رصاصتي الأولى، لم تنغرز في رأسي مثلما انغرزت في رقبة خليل. كان عليّ، وأنا في الكليّة، أن أروي ما حصل له مرّة واحدة فقط، وربّما مرّتين يفصل بينهما يوم أو يومان. بعد ذلك عليّ أن أنسى مقتله، أن أؤجّل التفكير فيه، أو أن أترك ذلك لي وحدي. في ما يتعلّق بالخيار الثالث، هذا الأخير، لم يكن متاحاً لي الوقت الذي أنفرد فيه، فأنا أظلّ في الكليّة، أو في جوّ الكليّة كما كنّا نقول، من الصبح إلى آخر الليل. ولهذا أعرف أنّني إن رحت أفكّر ماذا جرى لخليل، وأردت أن أقول لزهير ما أفكّر فيه، فلن يجيبني، بعد أن يخرج من صفنته، إلّا بسؤال يطلعه من غفلته: «مين خليل؟».

أقول إنّها رصاصة أولى لأنّ رصاصات كثيرة ستعقبها. كنت أعرف ذلك بالحدس، ومن دون حاجة إلى الاستماع لنشرات الأخبار. هو الحدس الذي يمكّنني من معرفة ماذا سيحدث في ما بعد. قال محمّد صافي إنّ هذا ليس الحدس، بل هو الفزع.

هو الحدس أو الفزع، كان يرتفع مؤشّره مع كلّ رصاصة أو قذيفة. وقد أدركت أنّ ذلك يشملنا جميعاً ليلة كنّا ساهرين في شقة شوقي. فجأة أزّت أولى الرصاصات، ثمّ أعقبتها رصاصات أكثر دويّاً، ثمّ أصوات قنابل أو مدافع. «بعيدة، مش هون» قال نقولا فيما هو يدير عينيه باحثاً عن مكان للاختباء. وبدا أنّ خروج شوقي إلى الشرفة ادّعاء وبلاهة أدركهما هو نفسه، إذ بسرعة أقفل باب الخشب وهو يقول: «يه، شو عملت أنا؟». كنّا كما لو أنّنا تهيّأنا سلفاً لهذا الفزع، مراكمين إيّاه في انتظار وقوعنا فيه. «عم تقرِّب» قال أحدنا، ربّما كان شوقي أو زهير، لكنّني قدّرت أنّها ما زالت هناك وراء خطّ البنايات العالية ولم تصل بعد إلى أرض البورة الواسعة أمامنا. كنّا خائفين أكثر ممّا ينبغي على كلّ حال، لكنّ الانفجارات، ومعها الرصاصات، راحت تشتدّ وتقوى. «هونيك، عم يصيبوا البنايات»، قدّر نقولا وهو ينظر حوله ليرى أيّ الزوايا هي الأكثر أماناً في الغرفة التي نحن فيها. كان يتنقّل على أربع بين هنا وهناك، زاحفاً خافضاً جسمه إلى حدّ التصاق بطنه بالأرض. لكنّ زهير، الذي ظلّ صامتاً الوقت كلّه، رأى أنّ هناك مجالاً لينكّت عليه: «عم تخاف كتير يا نقولا، هيك رح تنيك الأرض». لم يجب نقولا بشيء، خاف أن يلتفت إلى حيث زهير فيبدو غريباً منظر إدارته لوجهه، مع أنّه، ليرى زهير، لن يضطرّ إلى أن يرفع رقبته ورأسه إلّا قليلاً.

لكنّ الدويّ القويّ للقذيفة التي سقطت في البورة وارتجّ لها الباب الذي كان شوقي قد أقفله أرعبنا كلّنا. انبطحنا على الأرض وصار نقولا يقول إنّ القذيفة الثانية ستسقط هنا، على الغرفة هذه. كان يصرخ فيما هو يقول ذلك، وقد أيّد، بصوت عالٍ أيضاً، ما قاله زهير، مقترحاً أن نخرج الآن من هنا. لكنّ شوقي قال إنّ علينا ألّا نفكّر بهذا أبداً، إذ من المؤكد أنّنا سنموت على الطريق.

«يمكن خلصتْ»، قال شوقي بعد عشر دقائق من توقّف الرصاص والقصف، لكنّنا بقينا، وبقي هو، متّخذين أوضاع الاحتماء ذاتها، بانتظار أن تمرّ عشر دقائق أخرى لنسلّم بأنّ من يتقاتلون توقّفوا فعلاً. كان نقولا أوّل مَن تكلّم مفتتحاً وقت ما بعد الخوف: «صرت تتمسخر عليّ يا خرا» قال لزهير، لكن قابلاً بأن يردّ عليه زهير بأيّ شيء، من دون أن يزعل أو يغضب. «يالله قوموا فلّوا عبيوتكن» قال شوقي الذي، بعد أقلّ من دقيقة، أعاد دعوته لنا إلى الخروج، مصاحبة بتحذيره أنّ ذلك يجب أن يكون سريعاً.

حين قال نقولا إنّه لا يعرف ماذا يفعل إن بدأت الحرب سأله محمّد صافي إن كان لا يزال منتظراً أن تحصل. وحين رفع نقولا نظره إليه، كأنّه لم يفهم، أجابه محمّد صافي بأنّ ما كنّا فيه أمس في بيت شوقي هو الحرب، ثمّ زاد على ذلك مطمئناً إيّاه: «وهيئتك عرفت شو تعمل».

– شو عملت؟... خفت!

– ... يعني بتعرف تخاف.

لم يرق ذلك نقولا، ولا حتى زهير. بدا محمّد صافي كأنّه ما زال يتمسخر فيما كنّا خائفين ممّا سيحصل بعد ليلة أمس. «هيك عم تأستز علينا يا محمّد»، قال له زهير مظهراً ما ينبغي أن يفهمه

محمّد صافي وهو أنّ هذا الوقت ليس وقت التذاكي. لكنّه لم يلبث أن انساق إلى ما كان قد احتجّ عليه. قال إنّه سيبدأ التفتيش عن غرفة تحت الأرض، ليس للاحتماء من الرصاص والقذائف، بل من أصواتها التي يكرهها.

– لولا الأصوات مبارح ما كنّا شعرنا بشي ولا عرفنا شي. المهم نخلص من الأصوات...

– يعني أكيد رح يصير حرب؟ قال راجياً أن يجري التراجع، ولو قليلاً، عمّا بدا مؤكّداً في كلام محمّد صافي.

لم يرحه محمّد صافي في هذه المرّة أيضاً. قال له إنّهم من أجل هذا يتسلّحون جميعهم، «وإلّا ليش عم يدفعوا كلّ هالمصاري؟».

– ونحنا شو لازم نعمل؟

– بدنا نشوف، قال محمّد صافي، ثمّ بحركة من رأسه، لفتنا إلى يوسف الواقف هناك عند الباب. وهو، في اللحظة التي خطا فيها يوسف نحونا، متّجهاً إلى طاولتنا، قال لنا «هلّق منسألو، يمكن بيعرف شو لازم نعمل».

– مرحبا شباب، شو كيف كان مبارح؟ قال يوسف وهو يدير نظراته بيننا.

– اقعد معنا، قال له محمّد صافي.

– لا... لا... بدّي روح، قال متعمّداً النظر إلى ساعته، ثمّ أعاد نظره إليّ خاصّاً إيّاي من بينهم:

– فينا نحكي شوي؟

– بالإذن شباب، قلت فيما أنا أقوم عن كرسيّي.

«فينا نحكي شوي؟» قالها، مرّة أخرى، حين صرت وجهاً لوجه أمامه، ثمّ أحاط خصري بساعده داعياً إيّاي إلى أن نخرج. وأنا، لكي

لا أبدو مدفوعاً هكذا من دون رغبتي، التفتّ إلى حيث كنت على الطاولة لأقول، مرّة أخرى أيضاً، «بالإذن يا شباب».

لم يكن يوسف ابتعد بي أكثر من خطوتين حين سمعت محمّد صافي يقول، مسمعاً زهير ونقولا:

– ... أخدو عالحرب.

– لوين نحنا رايحين؟

– بعد شوي رح تعرف، أجابني يوسف وهو يقود السيّارة التي لا أعرف من أين جاء بها. كانت تعلو ثمّ تهبط متخبّطة على طريق ضيّقة، مرصوصة وكثيرة الحفر.

– ما كنت بعرف إنّك بتعرف تسوق...

– السواقة أهون شي، بيومين بسّ تعلّمتها.

كانت يداه القليلتا المرونة تقبضان على المقود، ورأسه مرتفعاً ومتقدّماً إلى الأمام، ونظره مركّزاً على المسافة الأقرب إلى مقدّمة السيّارة. وهو، حين انتبه إلى أنّني أطلت التحديق فيه. أدار وجهه إليّ، ثمّ سألني، بعد أن أعاد نظره إلى الطريق: «خايف؟».

لم أعرف إن كان يقصد خوفي من قيادته أو من المكان الذي يأخذني إليه. وهو على أيّ حال أعفاني من الجواب بأن قال لي إنّنا قريباً سنصل، وإنّني سأرى هناك أشخاصاً أعرفهم.

كان عليّ، منذ أن خرجنا من باب الكليّة، أن أعيد عليه سؤالي إلى أين نحن ذاهبان، أن أصرّ على ذلك لكي لا أكون منصاعاً هكذا إلى ما يريده ويقرّره. لكنّني، قبل أن أصل إلى هذه الطريق التي لا أعرفها، كنت أؤجّل ذلك، مرّة بعد مرّة. وها أنا الآن، ونحن نكاد نصل بحسب ما قال، أظهرت شيئاً من ذلك ببقائي صامتاً بعدما استعدّ هو ليجيب عمّا أسأله.

مع أنّني كنت أعرف ماذا سأقول، إذ كنت قد أعددت جملاً كثيرة في رأسي، بعضها سيفاجئه مثل أن أقول له «إنتو بالحزب...» قاصداً أنّني لست مثله في الحزب، وأن الاجتماعين أو الثلاثة لم تجعلني كذلك.

* * *

– عرفتو؟ سألني يوسف حين شاهدنا أول من كان قد وعدني بأنّي أعرفهم.

– مبلا بعرفو. قلت من دون احتفاء إذ كنت لا أزال ساخطاً من المجيء بي رغماً عنّي.

«معنا؟»، سألني الشاب الذي كان قد اشترك، مع أنّه طالب رياضيّات، في مباراة شعرية. لم أجبه، وقد توقّعت أن يعلّق يوسف بشيء نيابة عنّي لكنّه، بدلاً من ذلك، تقدّم بي إلى الأمام تاركاً ذلك الشابّ واقفاً غير آبه بسرعة ترْكنا له. «كمان في ناس ما بتعرفهن...»، قاصداً أنّهم من أحزاب غير حزبنا. بدا لي كما لو أنّه لم يسمع، أو لم يشأ أن يسمع، ما قلته عن تنصّلي من كوني رفيقاً في الحزب. «... مثل هؤلاء»، قال، دالّاً إلى أربعة رجال أو خمسة أيقنت على الفور أنّني لا أعرفهم، ولا يعرفهم يوسف أيضاً إذ مرّ من أمامهم حتى من دون أن يرفع نظره نحوهم. «نحنا مش لوحدنا هون»، قال ليفهمني أنّ الذين هنا ينتمون إلى أحزاب عديدة.

– كنت بتعرف هالمنطقة قبل؟ سألته فيما أنا أحاذر النظر إلى حلقات المتجمّعين هنا وهناك.

– ما كنت عارف حتى إنها موجودة.

ذلك من أجل أن يبيّن لي أنّ لديه، هو أيضاً، شيئاً يقوله عن هذا المكان. ولكي يبقي يوسف نفسه في مزاجه ذاك، غير الحزبي، قال لي إنّ أحداً من الذين هنا لا يعرف لهذه المنطقة اسماً، مع أنّها منطقة واسعة.

– وصلنا، قال مشيراً بإصبعه إلى بيت قديم تساقطت الحجارة من طرف طابقه الأعلى.

– شو؟ قال محيّياً الشباب الذين أداروا أنظارهم إلينا.

كنت أعرف اثنين أو ثلاثة منهم. وهم يعرفونني أيضاً بل إنّهم أطلقوا كلمات ترحيب عبّرت عن سرورهم بأنّي هنا. وفي الدقائق القليلة التي وقفتها بينهم، من دون يوسف الذي كان قد توجّه وحده إلى داخل البيت، كان عليّ ألّا أبدو منتبهاً إلى اللباس العسكري الذي ارتداه بعضهم، ولا إلى البنادق التي لم يكونوا قد اعتادوا حملها. حين أطلّ وجه يوسف من الفراغ المعتم، داعياً إيّاي إلى الدخول، فكّرت أنّني لن أستطيع أن أقول شيئاً لمن هم هناك.

«ياللا، الرفاق ناطرين»، قال مستنكراً بطئي في المشي.

لم أزد سرعتي، مع أنّني سأدخل. وهناك، إن قبلت بما سيقولونه لي، فلساعة أو ساعتين، وربّما لهذا النهار حيث أكون قد عرفت ماذا عليّ أن أقول لأخرج، من دون أن يقال إنّ ما أخرجني هو خوفي وجبني.

الفصل الثالث

كنت قد سمعت أنّ وداد تغيّرت. في سنة 1980، حين لم تكن قد بلغت بعد أواخر ثلاثينيّاتها، كانت تبدو كما لو أنّها في الخمسين. تعِبَ وجهُها، وامتلأ بتغضّنات مبكّرة، خفيفة لكنّها اتّسعت عن الأماكن المعتادة لظهور التغضّنات في الوجوه. حين رأيتها في مقهى الويمبي في شارع الحمرا، تجنّبتُ إطالة النظر إليها لئلّا أبدو كأنّني على وشك أن أسألها كيف حدث لكِ هذا. لكنّ ابتسامتها كانت لا تزال كما هي، ساخرة قليلاً، من دون قصد السخرية على الأرجح. وقد تذكّرت أنّني، آنذاك في أيّام الكليّة، كنت أفكّر أنّ تلك الابتسامة هي من علامات التبدّل التي جاء بها تقليدها للشبّان الذكور في حكيهم.

– أنا رح قوم... يمكن إنتِ ناطرة حدا، قلت لها بعد دقيقتين أو ثلاث من جلوسي قبالتها.

– خلّيك إذا بدّك، قالت حين رأتني أتهيّأ للقيام إلى طاولة أخرى.

– ... بقعد شويّ، قلت مفتعلاً النظر إلى ساعتي.

ذاك أنّ الدقائق القليلة ستكون ثقيلة ومربكة، لن أكون فيها إلّا مثلما كنت في آخر ذلك اللقاء، بل الاختلاء، أيّام كنّا لا نزال بعد في

الكلّية: ساكتاً غير فاهم شيئاً، ومتسائلاً إن كان ما قالته تقصده حقاً. قالت «لا» آنذاك وهي ترفع يدها في وجهي كأنّها تصدّ عنها شيئاً. قالتها هكذا، مباغِتة إيّاي بعد أن كانت، قبل لحظات، لا تزال مستغرقة مغمضة عينيها فيما يدي تنخفض عن شعرها لتداعب أذنها. كانت «لا» حاسمة، وقفتْ من بعدها تلك الوقفة الآمرة التي تعني أنّني يجب أن أخرج، الآن.

حتى إنّني لم أعرف إن كان عليّ أن أسألها لماذا. ما كان يجب أن أفهمه هو أنّها لا تريدني، ولن يفيد أن أبقى قليلاً، أو أن أتردّد، لعلّها تعود إلى ما كنّا فيه قبل لحظات. لم أتأخّر في الخروج إذن، فقط الوقت الذي يلزم لأتطلع في الأشياء حولي مثلما يفعل المغادرون، أو المطرودون. ثمّ توّاً إلى الباب الذي تبعتْني إليه لتقف عنده، مفتوحاً قليلاً، منتظرة وصول المصعد إليّ.

وقد ظلّ تساؤلي عن تلك الليلة يلاحقني طوال ما فات من سنوات: ما الذي جرى حتى أبعدتني عنها، بأيّ شيء أخطأتُ، أو على الأصحّ ما هو الخطأ الذي رأته فيّ، والذي تبدّى لها هكذا فجأة؟ كما أنّي بقيت لا أفهم تلك الابتسامة على شفتيها كلما التقينا على الدرجات النازلة إلى الكافتيريا أو الصاعدة إلى الصفوف. هل هي تستعيد، هنا على الدرجات، خطئي تلك الليلة، أو الخطأ الذي فيّ؟ ابتسامتها تلك، بشفتيها المضمومتين المزمومتين من أحد طرفيهما، هل هي مجرّد حركة تقوم بها الشفتان من تلقائهما، ومن دون استجابة لما يكون جارياً في الرأس؟

كان يوسف قد قال لي آنذاك، ونحن خارجان من بوّابة الكلّية، إنّنا لا نفهمهنّ:

– ما منفهم ليش بيقولو لأ وأيمتى بيقولو إي.

– كلّ البنات هيك، أجبته.
– لا... هاو البنات ما بيعرفو شو بدهنّ.

هناك في الويمبي سنة 1980، في ذلك اللقاء العابر وغير المنتظر، لم تترك لي مجالاً كي أعرف إن كانت تريدني حقاً أن أبقى على المقعد قبالتها. لم نتكلّم آنذاك بغير تلك الكلمات السريعة عن زحمة السير وعن صعوبة الوصول إلى شارع الحمرا. وحين قلت لها للمرّة الثانية إنّ عليّ أن أقوم لم تردّ بأكثر من هزة رأس لامبالية. كأنّها تقول، بتلك الإيماءة، «بلى»، إنّها سمعت أنّي سأقوم.

«حتى آنذاك، في سنة 1980، كانت تبدو كبيرة»، قلت لسهير التي أصرّت على أن تريني كيف صارت وداد الآن، وهي تتقدّم فعلاً نحو عمر الخمسين. «لازم تشوف كيف هيّي» قالت لي فيما هي تقوم من وراء مكتبها محدّقة بشاشة هاتفها المحمول مقلّبة بإصبعها الصور التي حفظتْها فيه. «كانت هون» راحت تقول متوتّرة فيما هي تبحث عن الصورة، لكنّها ستجدها، كما ظلّت تردّد، لا بدّ ستجدها. ثمّ، فجأة، خطت تلك الخطوة الأخيرة نحوي. لقد عثرتْ عليها: «انظر»، قالت لي، مقرّبة شاشة الهاتف إلى وجهي. بدتا في الصورة واقفتين معاً هي ووداد. أمّا ما كانت تريدني أن أراه فليس فقط تلك الغضون، التي ازدادت عمقاً وقساوة على وجه وداد، بل الحجاب أيضاً، ذاك الذي يغطّي سواده القسم الأكبر من جبينها وينحدر من طرفيه ليبقي فقط تلك الدائرة الصغيرة ظاهرة من وجهها. هو ذاته الحجاب الذي ترتديه نساء القرى، القديمات، وقد أفلح هنا في أن يُظهر وداد واحدة منهنّ لا تختلف عنهنّ في شيء. لكنّ سهير، التي أدركت ما يمكن أن أفكّر فيه، أسرعت إلى

تنبيهي بأنّ «وداد من زمان عملت مسلمة». كنت أعرف ذلك من قبل، لكنّني كنت أحسبه خياراً مؤقتاً، أو مرحلة من مراحل التغيّر التي مرّت على كثيرين، ولن تصمد طويلاً.

«الكلّ بيفكّرو إنّها أكبر منّي بكثير»، قالت سهير كأنّما لتدعوني إلى أن أزيح نظري إلى حيث هي في الصورة، لكي أجري المقارنة بينها وبين وداد التي «ما حدا بيعرف ليه عم تعمل هيك بحالها».

– بعدِك بتشوفيها؟

– هاي الصورة مش من زمان، يمكن أقلّ من شهرين.

– ورح ترجعي تزوريها؟

– هيّ بتتّصل فيّي، وإذا كان ما عندي شي بروح لعندا.

– وهي ساكنة بعيد؟

– بعيد، ساعة ونص أو أكتر بالسيّارة، حسب العجقة.

كنت أعرف أن زيارتها التي خطرت لي هي من الرغبات العابرة السريعة الزوال. كنت حذراً بسؤالي سهير، وأنا أعيد لها التلفون، إن كانت تحبّ أن نزورها معاً. وهي، على أيّ حال، لم تكن أقلّ حذراً منّي: «شي يوم، منتّصل ببعض إذا بدّك». بل إنّها جعلت تلمّح إلى صعوبة الرحلة. ليس الطريق، بل الجزء الأخير منها... من مدخل المخيّم إلى البيت الذي تسكن وداد فيه.

ولم أكن في حاجة إلى أن أُعمل خيالي كثيراً حتى أتخيّل كيف هو بيتها: الأثاث القليل ذاته، المتقشّف الذي يمكن أن تعتبره سهير مساوياً لبيوت ساكني المخيّم: وسائد وأرائك مصطفّة لصق الجدران وسرير في الطرف، ثمّ، لا بدّ، تلك اللمسة التي تدلّ، رغماً عنها، إلى الاختلاف الذي ما زالت تحمله سهير من العمر الذي سبق اتّخاذها قراراتها بتغيير حياتها: أشياء مثل قطع تزيين صغيرة

وضعتها، كما أتخيّل، على سطح مكتب صغير، ثمّ لوحتين أو ثلاث غريبة الرسم معلّقة على الجدار، وهي الأشياء التي لا أعرف إلى أيّ حدّ سيرى زوّارها من ساكني المخيّم أنّ جارتهم مختلفة عنهم.

* * *

نحن لا نفهمهنّ وهن لا يعرفن ماذا يردن، كما قال يوسف. لا يفكّرن مثلما نفكّر ويجعلننا نطيل التساؤل عن كلّ شيء يفعلنه. حين شاهدتها بعد أسبوعين أو ثلاثة من ذلك، هناك في الكليّة، مسندة ظهرها إلى حائط الممشى منتظرة الشابّ الذي رأيته مقبلاً نحوها، فكّرتُ أنّها تعاود غوايتها مرّة أخرى. كانت قد انتبهت إلى مروري من هناك، لكنّ ذلك لم يبدّل شيئاً ممّا كانت قد تهيّأت لأن تفعله. فجأة، فيما أبقت ظهرها مسنوداً إلى الحائط، قرّبت إحدى رجليها، لحظة وصول ذاك الشاب إلى حيث تقف.

– ما فيك تمرق.

قالتها غير آبهة أن أسمعها أنا أيضاً. لكنّني لن أعرف ماذا سيحصل في لقائهما، فقد كان عليّ أن أكمل طريقي، وبسرعتي ذاتها. «هذا هو...» قلت ليوسف حين ظهر ذلك الشاب بعد أيّام داخلاً، وحده، من باب الكافتيريا. «أكيد إنت عم تفكّر إنّك أحسن منّو»، أجابني يوسف وهو يرجع نظره إليّ. «وإنت شو رأيك» سألته لكي يُجري هو هذه المقارنة.

ولم يكن ما شعرتُ به غيرة خالصة، إذ غلب عليّ التساؤل كيف أنّها تختار شابّاً قد ترفضه البنات العاديّات في الكليّة. حتى حين تخيّلته، هناك حيث كنت أنا من قبل، ذاهباً معها إلى أبعد ممّا

ذهبت، مقرّباً فمه من فمها أو منحدراً بيده إلى ما تحت قميصها، وجدتني أشعر بالخيبة أولاً. الخيبة إذن لا الغيرة، أو الخيبة قبل الغيرة، بل رحت أعاود، مرّة أخرى، التفتيش عمّا هو منفّر فيّ، ذاك الذي انكشف لها حين صرت على ذلك القرب منها.

* * *

في زيارتي التالية لمكان عملها قالت لي سهير إنّني أعود من جديد إلى السؤال عن أخبار وداد. وأنا كنت أستطيع أن أجيبها بأنّي أسأل هكذا، لأنّنا تكلّمنا عنها في المرّة الماضية وإنّني الآن تذكّرت ما كانت قالته هي لي. وكان ذلك صحيحاً كجواب، وينبغي أن يكون كافياً لسهير التي، رغم ذلك، أراها ترسل لي تلك النظرة المعابثة المتشكّكة قبل أن تنقل نظرها إلى الأوراق على طاولتها.

لم يكن مناسباً، عندها في المكتب، أن أجيب بما يصعب عليّ أن أصوغه بكلمات واضحة قاطعة. ذاك لأنّي، أنا نفسي، لا أعرف لماذا أجدني راغباً في الالتقاء بوداد بعد هذا الانقطاع الطويل. هل لأحاول معها مرّة أخرى، باذلاً ذلك القدر من التخيّل، أو التذكّر، كي أمسح عن وجهها غضونَه وأحجبتَه، مدركاً في الوقت نفسه أنّ ذلك الجهد سيرجعني كلّ مرّة إلى بدايته، عائداً بي إلى ما هي عليه الآن؟ أو هل ما يجعلني راغباً في لقائها هو توقي لأن أنتقم من رفضها لي في تلك الليلة، ومن لامبالاتها بي بعد ذلك؟ أو هل أنا، ذاهباً بالتشفّي حتى آخره، أسعى إلى أن أضع نفسي في مقابلها لترى كيف كنتُ آنذاك حين أخرجتني من بيتها، وكيف كانت هي، وأين أصبح الآن كلّ منا؟

– على الأقلّ عطيني رقم التلفون؟

– برأيَك مش لازم إسألها قبل؟

– طيب اسأليها، احكيها هلّق، أنا وهون.

– بْفَضّل ما تكون إنت حدّي، قالت رافعة حاجبيها جاعلة ما سمعتُه أشبه بسؤال أعرف جوابَه.

تتخبّط في تساؤلها لماذا أصرّ على الاتّصال بوداد، مثلما أتخبّط أنا حيال رغبتي في أن أذهب إلى حيث تقيم، هناك في المخيّم البعيد. ما تريد أن تعرفه هو إن كنت أرغب حقاً في وداد، وهي، على أيّ حال، ستظلّ تدير هذه المفاوضة، بحنكتها وتمنّعها، من أجل أن تحظى بجواب. وها هي، بعدما كنّا توقفنا لدقيقتين عن ذلك، عادت لتقول:

– طيّب إذا سألتْني، هيّ وداد، شو بدّو، شو بجاوبها؟

– قولي لها مغرم، أجبتُ منكِّتاً، ومخفّفاً من جديّة مقصدي حيال الأمر كلّه.

* * *

أعرف أنّني أستطيع أن أحصل على رقم الهاتف من دون مساعدة سهير. لكنّني أعرف أيضاً، بمعاودتي طلبه منها، وانتظاري لما تردّ به في كلّ مرّة، أنّني أختبر نفسي إن كنت حقاً أريد أن أعود لألتقي بوداد. ما كنت أريده من سهير ليس أن تقول لي «نعم» أو «لا» قاطعتين، بل أن تبقى في الوسط بينهما، متردّدة، متقدّمة خطوة نحو هذه أو آخذة بي خطوة نحو تلك. لهذا ربّما وجدتني قابلاً على الفور بما عرضه عليّ ماهر، وهو ممّن كانوا يتنقّلون بين الطاولات في الكافتيريا. قال لي إنّه لم يرَ وداد «من زمان» بحسب تعبيره، لكنّه يعرف عنها من صديقتها الأقرب إليها. هما الصديقتان،

قال مشدّداً على «ال» التعريف ومؤكّداً ما يعنيه بإلصاق سبّابتيه إحداهما بالأخرى ليثبت أنّهما ملتصقتان هكذا. «أنت تعرفها على الأرجح»، قال، فقد كانتا صديقتين وهما في الكلية: «... بوليت... بوليت، أكيد بتعرفا!».

كان هذا مناسباً. لا أذهب توّاً إلى وداد بل أستبق ذلك بالانعطاف إلى حيث بوليت. بذلك أتقدّم خطوة نحو الذهاب تكون بمثابة محطة انتظار أستريح فيها ثمّ أقرّر بعدها إن كنت سأتابع طريقي. «على كلّ حال اتركها عليّ... اتركها عليّ...» قال ماهر فيما هو ينهض بخفّة لأرى أنّه سيكون هكذا، خفيفاً وسريعاً في تنفيذ ما يعد به.

في المساء اتّصلتُ به:

– هيدي بوليت، غريب كيف إنها كانت بالكليّة وأنا ما بعرفها.

– وأنا كمان تعجّبت، بس بعدين فكرت إنو قليل ما كانوا يزوروا الكليّة مع بعض.

– ليك، شكلها كيف؟

– مين؟... بوليت؟ سأل، ومن دون أن ينتظر جواباً أكمل أنّها «وسط».

أمّا أوصافها التي جعل يعدّدها، متردّداً إزاء كلّ واحد منها، فلم تفلح في أن ترسخ على أيّ من الوجوه التي راحت تتوالى في رأسي.

– على كلّ حال رح تشوفها، وأكيد رح تتذكّرها.

على رغم سرعته في تأكيد كلّ شيء راقني كلام ماهر عن الصداقة بين وداد وبوليت، تلك التي لا تحتاج منهما أن تلتقيا. أعجبني ذلك، إذ أضاف سرّاً آخر إلى ما لا أفهمه عن وداد.

وقد ظلّ ماهر على حماسته. حين اتّصل بي في صباح اليوم التالي كان قد أتمّ المهمّة التي وعد بإنجازها. «اليوم إذا بدّك» قال بصوته المستعجل الرفيع. «بهالسرعة؟!» أجبته، إذ إنّني، أنا نفسي، كنت محتاجاً إلى فترة انتظار لأصير مستعدّاً. «مش مهم، بوليت جاهزة، ولما بدّك فينا نروح».

* * *

كان وجهها مألوفاً غير أنّني، رغم ذلك، لم أعرف إن كنّا التقينا من قبل. وهي، مذ ظهرتُ لها، وقبل أن ينطق ماهر بكلماته الأولى، جعلت تحدّق بي لترى إن كانت ستعرفني من تلقائها. وإذ بدا أنّها لن تصل إلى شيء، استعانت بي:

– أنا بعرفَك؟ سألت مستمرّة في التحديق بي.

– مع إنو ما كان يترك الكليّة، علّق ماهر صارفاً النظر عن كلمات التعريف بي، تلك التي لا بدّ أنّه ذكرها في كلامه معها على التلفون.

– أنا ما كنت روح كتير، قالت ثم انتظرت لحظات قبل أن تدير نظرها إلى ماهر كأن ليقرّر عنها إن كان علينا أن نجلس.

– تفضّل... تفضّل، قال لي، وأتبع ذلك بمدّ يده نحو كنبة صغيرة الحجم مغطّاة ببساط باهت الألوان.

– وأنا رح أقعد هون، قالت مشيرة بإصبعها إلى مقعد جلديّ منخفض، وبعد أن خطت خطوتها الأولى نحوه، أدارت رأسها إلى حيث لا يزال ماهر واقفاً: «وإنتَ؟».

– أنا بدبّر حالي...

مثل تلميذات المدارس الصغيرات، وضعت كفّيها متعاكستين على ساقيها، وجعلت تنظر إلى ماهر لتعرف أين سيجلس. وحين اطمأنّت إلى ذلك اتّجهت بنظرها إليّ:

– كنّا نغيب كتير عن الكليّة... أكتر من نصّ الدروس ما كنت إحضرا.

– كلّنا هيك، قال ماهر قبل أن يضيف، مشيراً إليّ، أنّني لم أحضر حتى ربع الصفوف.

ابتسمتْ غاضّة بصرها مثلما يفعل من أخجَلَه شيء، ثمّ أبقت عينيها ناظرتين إلى كفّيها المتعاكستين على ساقيها.

– ما صارلي زمان بهيدا البيت، قالت خارجة من لحظات الصمت القليلة التي أعقبت. وإذ بدا أنّ ذلك لم يلقَ تعليقاً، أضافت، معلية نبرتها ومقدّمة وجهها إلى الأمام:

– ماهر هوّي اللي دلّني على هون.

ربّما عليّ أن أتلفّت حولي لأقول شيئاً عن البيت. كانت غرفة الجلوس صغيرة لكن هناك غرفة أخرى ملتصقة بها تتدلى من فتحة مدخلها خيوط مشكوكة بخرز ملوّن. حين رأتني أنظر إلى الباب في وسط الحائط إلى جانبي قالت: «غرفة النوم»، قاصدة غرفة ثالثة، تلك التي وراء الباب.

لم أجد شيئاً أقوله، لكنّني تركت لأول كلام خطَر لي أن ينزلق من فمي:

– وين كنتِ ساكنة قبل؟

– قبل المستشفى؟ سألتْ وهي تلتفت إلى ماهر لتعرف منه بماذا عليها أن تجيب، فأطرق برأسه مجيباً بـ«بلى» مرتبكة.

– قبل المستشفى كنت ببيت خيّي. هوي اليوم عايش بفرنسا.

المستشفى! لم يكن ماهر قد أخبرني عنها. لم يرَ حاجة لذلك ربّما، لكنّه بدا الآن، بتلك النظرة السريعة المتواطئة إليّ، كأنّه يعدني بأنّنا سنتحدّث عن هذا في ما بعد.

لكنّها استبَقت ذلك. قالت إنّها بقيت هناك أربعة أشهر، ثمّ صحّحت ذلك في اللحظة التالية: «أقلّ شويّ، يمكن تلات شهور ونصّ». عندها أضاف ماهر أنّها «كانت مريضة»، مفترضاً أنّه، بتعليقه الذي لم يُضف شيئاً، يستلحق ما كان يجب أن يخبرني به من قبل.

وكان ذلك ظاهراً، لا على جسمها المتعب القليل فقط، بل من شرودها وانتظارها موافقة ماهر على ما ستقوله.

– هونيك كنت لوحدي، ما كنت بقيت لو هو كان هون مع ولادو ومرتو. هيّي gentille بس je ne peux plus supporter les enfants.

– بعدِك ما ضهرتي ولا مرّة من البيت؟ سألها ماهر من أجل أن يحوّل الكلام إلى ما جئنا أنا وهو من أجله.

– لا، بقعد على البلكون، قالت.

ثمّ التفتت إليّ، مستأنفة كلامها عن البيت:

– عندي بلكون كمان، حدّ الأوضة جُوّا. زغير بس بيطل على أرض خضرا... زغيرة كمان.

– وعم تشوفي الأصحاب؟

– قصدك وداد؟ إجت لهون على هيدا البيت مرتين. بس بنحكي بالتلفون. وبعدين بتبعتلي des trucs مع محسن شوفير التاكسي.

– وإنت بتروحي لعندا؟

– هلّق...؟ واللا قصدك قبل؟

– هلّق أكيد لأ، قصدي قبل.

– كنت روح، بس مش كتير. بعيد بيتا، بعدين هونيك محلّ ما هيّ ساكنة في عجقة كتير ووحل على الطريق... إنتَ بتحبّ تشرب قهوة، قالت فجأة، مقاطعة نفسها عمّا كانت تقوله. وأنا لم أجب. تركتُ ذلك لماهر الذي أشعره ذلك بالإرباك، لظنّه ربّما أنّ عليه هو أن يعدّ القهوة. لكنّه، بعد أن كان أنهض جسمه قليلاً، مبدياً استعداده لذلك، سألني، ليحظى منّي بحجّة ليعود إلى جلوسه: «عبالك القهوة؟».

– إنت بدّك تروح لعند وداد؟ سألتني قافزة عن موضوع القهوة.

– كنّا بنعرف بعضنا زمان، وجايي على بالي شوف كيف أحوالها.

– Tu étais amoureux d’elle.

قالت ذلك مبتسمة ومتّخذة هيئة الملاعبة. لكنّها مع ذلك بدت، هذه المرّة أيضاً، كما لو أنّها تنتظر جواباً. كان يمكن أن يعلّق ماهر بأيّ شيء، بأيّ مزحة، ليتجاوز سؤالها لكنّه، بدلاً من ذلك، أخذ يبدو، هو أيضاً، كأنّه ينتظر بماذا سأجيب.

لم أقل شيئاً، وهي على أيّ حال لم تتأخّر عن توجيه سؤالها التالي:

– بدّك تشوفا؟

– بدي أعرف كيفها قبل، شو بتعمل...

– أنا بظنّ إنو شايفِتَك قبل، يمكن شي مرّة أو اتنين. إنت ما تذكّرتني أبداً؟

– يمكن، من الأوّل قلت إنو باعرف وجِّك.

– يمكن، على كلّ حال مرق وقت كتير.

وإذ سكتت بعد ذلك، أعادها ماهر إلى سؤالي عن وداد.

– إيه، وداد. تغيّرت، قالت كأن من دون أن تفكّر.

ثمّ، فيما هي تستعيد تركيزها، راحت تشير بيديها الصغيرتين راسمة الحدود التي تفصل بين وجه وداد وحجابها:

– ما بفهم ليه عمْلِت هيك؟ مش لإنو عملت مسلمة، هيدا ما بتفرق معي... أنا مشّ متْدَيّنة... وحتى ما بحبّ المتديّْنين. بقلّك، قالت مقرّبة أعلى جسمها ومغيّرة نبرة صوتها بما يتناسب مع السرّ الذي سوف تفشيه للتوّ: كمان وداد مش مؤمنة، أنا هيك بعتقد، ولا مسلمة.

– شو عرّفك، قال ماهر كأن ليثنيها عن الاستغراق في ما تحكيه.

– عَرَّفْني إنها ولا مرّة قرْيت القرآن. حتى يمكن ما بتعرف تقرا فيه، قالت فيما يدها تخرطش في الهواء لترينا كيف هو الخطّ القديم الذي لن تحسن وداد قراءته.

– طيّب ليش تحجّبتْ بتعتقدي؟

لم تجب. كأنّها انتبهت إلى أنّها انزلقت إلى ما لا تحبّ أن تتكلّم فيه. بل بدت محتاجة إلى لحظات استراحة تنتظر خلالها أن ينتقل الكلام إلى شيء آخر.

وهذا ما بدأت هي به:

– طيّب أنا شو لازم أعمُل هلّق؟ سألت راجعة إلى ما جئنا من أجله.

* * *

كأنّها، بسؤالها ذاك، كشفت عن جانبٍ صاحٍ في شخصيتها تستطيع إنهاضه حين تحتاج إليه. لم أعرف بماذا أجيب. لم أكن أنتظر أن يُطرح عليّ السؤال واضحاً مباشراً هكذا. صَمَتٌّ. وحين

نظرتُ إلى ماهر بدوت كأنّي أستنجد به. لكنّه، بدل أن يقترح شيئاً، ردّ بما يبقي السؤال عندي:

– بشو لازم بوليت تساعدنا؟

كان مخجلاً أن أردّ، مثلاً، بأنّ ما أحتاج إليه هو رقم هاتف وداد، أو عنوانها في ذاك المخيّم. كان يمكن أن أحصل على ذلك من دون قيامنا بهذه الزيارة، وطلب موعد يسبق القيام بها. لكن، لكي لا أبدو غير عارف لماذا جئت، عليّ أن أردّ بما يفاجئ:

– كنت عم فكّر إذا بتحبّي نزورها سوا؟

– أنا؟

أومأتُ برأسي أن بلى، أنتِ.

– أنا وإنتا؟

– أنا وإنتِ... وماهر إذا بيحبّ.

منذ وصولنا إلى هنا لم يتوقف تساؤلي عن نوع العلاقة التي تربط بينهما هو وبوليت. حيناً رحت أفكّر أنّها مجرّد معرفة باقية من وقت سابق، وحيناً أقول إنّه يؤدّي لها خدمات من تلك التي يؤدّيها ذاك الذي اسمه محسن، والذي يقوم بدور البريد بينها وبين وداد. أو ربّما هي علاقة غرامية قديمة لم يفصح لي عنها، وها أنا أعود إليها مع قولي المتسائل: «... وماهر إذا بيحبّ»، جاعلاً إيّاه يظنّ أنّني أبعده لنكون أنا وبوليت وحدنا.

– صعبة، يمكن لازم ننطر حتى صير قويّة. قالت فيما هي تلوي رأسها لأفهم أنّ الزمن الذي عليّ أن أنتظره ليس قريباً.

* * *

هي زيارة واحدة، أو جلسة واحدة، لن يعود ماهر من بعدها وسيطاً بيني وبين بوليت. ها أنا أدير له ظهري هو أيضاً، مثلما فعلت مع سهير من قبله. ولن أنتظر وساطة جديدة مع شخص جديد. سأكمل وحدي ما كنت بدأته في زيارتي لبوليت. لن أكتفي بالقليل الذي عرفته منها، ولا بالقليل الذي عرفته عنها. لا أقصد تلك الأسرار التي من السهل كشفها، فهي كانت ستجيبني إن سألتها عن رقم هاتف وداد أو تعطيني رقم ذلك الذي اسمه محسن ليدلّني على الطريق التي توصل إلى بيتها. ثمّ إنّني كنت سأعرف بنفسي ربما، ومن دون أن أسأل، أيّ علاقة تربط بينهما هي وماهر.

ما كنت أريد أن أعرفه هو الإجابات عن كلّ ما تركَه كلامها معلّقاً. ليس فقط عن تلك الإقامة الطويلة في المستشفى، ولا عن تلك الصداقة الباقية مع وداد، المقتصرة الآن على ما يأتي به محسن. أريد أن أعرف أيضاً كيف أمكنها أن تتجاوز ضراوة السنوات الماضية على رغم افتقادها أيّ قوّة. هذا ما رحت أفكّر فيه كلما نظرت إلى يدها التي ظللتُ أُطبق أصابعي على باطن كفّي مرّة بعد مرّة لأتذكّر كم بدت صغيرة فيه حين صافحتها. كيف أمكنها النجاة من كلّ ما مرّت به رغم السذاجة التي عرفناها لديها ولدى من كنّ مثلها في الكليّة. السذاجة التي تجعل كلّ الكلام أسئلة، أسئلة فقط. «ماذا علينا أن نفعل الآن؟» تسأل ماهر بعد ثوانٍ قليلة من دخولنا إلى بيتها. وأخذت تنظر إليه هو لتعرف ماذا تجيب عن مكان سكنها، قبل المستشفى أو بعدها. هكذا كنّ في الجامعة. يسألن عن كلّ شيء، حتى إن قال أحدهم، مسترجلاً أو مستعرضاً، إنّه سيحبس عميد الكليّة في مكتبه. «عن جدّ بدو يحبس العميد؟»

يسألن، فنجيب، كأنّنا وحدنا عرفنا هذا العالم الذي ولدن هنّ أيضاً فيه.

* * *

– إنتِ بتعرفي بوليت؟ سألتُ سهير.

– مين بوليت، سألتْ، لكن كأن لتمهل نفسها لحظات لتتذكّر: «إيه... بوليت، شفتها؟».

– شويْ، يمكن شي نصّ ساعة، قلت غير متخلّص بعد من نبرة الفوز لكوني أكملت طريقي وحدي ولم أعد محتاجاً إلى مساعدتها.

– كيف هيّي؟

– كويسة، بس أنا ما بتذكّر إذا كنت بعرفا من قَبل.

– قعدِتْ كتير بالمستشفى... كانت كتير مريضة.

ها هي تستدرجني لأسأل، من أجل أن تستعيد دور العارفة بكلّ شيء.

– إي. بقيتْ شهور.

– شوَّفِتَك شغلها بالسيراميك؟

– لا، ما شفت، ولا هيّ قالت، على كلّ حال ما بقينا أكتر من نصّ ساعة.

– الهيئة ما كنت لوحدك؟

تريد أن تعرف، أن تعرف حتى ما لا تفيدها معرفته.

– وعطيِتَك رقم التلفون؟

– مش محتاجو، ما طلبتو.

– على كلّ حال صار فيني أعطيك ياه.

– هلّق صار ممكن؟
– يعني، على كلّ حال إنتَ ما عدت متّكل عليّي...

* * *

ليس أنّني لم أتعرّض لأن أُرفَض من أخريات كثيرات، قبل وداد وبعدها، لكنّني كنت أمرّر ذلك، واجداً لكلّ فشل سبباً. هذه المرّة أنا استعجلت، كنت أقول، والخطأ هو خطئي. أو أقول، عن فشل آخر، إنّني تأخّرت، فقد كان عليّ ألّا أنتظر لأتأكّد من أنّ تلك النظرات كانت مرسلة إليّ عن قصد. أو، في مرّات أخرى، كنت مدركاً أنّني أُجازف محتمِلاً أن أصيب أو لا أصيب.

وحدها تلك الحركة المفاجئة، الآمرة، من يد وداد، بقيت متعلّقة بي. ثلاثون سنة مرّت على تلك الليلة ولم أنته من صدمتها بعد. يخطر لي أحياناً أن ذلك راجع إلى أنّني، في تلك المرّة، لم أُرفض لسبب أمكنني فهمه أو معرفته. ظلّ ذلك سرّاً لم تُظهر هي أيّ إشارة يمكن أن تساعدني على كشفه. ثمّ تلك السرعة في إغلاقها الصفحة، صفحتي، بينما كانت قبل تلك الليلة تجعلني أرى، مع كلّ نظرة تأتيني منها، أنّني أحقّق فوزاً سيوصل حتماً إلى علاقة طويلة.

كأنّني لم أصدّق أنّها لم تعد تريدني. حتى حين رأيتها تعترض طريق ذلك الشابّ، وأنا على مسافة خطوات منهما، لم أكن مصدّقاً أنّها أنهت كلّ ما بيننا. لم تكن لتفعل ذلك أمامي على الأقلّ. حتى لو أنّهما تركا ذلك المكان مترافقين، بل حتى لو التقيا في اليوم التالي، أو في اليوم نفسه، هناك في تلك الشقة ذاتها، فإنّ هذا لا يعني أنّه هو الذي استبدلتني به. كان يخطر لي في أحيان أنّها

تعاكسه من أجلي، من أجل أن أراها تعاكسه. أعرف أنّ محمّد صافي، لو كان لا يزال حاضراً للاستماع إليّ، كان سيقول: «هيّي شغلة وخلصت...». مكرّراً عليَّ ما قاله يوم كان صالح غير مصدّق أنّ ما حظي به من كاتيا انتهى من ساعة ما بدأ. لست مثل صالح، كنت سأجيبه، إذ إنّ ما جرى بيننا أنا ووداد، قبل ذهابنا إلى تلك الشقّة، كان حقيقياً، ولم يحدث مثل نكتة. أعرف ذلك من نظرات وداد القلقة، تلك التي كانت توقفها حين تقع عليّ من بين المزدحمين في الكافتيريا. أعرفه أيضاً من خروجنا معاً من بوابة الكليّة، ومن صمتنا على الطريق التي قطعناها لنصير مطلّين على البحر، ومن التقاء يدينا وتشابكهما ونحن بعد صامتان حابسان الكلام... ذلك لا ينهيه شيء خطَرَ لها في لحظة.

* * *

كنت سأقضي أسابيع محاولاً الاهتداء إلى طريقة للاتصال ببوليت، مصرّاً على أن تكون من دون توسّط ماهر الذي لن يكتفي بأن يسبقني إلى التكلم معها بالتلفون بل سيظلّ معي، مرافقاً إيّاي إلى بيتها. فكّرت أن أذهب إليها بمفردي، مفاجئاً إيّاها، لكن مكيّفاً ما أقوله بحسب ما ستكون ردّة فعلها. كأن أقول لها مثلاً إنّ أحداً أخبرني عن شغلها بالسيراميك، وها أنا جئت لأرى. أو أقول إنّني كنت مارّاً من هنا فخطر لي أن ألقي التحيّة. سيناريوهات عدّة، أو أنصاف سيناريوهات كنت أعرف أنّها ربّما تنتهي إلى الفشل كلها. لكن فيما أنا أتأرجح بين الاحتمالات، مؤجّلاً ما أفكّر فيه إلى اليوم التالي، أتى صوت بوليت من سمّاعة التلفون مفاجئاً ومعفياً إيّاي من كلّ ذلك:

– آلو، إنت حسان؟
– أهلاً أهلاً، قلت مرحّباً ومرتبكاً.
– أنا بوليت.
– عرفْتِك أكيد، ولَوْ...
– أخدت رقمَك من ماهر.
– عم تشوفيه؟ أنا ما شفتو من يوم ما كنّا عندِك.
– ولا حكيتو؟
– ولا حكيتو.
– يمكن إنت مشغول... وأنا كمان عم إشتغل الصبح، شي ساعة أو ساعة ونص... حَسَب.
– يعني عم تحسّي حالك أحسن؟
– مع الدوا بحسّ أحسن.

من قبْل أن ترفق سهير حكيها عن مرض بوليت بتلك النظرة التي تختبرني إن كنت أعلم بذلك، والقاصدة في الوقت نفسه أن تُبلغ شيئاً، كنت أتساءل عن المرض الذي يحتاج علاجه إلى البقاء في المستشفى لتلك الأشهر. منذ البداية، منذ أن أرّخَت بوليت سكنها بين ما قبل المستشفى وما بعدها، ذهب حدسي إلى تلك المستشفيات التي تعالج مرضاها بالعقاقير المهدّئة والإقامات الطويلة.

– بعدَك عم تفكّر تزور وداد؟
– بس مش لوحدي، قلت متقصّداً المعابثة، على رغم المرض والدواء.
– أنا كمان جايي على بالي. عم إتّصل بالدكتور بركات حتى إسألو إذا فيني، بسّ هوي مسافَر، بْيِجي التلاتا قالتلي تيريز

السكريتيرا.

– بدّكِ بالويك أند؟

– أنا بدّي، بس انشاللا يقبل الدكتور.

– على كلّ حال مش رح تتعبي بالمشوار... مش رح تَعّْبِك.

– لا، أنا منيحا، امبارح... لأ... قبل، avant-hier، رحت عالجمّيزة.

– لوحدِك؟

– لوحدي، رحت عا «بول». بتعرفو؟ هوي مش بعيد.

– وكيف كان؟

– حلو، طلبت tarte au citron، بحبّا كتير. بس ما كمَّلْتا.

ثمّ قالت، ضاحكة، إنّها طلبت من الغارسون أن يضع لها ما بقي من قطعة التارت في علبة لتأخذها معها، وإنّ الناس، على الطريق، «يمكن صاروا يفكّروا في شي مهمّ بالعلبة»، وأضافت وهي تكمل ضحكها: «تسلّيت، بس تعبت. لو كانت الطريق بعيدة كنت طلعت بتاكسي. قلت شو بدو يقول الشوفير إذا قلتلّو قديه البيت قريب. يمكن يِضَّحّك عليّي».

* * *

ظلّت ضحكتها تتردّد في رأسي بعدما أنهت اتّصالها، وكذلك ظلّ مشهدها على الطريق وهي تحمل، بيدها الصغيرة، ذلك القليل الذي تحتويه العلبة. خطواتها القصيرة أيضاً، التي لا بدّ صارت أبطأ وأقلّ ثباتاً بعد أن أتعبها المشي، ثمّ شعرُها، القصير، المتفرّقة خُصَلُه كأنّه قُصّ ولم يجرِ فيه المشط بعد.

لم تَعِد بشيء، حتى بعد عودة الدكتور بركات. لم تعيّن اليوم الذي يمكنها أن ترافقني فيه. ربّما أعجبها أن تنهي اتّصالها بتلك

الضحكة، القليلة هي أيضاً. لكنّها تركت رقم هاتفها مكتوباً على شاشتي، وهي تعلم ذلك. أستطيع إذن أن أتّصل بها الآن، فوراً، متذرّعاً بانقطاع الاتّصال معها. لكنّني لن أفعل، فأنا أيضاً أريد أن ينتهي الكلام حيث انتهى. أقصد مع تلك التعليقات المرحة عن التاكسي وعمّا بقي من قطعة الكاتو في داخل العلبة، والتي قالتها بطريقة الكلام الباقية من أيّام ما كنّا في الكليّة. هذه كانت نكاتهنّ، هنّ اللواتي مثلها، أو مثل وداد، آتيات إلى الكليّة من مدارس كنّا نقف عند بواباتها لنتفرّج عليهنّ وهنّ خارجات، ولنسمعهنّ يكلّمن بعضهنّ بعضاً بالفرنسية.

تعرف أنّها أبقت رقم هاتفها مسجّلاً على هاتفي، وإن كان ذلك لا يعني أنّها رسمت خطّة تعرف معها ماذا ستكون الخطوة التالية. وأنا لن أكون، بذلك الرقم الذي سأحفظه إلى جانب اسمها، كأنّني غنمت شيئاً. ذاك أنّني، معها، لست في منازلة أجمّع لها أوراقاً أستخدمها وقت ما يحين أوانها. هي ليست مثل سهير التي تحبس رقم التلفون لكي تفاوض على الوقت الذي ستفرج عنه فيه. ثمّ إنّي أحبّ ما أشعر به نحو بوليت، المتعَبَة، الضعيفة من المرض والتي، لا بدّ، تحتاج إلى قوّة يمدّها بها أحد.

* * *

– جاوبتني تيريز، قالت إنو الدكتور بركات بيقبل إنّي روح.

كان ذلك بعد حوالى أسبوع من اتّصالها الأول. قالت إنّه لم يشأ أن يوافق على ذلك إلّا بعد أن يعاينها، هناك في عيادته. «كمان رحت لوحدي» قالت، مذكّرة إيّاي بذهابها إلى ذاك المقهى.

– إنت بعد جايي على بالك تروح؟

– أنا حاضر. بدِّك بالويك أند؟

– يعني بعد كم يوم؟

– يعني يوم، أو يومين. إذا بدِّك بعد بكرا، بيكون السبت.

أعجبها أن يكون الوقت قريباً هكذا. بدا لي أنّي أكاد أرى ابتسامتها فيما تسألني إن كان عليها أن تتّصل بوداد لتبلغها بمجيئنا. تركت لها أن تقرّر. «يمكن حلو إنو نعملُّها سوربريز» قالت، لكن من دون أن تبدو أنّها متأكدة من ذلك. «أوكي، BIEN، خلّينا نشوف».

– خلص، بعد بكرا أكيد. أنا رح كون عندِك الصبح. تسعة منيح؟... أو عشرة؟

– متل ما بتحبّ. شوف، أنا هون بالبيت ساعة اللي بتجي أنا بكون ناطرتك.

الفصل الرابع

بعد رجوعه من حيث كان واقفاً هناك على الصخرات، لم يُطل يوسف بقاءه معنا ولم يعد إلى تناول ما بقي من غدائه في طبقه. قال إنّ عليه أن يذهب الآن، وفيما هو يقوم نظر إلى حيث أُوقفتْ سيّارته الكبيرة العالية السطح وسأل، مكلّماً نفسه، إن كان الشباب جاهزين لمرافقته.

كانوا قد تُركوا معه، هم الثلاثة، رغم أنّه لم يعد بحاجة إلى أن يُحاط بمرافقين. قال شوقي وهو ينظر إليه ليرى كيف سينزل عن الحافة الباطونية التي في علّو درجتين أو ثلاث درجات، إنّ المرافَقَة رتبة ينبغي أن يظلّ مَن أُعطيت له محتفظاً بها. لم يتأخّر يوسف عن النزول عن الحافة بعدما أمسك به أحد الثلاثة من يده، ليتوازن. ثمّ، بعدما استقام في وقفته وهمّ بأن يخطو في اتّجاه السيّارة، التفت إلينا مرّة أخرى ليرى كيف تابعنا انتقاله إلى هناك، لكن أيضاً لكي يعيد علينا، بتلك الحركة من يده، أنّه سينتظر زيارتنا وأنّه، بهاتفه الذي رفعه إلى الأعلى، سيتّصل بنا من أجل ذلك.

منذ سنوات توقّف عن أن يكون له صديق، مثلما كنّا أنا وهو في أول أيّام الكليّة. دائماً هو بين كثيرين، أربعة أشخاص أو خمسة،

وفي أحيان يزيد العدد عن ذلك ليصير عشرين أو ثلاثين. لم أكن أُدعى إلى هذه اللقاءات المتّسعة، لكن حدث لي مرّات أن كنت هناك، بالمصادفة، وهو بين كثيرين، شبّانٌ لا تزيد أعمارهم عن أعمارنا أيّام كنّا طلاباً، أعرف أنّهم من مؤيّديه، جُمعت لهم عدّة طاولات ليجلسوا حولها متقابلين. أهلاً حسان، كان يقول لي من حيث هو، فأرفع ذراعي أنا أيضاً. وفي إحدى المرّات كنت في سهرة دُعي إليها شبّان ورجال بينهم من كانوا زملاء في الكليّة. كانوا كثيرين في ذلك البيت الجبلي، يتحرّكون من دون توقّف بين طابقيه والفسحة المبلّطة التي أمامه. كانوا يدورون في تلك المساحة، صاعدين نازلين كما لو أنّ كلّاً منهم يبحث عمّن كانوا قبل قليل معه، ويتخاطبون بالهمس بين هنا وهناك. عرفت أنّ ما يجمعني بالبعض منهم أقلّ ممّا يجمع بينهم جميعاً. لكنّ السرّ الذي يتداولونه لم يكن ليبقى من دون إفشاء ما دام انشغالهم به يزداد إلى حدّ أنّه كان مؤجِّلاً كلّ شيء يمكن أن يحدث في السهرة. «يوسف يمكن يكون معنا الليلة...» أفصح لي أحدهم، «... لكن هيدا لحد هلّق مش أكيد، بدنا نشوف».

وأنا صرت مثلهم أترقب ما يتناقلونه في همسهم عن أنّ يوسف ربّما يجيء وربّما لا يجيء، مبدّلين مرّة بعد مرّة ما كانوا قد اتّفقوا عليه حول مجيئه. وأنا كنت آمل أن تنتهي الحال إلى أن أكون في السهرة من دونه. ذاك أنّي لن أعرف كيف أتصرّف معه. هل سأضيف إلى مصافحته، حين تصل المصافحة إليّ، شيئاً يدلّ على أنّنا كنّا صديقين، أنا الذي بتّ الآن أقلّ قرباً إليه من جميع منتظريه؟ هل أنظر إليه فيما أنا أصافحه لأتبيّن إلى أيّ حدّ ما زال يتذكّر زمن رفقتنا؟

لا بدّ أنّه كان آنذاك، في تلك السهرة، قد بلغ ذروة نجاحه في عمله الحزبي. وهو النجاح الخاصّ المتميّز الذي يشتهر فيه الحزبي بشخصيته المتفرّدة، متجاوزاً بها ما يتيحه التراتب الحزبي لأعضائه. كان ذلك يحتاج إلى صفات بطولة لا فقط إلى تحقيق نجاحات عادية. شيء من قبيل النجومية التي لم أستطع أن أعرف من تفاصيلها، في ما خصّ يوسف، أكثر من أخبار سريعة كنت أسمعها من الآخرين. لم أكن أعرف أكثر من أنّه قائد عسكري لمقاومين مدرَّبين، وأنّه يخوض معهم مواجهات لم يأخذني فضولي يوماً إلى أن أسأل أين حدثت وماذا جرى فيها. لكن كان عليّ أن أصدّق ما أسمع، وأن أتخيّل يوسف وهو يخوض معارك بالقذائف والرصاص.

كأنّني كنت أملأ سنوات ابتعاده عنّي بتظهير صور له متدرّجة المراحل يزداد فيها تغيّراً سنة بعد سنة. لكنّني رغبت في ألّا يأتي إلى تلك السهرة. حتى إنّني فكّرت مرّات بأن أغادر، إمّا على الفور، وإمّا بعد أن ترتفع أصواتهم ويصير علنيّاً قولهم، أو هتافهم، إنّه سيجيء... من المؤكّد أنّه سيجيء.

* * *

الفراغ التي يحدثه انقطاعنا عمّن كنّا معه صديقين قريبين لا يمكن ملْؤه. يظهر لنا ذلك الفراغ متطاولاً مثل مسافة منفصلة مقطوعة من طرفيها. وإذ نواجَه بفرصة أن نلتقيه سنجد أنّ هذا التعرّف الجديد مربك لعلمنا أنّه لم يعد الصديق الذي كنّا نعرفه. ليس يوسف وحده، بل كلّ أولئك الذين تغيّروا مثله. كلّ أولئك الذين دفعوا بأنفسهم إلى الأمام لكي لا يظلّوا حيث هم. تلك الاندفاعة ربّما تكون وحدها كافية لأن يتقدّم كلّ منهم إلى حيث يرغب في أن

يكون، قاطعاً تلك المسافة خطوة بعد خطوة. وفي ذلك ليس الذكاء ضرورياً، بل الضروري، أو المهم، هو أن تسرع القدم إلى وضع الخطوة في المكان الذي ظهر لها خالياً لتوّه.

لم أعرف أين أقف في انتظار يوسف الذي «صار هنا» بحسب ما راح يردّد أحد الأخوين صاحبَي الدعوة. كان وصوله أسرع ممّا توقّعت، وهذا ما جعلني أفكّر أنّهم، منذ بداية كلامهم عن مجيئه، كانوا يخفون علمهم بوقت وصوله ليبقوه مموّهاً أو غير مؤكّد. كان أحد صاحبَي الدعوة يدعونا إلى أن نتجمّع في الخارج لنكون كلّنا في استقباله. ولم يطل انتظارنا على كلّ حال، إذ فجأة ارتفعت أصوات تقول إنّه «وصل... وصل»، وعلى الأثر ظهرت من المنعطف في الأعلى أضواء السيّارة تعلو وتنخفض ثمّ تعلو وتنخفض كأنّها ترسل إشارات لمن ستصل إليهم بعد قليل. ثمّ ظهرت سيّارة ثانية من بعدها قال بعض الذين حولي إنّ يوسف ربّما يكون في هذه، السيّارة الثانية، لا في الأولى. لكنّ السيّارتين تدبّرتا أمر توقّفهما معاً لتنفتح أبوابهما وينزل منهما جميع من فيهما وليتوجّهوا مسرعين إلى حيث باب السيّارة الذي كان انفتح بدوره، ولم تظهر من الجالس لصقَه إلّا تلك القدم التي بدت، لتمهّلها، كأنّها تتحسّس الأرض، قبل أن تقرّر وطأها.

لكن يوسف لم يلبث بعد ذلك أن اندفع مسرعاً نحو مستقبليه الذين التفّوا حوله وبدأوا يكلمونه من كلّ جهة. كان يعرفهم، واحداً واحداً على ما بدا لي، حيث راح يكلم أولئك الذين كانوا في آخر المزدحمين، مسمّياً إيّاهم بأسمائهم. فكّرت أنّ هؤلاء، الذين في السهرة، هم كلّ جماعته، حزبه الصغير، وأنّني بطلب منه ربّما، دُعيت إلى أن أكون بينهم. لكنّني أستطيع أن أبقي نفسي منفرداً

عنهم، منتظراً أن يبدأوا رجوعهم إلى الداخل فألتقي به بعد أن ينهي مصافحتهم جميعاً. أو ربّما أنتظر، بعد أن يتفرّق الداخلون في المنزل والفسحة الواسعة أمامه، ليكون التقاؤنا مثل لقاء عادي لصديقين لم يلتقيا منذ وقت طويل.

بل بقيت مبتعداً، أو متوارياً، إلى أن التقت أنظارنا، كأن صدفة، ولا أحد في مسافة الأمتار الفاصلة بيننا. وكان هو مَن قام بتلك النظرة المتفاجئة، النظرة التي تقول: أنت هنا؟ لكن النظرة العارفة سلفاً في الوقت نفسه أنّني هنا. ثمّ خطا نحوي مقدّماً إليّ يده، بأصابعها المتباعدة المرتخية التي، كما خطر لي، ينبغي أن تكون صارت أكثر رشاقة، إذ لا بدّ أنّها حصّلت شيئاً من المهارات التي توصّل إلى اكتسابها في السنوات التي مضت. «أهلاً أهلاً بالصديق»، قال مذكّراً إيّاي، بل مؤكّداً ما كنّاه من قبل انقطاعنا الطويل، بل من قبل ما بدأت السياسة تقيم ذلك الفارق بين أحدنا والآخر.

وهو، ليؤكّد لي رجوعه إلى أيّام صداقتنا الأولى، أحاطني بذراعه وبدأ السير بي متنقّلاً بين الساهرين. وأنا كان عليّ أن أبدو مستسلماً لتلك المودّة ومبتسماً له وهو يقول لمن يقف ويوقفني أمامهم: «هيدا صديقي، من أول سنة بالجامعة». وحين أرخى ذراعه عن كتفي، وصرنا وحدنا واقفين وجهاً لوجه، رحت أبحث عن شيء أقوله يذكّر بشيء من تلك الأيام.

– بتعرف، دايماً بتذكّر لما رحنا على المحلّ اللي كان لازم إتدرّب فيه على السلاح.

– بتذكّر، بأوّل الحرب.

– أوّل الحرب إي، كانوا الشباب كأنّن لابسين تياب الكاكي لأول مرّة، وما كانوا عارفين كيف يحملو الكلاشينات.

– إنت ما حبّيت تكمّل. هربت، قال ممازحاً، لكن ليس من دون أن تحمل نظرته نبرة اتهام. ثمّ انتقل سريعاً إلى سؤالي إن كنّا لم نلتقِ منذ ذلك اليوم.

– مبلا، بعد شي أسبوع أو أسبوعين رحت معك لنخلّص الزلمي المخطوف.

– أيّ زلمي؟

– اللي كان مخطوف. ما بتتذكّرو؟

– كنت أنا ويّاك؟ ورحنا سوا لنخلِّص مخطوف؟ قال مبدّلاً ملامحه ليصير مستغرباً ما يسمعه.

– الزلمي المسيحي اللي أخدوه وهو ضاهر من شغلو بالشيّاح.

لا يذكر. من كان مثله يستطيع أن يقول إنّها حكاية من مئات، وإنّه نسيها. لكنّني، رغم ذلك، لا أصدّق أنّ أحداً يمكن أن ينسى ذلك الوجه المُسنَد إلى الحائط، والذي تغطّيه عصابة خضراء وسخة، فقط شعره الأملس الشائب قليلاً كان يظهر من فوقها، ومن تحتها الجزء السفلي من ذقنه، ثمّ حنجرته، هناك في الأسفل، تفّاحة آدم، التي كانت ترتفع إلى الأعلى ثمّ تنخفض دالّة وحدها على رعبه ممّا يقوله أحد خاطفيه: «بعد ما اعترف. عذّبتو يا رفيق بس ما اعترف... هلّق بس إكويه بالمكواية رح يقرّ بكلّ شي».

– ما عم إتذكّر. يمكن... بس إنت متأكّد إنّو كنّا سوا؟

لم يعجبه تذكّري لذلك اليوم. ربّما فهم أنّني أسأله، الآن، بعد كلّ تلك السنوات على تلك الحادثة، إن كان ذاك الرجل أُطلق فعلاً. أذكر أنّه قال لي، حين خرجنا من تلك الشقّة، تاركَيْن في داخلها المخطوف مع خاطفيه، إنّ إقناع أولئك الرفاق بإطلاقه يحتاج إلى محاولة ثانية وإنّه سيعود بمفرده في المساء. «وليش مش هلّق؟»

سألته، فأجاب أنّ الأمور لا تجري هكذا، وأنّ عليه أن يجري اتصالات تسبق ذلك. لكن خيبته كانت ظاهرة على وجهه. وهو كان يداري فشله حين قال، كأنّه يعدني ويعد نفسه أيضاً، إنّه أكيد سيأتي في المساء، وإنّه سيأخذ الرجل بنفسه إلى خطوط التماس ليطلقه هناك.

لم أعرف ماذا جرى لذاك الرجل. لم أر يوسف في اليوم التالي ولا في الأيّام التي تلت. ربّما طُلب منه الانتقال إلى مكان آخر ليبدأ مهمّة حزبية يكمل بها طريقه نحو أن يكتسب السمعة التي كانت قد بدأت تتحقّق له.

* * *

ذلك التودّد المستعاد لم يدم أكثر من ذلك الحوار الذي كان على أحدنا أن يبادر إلى فكّه لو لم يتجّه نحونا صاحب الدعوة ويقلْ لنا إنّ الشباب ينتظروننا لنرفع النخب معهم.

لا أعرف أبداً كيف أتكلّم مع يوسف. لا أعرف ما الذي يمكن أن يقال وما الذي ينبغي ألّا يُقال. كأنّي أعدت له ما لا يحبّ أن يتذكّره من حكاية ذلك الرجل المخطوف، بل ربّما أزعجه ما قلته عن ثياب رفاقه وعن طريقة حملهم لسلاحهم. كأنّنا التقينا لنتناكف، هو بغمزه من هربي في ذلك اليوم، وأنا بحكيي ما لا يحبّ أن يسمعه. كان الأفضل أن لا نلتقي، بل أن لا أجيء أصلاً إلى هذه السهرة. وعلى أيّ حال لن يضطرّني شيء إلى أن أبقى، ولن يكون عليّ أن أستأذن أحداً لأخرج. لا أكثر من أن أتمشّى باتجاه البوّابة، ثمّ باتّجاه الجانب الآخر من الطريق حيث كنت ركنت سيارتي في صفّ السيّارات الطويل.

الفصل الخامس

لم تكن بوليت جاهزة في المرّتين اللتين قرّرناهما لزيارة وداد. في المرّة الأولى اتّصلت بي في المساء لتبلغني أنّ الطقس سيستمرّ عاصفاً يوم غد: «هيك قالوا بالتلفزيون، وكمان بتِلِفوني حاطّين على الـ Meteo صورة سما مكسّرة. يمكن لازم نأجّل الرَوْحة».

في الموعد الثاني اتّصلت بي أيضاً، لكن لتقول لي إنّه الطبيب هذه المرّة. نصحها بالبقاء في البيت، وهي لن تخالفه لأنّها تشعر بأنّها «مش كتير منيحة».

– يعني صار شي؟

– مَنّي منيحا، بس هو الدكتور بركات طمّني إنو C’est pas grave.

كان صوتها متعباً، وأنا لم أجد ما أقوله سوى دعوتها لأن ترتاح، ثمّ سؤالها إن كانت تحتاج إلى شيء.

– ما تتعذّب، ماهر إجا مبارح، واليوم الصبح تلفن.

– عن جد إذا بِدّكِ إجي...

– أكيد بحبّ، بس ما بدّي تَعّْبَك.

– انا جايي، يا ريت بتقولي إذا محتاجة لشي.

– أبداً... أبداً، تعا إنتَا.

وصلتُ بعد أقلّ من ساعة. بدت متعبة حين فتحت الباب، ثمّ استدارت عنه لتعود مسرعة إلى الداخل.

– برد، هيدا الباب بيطلّع كتير هوا، قالت فيما هي تقف في وسط غرفة الجلوس، ثمّ، بمشية سريعة أخرى، توجّهت إلى غرفتها في الداخل.

– ماهر كان هون، قالت من هناك، وأنا فهمت أنّها بذلك تدعوني إلى أن أتبعها.

لكنّي رأيت أن أنتظر دقيقة أو دقيقتين حتى تنهي ترتيب جلوسها أو استلقائها على السرير. «تفضّل، تفضّل...» قالت حين رأت أنّي ما أزال أنتظر. كانت جالسة على طرف السرير مواجهة لمدفأة كهربائية صغيرة يتقطّع صوتها. «... تفضّل تفضّل... هاي جابها ماهر من برّة» قالت فيما هي تشير إلى كرسي فكّرت أنّ عليّ بدوري، حين أنهي زيارتي، أن أحمله وأعيده إلى الخارج. كان ماهر قد تركه من أجلي فيما هو يسرع إلى الذهاب قبل وصولي.

– ليه ما بقي؟

– بيكون مشغول، هوي كتير بيشتغل. وإنتَ كمان كتير بتشتغِل؟

– أنا مش كتير بْتَعِّب حالي، أجبت راغباً في استعادة الجوّ المرح الذي تخاطبنا به على التلفون، إثر خروجها من ذلك المقهى.

– مبارح عرفت إني أكيد شفتَك من قبل.

– من قبل أي متى؟

– من أيّام الكليّة، بس أنا شفتك بسهرة. كنت عم تقرا شعر بالعراقي. وأنا ما فهمت شي.

– كنت حبّ إقرا شعر.

– وكنت عم تقرا حلو، بس أنا ما بعرف عراقي.

– وكيف تذكّرتي؟

– من لمّا جيت مع ماهر قلت إنو أنا شايفتك، بس مبارح عرفت وين. إنت ما بتتذكّر هاي السهرة؟

– ما بعرف، يمكن لأنّي كنت مركّز عالشعر العراقي...

أطلقتْ ضحكة خفيفة ثمّ قطعتْها لتقول إنّها ربّما تحتفظ بصورة لتلك السهرة. «خليني شوف إذا كانت بعدها عندي»، قالت قافزة عن السرير بسرعة، كأنّها ذعرت من احتمال أن تكون الصورة ضاعت. ثمّ اتّجهت إلى غرفة الجلوس، مسرعة أيضاً، تاركة مشّايتها حيث هي قرب السرير. هناك راحت تفتح جوارير ثمّ تغلقها مطلعة أصوات خبط قويّة.

– لقيتها، قالت وهي داخلة وبيدها ستفة من الصور جعلت تتطلّع فيها واحدة بعد واحدة. فقط بعد دقيقة أو دقيقتين من جلوسها على السرير، وهي مستمرّة في تقليب الصور والتحديق فيها، قالت لي أن أقترب. «شوف» قالت مادّة يدها بالصورة. كانوا كثيرين، وقد أخذتْهم الكاميرا من مسافة بعيدة، متربّعين أو مقرفصين، ناظرين كلهم إلى عدستها.

– هيدي إنتِ، قلت مشيراً إلى مكانها في وسط الصفّ الأوّل، مقرفصة وإحدى يديها على الأرض، كمثل الوضع الذي يتّخذه العداؤون في انتظار شارة الإنطلاق.

– كان في ناس كتير.

– بس أنا مش معهن، قلت وأنا ما أزال أقلّب النظر بين الوجوه.

– خلّيني شوف، قالت وهي تقوم لتقف ورائي، مقرّبة رأسها إليّ لنتمكّن من النظر معاً إلى الصورة. ولمّا لم تعثر عليّ بينهم،

قالت إنّني ربّما خرجت من السهرة باكراً، قبل الصورة، أو ربّما بقيت حيث أنا ولم أنضمّ إلى مَن تجمّعوا لها.

– كنّا عاملين اجتماع، قالت مبتسمة من طرافة الفكرة.

– يعني إنتِ اشتغلتي بالسياسة؟

– يمكن هيدا أول اجتماع. قبل، كنّا نضهر مع بعض، ونسهر بالبيوت، ونمشي بالمظاهرة. مرّات نكون أنا ووداد. هنّي كانوا يحبّو إنو يكون في بنات بالمنظمة، خصوصاً البنات اللي متلنا أنا ووداد، هيك قللي ماهر بعدين. بس En même temps نحنا كنّا نحبّ نكون مَعُن. كنّا نحسّ إنو في ناس كتار صاروا أصحابنا، كتير كتار. وبيحكو حلو، وبيفسّروا كلّ شي. بهاي الصورة ما كان صرلي كتير بعرفهن، بس هنّي إجو كلّن لما عرفو إنو في ناس بدّن يرجعو يفوتو على بيتنا، بيت أهلي يعني، هيدا اللي كنّا فيه هون بالصورة. إجو كلنّ، ويمكن جابو شباب معهن حتى يْفَهّْمو هاو الناس إنو نحنا كتار. بتعرف، بآخر السهرة في شباب وبنات نامو بالبيت كيف ما كان، بالتخوت وعلى الكنبايات وعلى الأرض. كان البيت ما في حدا. أهلي كانوا راحوا على فرنسا بالفاكانس وبقيوا كتير، وأنا وحدي. لما فاتو الناس الزعران عالبيت كنت وحدي، ولما صرت صرّخ هجمو عليّي وصارو يخنقوني تا إسكت. بعدين راحو، ما بعرف ليه راحو وشو صار. على مهلن. ما كانوا مستعجلين حتى إنّن صارو يعيّْطو لبعضن من الصالون عشان يضهرو من البيت مع بعض. خلّي ماهر يخبّْرك. كان هون بهاي السهرة، وهوي اللي صوّرنا، كتير صوَر بس أنا ما أخدت إلّا هاي. هون بالصورة ما فيك تعرف، بس أنا كانو عيوني حمر، كتير حمر، يمكن لو خنقوني أكتر شوي كنت صرت ميّتة.

– وبعدين بقيتي تروحي عالبيت؟

– رحت كم يوم، مع إني كنت خايفة كتير، ولما إرجع إجي عالبيت كنت شوفن على مدخل البناية. ضلّو هونيك الزعران كإنّن ما عملو شي. لو خبّرت الماما بالتلفون كانت قالتلي ليه مش عم إتصل بالبوليس. مع إنو عاشت هون وبتعرف كيف عم تصير الإشيا. هني هيك الفرنساوية، ما بيصدقو إنو البوليس صار يخاف يعْلَق مع العالم. صرت روح عالبيت بس مش لوحدي. كانوا يِجو معي، مش كلّن اللي كانوا بالسهرة، بس كم واحد. كنّا نمرق بيناتن للزعران لما نفوت، وهني ما يحكو شي معنا. كإنو اللي عملوه ما عملوه. كإنو شي ما صار. وأنا صرت حسّ حالي إنّي عم إتسلّى، لإنو عطول أنا معن للشباب. وداد كانت تسألني إذا كنت عم روح لإني خيفانة يسرقوا البيت. كان بدّا نام عندها، ببيت إمّا. كانت تتعجّب كيف روح معن وإجي معن للشباب. هي ما بتحبّ. ما كانت تفهم كيف بتحمّل الناس يضلّوا حدّي كل الوقت. هيّ غير شي... عم إحكي كتير، زهّقتَك أكيد...

كانت ستسترسل في ما ترويه رغم ذلك. لكنّها، فجأة، أدارت وجهها إليّ لتسألني هل صار أحمر. كانت تتحسّسه بيدها، خصوصاً عند الخدّين. وكي لا تنتظر ما سأقوله، قامت لتتحقّق من ذلك في مرآة الكومودينة الكبيرة. كان أحمر متوهّجاً. C’est beaucoup, non? قالت مخاطبة نفسها. «يمكن الحرارة»، قلت فيما تستدير إليّ كأن لأعيد ما قلته. «أنا الحقّ عليّي، تعّبتِك، ما كان لازم إجي». سمعتْ ولم تردّ. وفيما هي تعود إلى السرير أعدتُ عليها ما كنت قلته عن الحرارة. «بدّي أنطر شوي» قالت وهي ترفع غطاء السرير من أجل أن تتغطّى بعد استلقائها. كنت أعرف أنّها تريد أن تكون وحدها، وأنا تأخّرت في إعلان استعدادي للمغادرة وذلك لتردّدي

إزاء ما عليّ أن أفعله. « هيئتي تْعِبتْ، لازم إرتاح...» قالت داعية إيّاي إلى أن أخرج. «أكيد ما فيّي أعمل شي؟». «لا... لا C’est pas grave» قالت مستعيدة ما كان قاله الطبيب. ثمّ، قبل أن تخفض رأسها إلى المخدّة، وتستدير لتكون متّجهة في نومها إلى الجهة الأخرى، أعادت دعوتها لي إلى أن أذهب.

الفصل السادس

في الخط البياني الصاعد للزمن الجميل، هناك نقطة الذروة: الساعة العاشرة والنصف من صباح 11 شباط 1968. من هناك، من تلك النقطة، يبدأ ذاك الخط بالانحناء، بادئاً هبوطه نحو الأسفل. لكن لا ينبغي لنا أن نعتمد كلياً على الرسم البياني الذي هو على شكل قبّعة متّسعة من الأسفل تبدأ بالتضيّق لتصير مروّسة في الأعلى، ما قد يوهم أنّ البدء بالهبوط حدث في لحظة الذروة ذاتها. ذاك أنّ القمّة متّسعة هناك، أشبه بخطّ منبسط، أو قطعة من الأرض متّسعة، مثل بيدرٍ في أعلى الجبل يمكن اللهو أيّاماً طويلة على مساحته.

ثمّ إنّ الهبوط لن يكون انحداراً مستمرّاً كمثل ما تتساقط حجارة من أعلى الجبل. إنّه يبدأ، أول ما يبدأ، بالتذبذب. يصير الخطّ البياني يرتجف، مثلما تتذبذب الشارة التي تنذر بأن هزّة أرضية تحدث الآن. هذا مثلاً ما حصل في يوم الرحلة التي بقينا سبعة أيّام نُعدّ لها. بنات وشباب كنّا سننتقل بالبوسطة إلى نبع الصفا حاملين معنا طعاماً يكفي لأضعاف عددنا وقناني عرق تكفي لسكرنا ثلاث مرّات على الأقلّ. لكن، فيما نحن نسهر احتفالاً بالرحلة التي سنتجمّع

لها في السادسة من صباح الغد، انطلقتْ رصاصات أعقبتها قذائف ظلّت تتواصل، وتقوى، حتى تأكّدنا من أنّ أحداً لن يأتي إلى الموعد الذي حدّدناه أمام بوّابة الكليّة.

محمّد صافي، مكتشف الخط البياني، كان في ذروته هو أيضاً، سواء بسواء هو والزمن الجميل. وهما بدآ بالانحدار معاً. صار قليلاً ما يقول كلاماً يدهشنا بعدما تخرّجنا من الكليّة. حين نكون معاً، وهذا صار قليلاً ما يحدث، يكتفي بأن يعيد علينا ما كان قد قاله في الأوقات التي سبقت. زهير يُرجع السبب إلى أنّ محمّد صافي لم يعد يهتمّ بأن يُعجَب به الآخرون. في السهرة التنكّرية التي أقمناها في عام 1984 لم يقل جملة واحدة ممّا اعتاد قوله وممّا توقعنا سماعه، مع أنّ الليلة كانت طويلة، بدأت في السابعة مساءً وانتهت في الخامسة من صباح اليوم التالي. عشر ساعات كاملة لم يذكّرنا مرّة واحدة بما كانه في سنوات الكليّة وفي السنوات القليلة التي تلتها. في الفيلم الذي صوّره مخرج سينمائي كان ساهراً معنا يظهر محمّد صافي دائماً من وراء مَن كانت الكاميرا مصوّبة إليهم، أو من جانبهم. مرّة ماشياً باتّجاه باب الصالة الواسعة، مرّة حاملاً كأسه بيد والقنّينة باليد الأخرى، أو فاتحاً باب الشرفة ليطلّ برأسه متبيّناً من أيّ جهة تطلع أصوات القذائف البعيدة التي يُسمع دويّها أو يبرق ضوؤها. لم يختلط بالساهرين ولا بالساهرات ولم يمازح أيّاً منهم، بل لم يبتسم لهم على الرغم من تنكّرهم بهيئات استحضروا فيها شخصيّات من أفلام السينما مثل طرزان، والقرصان، والمرأة التي غنمها القرصان، وامرأة أخرى (جولييت) جعل يناجيها من تنكّر بثياب ذلك الزمن محاولاً أن تكون أصواته قريبة إلى التنغّم باللغة الإيطالية، وألفيس بريسلي الذي

كان مَن قلّده يعزف، بيدين خاليتين، ألحاناً من دون كلام يخرج من شفتيه نصف المطبقتين، والمرأة البلدية المصرية التي جعلت تشرب القهوة مباشرة من الركوة... إلخ. كنّا نقول لمحمّد صافي، إمّا بالكلام العربي العادي وإمّا مقلّدين ما نفترض أنّه نُطق بلهجات الشخصيّات التي تنكّرنا بها، لماذا أنت ساكت هكذا. كان مثل محبوس في زنزانة، وكان سيخرج من السهرة لا بدّ لو لم يكن التجوّل ممنوعاً في الخارج. صار زهير يقول له إنّه لا يستطيع إلّا أن ينسجم مع الجوّ بما أنّه لا مجال للخروج من هنا قبل طلوع الضوء. «شوف صاحبك عدنان كيف صارلو ساعتين مفكّر حالو عم يدقّ عالغيتار»، يقول له زهير محاولاً إدخاله في هرج السهرة، أو يقول له، مشيراً إلى ساهرة بيننا تنكّرت بثياب راقصة، إنّ رؤيتها هكذا لن تتاح له في مناسبة ثانية. وحين عاد إليه زهير، دافعاً إيّاه دفعاً هذه المرّة، لكي ينضمّ إلى حلقة الراقصين التي اتّسعت وزاد صخبها مع أغنية «زحمة يا دنيا زحمة»، استدار محمّد صافي نحو زهير ساخطاً فبدا كأنّه يهدّده بجسمه الكبير. ولمّا راح الجميع يعلون أصواتهم لكي تعاد الأغنية مرّة ثانية، ثمّ مرّة ثالثة بعد ذلك، توجّه محمّد صافي إلى حيث المسجّلة ليزيح يد المخرج السينمائي عنها، ثمّ جعل يكبس أزرارها واحداً بعد واحد لكي تنطفئ ولا يعود يطلع صوتها أبداً. أمّا الراقصون والراقصات الواقفون حيث هم، منتظرين أن تُعاد الأغنية، فلم يتأخّروا في إبداء استنكارهم. قالت واحدة، وهي التي يغنمها القرصان، إنّ هذا «مش معقول»، ثمّ أضافت عن محمّد صافي أنّه، بتمثيليّته هذه التي يعرضها أمامهم جميعاً، يتنكّر فوق تنكّره. ومن بعدها قال المخرج السينمائي، محتجّاً على إبعاد محمّد صافي له عن المسجّلة، إنّ أحداً لم يجبر أحداً على المجيء

إلى السهرة. لكنّ الأغنية عادت واشتغلت للمرّة الثالثة. وعلى الفور استعاد الراقصون والراقصات حماستهم القويّة بينما خرج محمّد صافي إلى الشرفة ليكون وحده. لكنّه لم يمكث طويلاً هناك. ليس أكثر من دقائق قليلة رجع بعدها ليتوجّه مرّة أخرى إلى المسجّلة ويسحب شريطها من الكهرباء. ثمّ استدار نحو الجميع الذين توقّفوا عن الرقص لتقوم يداه بتلك الحركة التي تعني «خلص... خلص». في ذلك المقطع الذي صوّره أيضاً المخرج السينمائي، كان محمّد صافي يخطب باللباس اللبناني القديم الذي دأب وديع الصافي على ارتدائه في أوبريهاته، فيما زهير يقف وراءه بلباس الخليجيين ساخراً منه، بالحركات فقط، لئلّا يسمعه محمّد صافي أو يراه.

«هيدا مش هوّي...»، قالت المرأة التي كانت بين مَن عملوا على أن تُقام السهرة. «... ولا مرّة كان يحكي هيك»، أضافت لتُسمع من صادف وقوفه إلى جانبها. كان محمّد صافي يقول الكلام الذي يمكن أن يقوله أيّ شخص من أولئك الذين لن يأتوا إلى سهرة مثل هذه في وقت مثل هذا. كلام عادي، خالٍ من مزاج محمّد صافي ومن ذكائه ومن تفنّنه باللعب بالكلام. «كيف عم نعمل هيك والبلد عم يحترق»، راح يقول، «... كيف فينا عم ننبسط... مش سامعين، مش عم تفكّرو وين عم تسقط القذايف... شايفين منظركن كيف... مسخرة... وأنا كمان متلكن مسخرة...».

وكان يحنقه ويزيد في استرساله ضحكهم وتعليقاتهم التي تثيرها حركات زهير من ورائه، كما مشاركتهم في ذلك الهرج حين جعل كلّ منهم يشير بإصبعه إلى ما يرتديه الواقفون حوله ويقول له: إنت مسخرة، أو ليش إنت لابس هيك متل المسخرة. وكانوا

يضحكون وهم يحدّقون في أجسام من هم حولهم مندهشين كأنّهم الآن فقط، في هذه اللحظة، رأوا ماذا فعل كلّ منهم بنفسه. «هيدا خرا اللي عم نعملو... خرا...» صار محمّد صافي يقول رافعاً صوته فوق الضجيج الطالع من انشغالهم عنه. «أنا ما بدّي إسهر، بطّل بدّي» قال وهو يبدأ بفكّ القماشة العريضة التي تزنّر وسطه. وإذ تقدّم باتّجاه الغرفة التي وضعوا فيها الثياب التي كانوا يرتدونها عند مجيئهم، والتي سيرتدونها عند خروجهم، لحق به زهير وهو يقول له إنّه لا يستطيع أن يخرج الآن «... لأنو بيحبسوك... ما بتعرف إنو ممنوع التجوّل». ظلّ يردّد ذلك حتى بعد أن أقفل محمّد صافي باب الغرفة من الداخل، بالمفتاح الذي أُدير في ثقبه مرّتين، ليقتنع زهير بأنّ عليه أن يسكت ويروح ينضمّ إلى الذين في السهرة.

* * *

كلّ منهم كان يعرف أنّ ما قام به محمّد صافي لن يؤدّي إلى أكثر من تعليقاتهم السريعة التي كانت تقال من هنا وهناك. لم يحرجهم ما قاله ولم يوجع ضمائرهم، كما لم يشعر أحد منهم بأنّه ارتكب خطأً باشتراكه في هذه الحفلة. ذاك لأنّ محمّد صافي لم يقل شيئاً جديداً. كلّ منهم يستطيع أن يقف، كما وقف هو، ويقول ذلك الكلام نفسه عن أنّ البلد يحترق وأنّهم يديرون له ظهورهم ويلهون عنه بالرقص والتنكّر. بل إنّهم يستطيعون أن ينوّعوا في كلامهم عن ذلك ويزيدوا أشياء كثيرة عليه. لكنّهم، هذه الليلة، لم يجيئوا إلّا ليخالفوا ذلك. ليفعلوا غير ما يجب عليهم أن يفعلوه، وليمعنوا في ذلك. لهذا ربّما كان أكثر ما أعجبهم في السهرة هو تلك الأغنية التي رأوها، هكذا بغريزتهم، فاجرة ومستفزّة ومتهتّكة.

لم يوجع محمّد صافي ضمير أحد إذن. أوقفوا السهرة فقط لأنّهم تعبوا. تراخوا وهم بعد في منتصفها حيث، كما راحوا يقولون وهم مستلقون على الكراسيّ والكنبايات، أن لا أحد يستطيع أن يسهر عشر ساعات متواصلة. كان العازف بيديه الخاليتين قد أراح يديه وأرخاهما؛ ووضع من تنكّر بزيّ الرسّام لوحةَ الألوان على الطاولة الصغيرة موازناً مطرحها فوق فناجين القهوة الفارغة؛ وكان المخرج السينمائي، قبل ذلك، قد توقّف عن التصوير وغطّى كاميرته بفوطة زرقاء جُعلت خصّيصاً لها.

ولم يعد يبدو ملاحَظاً الفرق بينهم وبين محمّد صافي الجالس مبتعداً عنهم، بثياب الخروج العادية، وهو ينفض رماد سيجارته في منفضة وضعها بين رجليه على الأرض. لم يقل كلمة واحدة وهو هناك، ولم يرفع عينيه لينظر إلى أحد. بل لم يلتفت إلى زهير الذي اقترب منه ليقول له إنّه بقي من السهرة أمامهم أقلّ قليلاً من أربع ساعات، مثقلاً عليه وقت الانتظار الطويل. لم يردّ محمّد صافي على زهير، كما لم ينظر إلى ساعته كنوع من الاستجابة لما قاله. كان يفكّر كيف أنّه أفسد السهرة على الجميع، وكيف أنّ الكلام الذي قاله ليس من الكلام الذي يعجبه أصلاً وأنّه، بسبب ذلك، لن ينظر إلى أحد في الساعات الأربع الباقية ولن يكلّم أحداً.

* * *

فيما هو يقلّب أفكاراً عن محمّد صافي، انتهى زهير إلى أنّ ما سمعه منه في تلك الليلة لم يكن طالعاً من وجع ضميره أو من إحساسه بالذنب. هو يعرفه. صحيح أنّه لا يحبّ الرقص، لكنّه يحبّ أن يتفرّج على النساء وهنّ يرقصن. ثمّ إنّه، قبل أيّام من السهرة،

كان يعرف مَن هم الذين سيكونون معه فيها. «كويّس... كويّس» كان يقول كلما ذُكر له اسم من أسمائهم، وفي أحيان يبتسم لاسم كأنّه تذكّر شيئاً محبّباً عن صاحبه. وهو من قال لزهير أمام المرأة صاحبة فكرة السهرة إنّها إذا حصلت فستكون اختراقاً لكلّ ما يعمل المسلّحون على حبسنا فيه. وحين قال له زهير، ليخفّف من حماسته، إنّنا سنكون في الطابق العاشر، محبوسين، ولن نستطيع الخروج قبل أن يوقفوا منع التجوّل، ردّ عليه منكّتاً بأنّه يستطيع إذن أن يضع السهرة في باب النضال ضدّ إسكات الأصوات بالقوة.

وقد ضحك زهير لتلك النكتة على رغم أنّها ليست بمستوى كلام محمّد صافي القديم. بدت له كما لو أنّها ممّا سبق أن سمعه، أو أنّه سمع أشياء من نوعها. ضحك، لكن من أجل أن يبقي العلاقة بينهما كما كانت من قبل. لا يحبّ أن يصير محمّد صافي شخصاً عادياً. يريده أن يظلّ كما كان أو، على الأقلّ، أن يظلّ يذكّر بما كانه في أيّام الكليّة. ولا يهمّه أن يكون ذلك، في أحيان، على حسابه، منقصاً من شخصه. وهو على أيّ حال لم يخالف ذلك في السهرة، حين كان يرافق خطاب محمّد صافي بحركات وجهه ويديه. بذلك كان يُري الآخرين كيف أنّه يستطيع، هو المتجرّئ، أن يتمسخر على مَن لا تجوز المسخرة عليه.

لكنّه يعرف أنّه، هكذا وحده، لن ينجح في جعل الناس يرون محمّد صافي على صورة ما كانه. أشياء كثيرة تغيّرت. وإذ يعود إلى تذكّر الكافتيريا ضاجّةً بصخب الجالسين فيها، متوزّعين بين هنا وهناك، يتمثّل له ارتفاع البعض عمّن حولهم بنقاط تضيء وأخرى تظلّ منطفئة كما على مساحة لعبة إلكترونية. أولئك الذين كانوا

يتناقشون بأصوات عالية، بين أول الكافتيريا وآخرها، دافعين سامعيهم إلى الضحك، لم يعودوا مضحكين كما كانوا. الكلام الذي كانوا يتبادلونه من فوق الطاولات صاروا يتساجلون به في الصحف، جدّياً هذه المرّة. أصبحوا يشاهَدون محاطين بمرافقين مسلّحين، أو تنوب أسماؤهم القوية، حين تذكر، عن قوّة حضورهم. أو تُروى عن بعضهم أفعال تقرّبهم من شخصيات يُقرأ عنها في الروايات. لم يعرف محمّد صافي إن كان عليه أن يتعجّب أو أن يضحك حين سمع أنّ فرج صار يقود معارك الجبال ويأمر، مثلاً، بأن تبدأ ليلة القذائف بأربعمئة قذيفة ستقابلها أربعمئة قذيفة ردّاً عليها. في المقابل، في مقابل فرج الذي كان يطوف في الجبال كأنّه أميرها، كان محمّد صافي يقعد مقرفصاً تلك الليلة في مساحة المدخل الضيّقة بين غرفتي النوم والحمّام أو، حين يصير القصف أقرب، ينزل إلى ملجأ البناية حاملاً الترانزستور المشوّشة أصواته ويقعد مسنداً ظهره إلى واحد من أعمدة المبنى، منفرداً هكذا عمّن سبقوه إلى النزول.

الفصل السابع

مثلما رافقني ماهر إلى بيت بوليت حين التقيتها أول مرّة، ها هو يرافقني إلى المستشفى لأزورها. «الآن»، أجبته حين سألني إن كنت أرغب في زيارتها، ووافقتُ حين اقترح عليّ أن يأتي إليّ ليقلّني. ونحن على الطريق أخبرني أنّها هي التي اتّصلت به ليرافقها إلى المستشفى. «بتعرف حالا» قال، ليضيف بعد ذلك أن إقامتها في ذلك المكان ستريحها. مرّة أخرى يلمّح تلميحاً إلى مرضها، تاركاً إيّاي أستنتج نوعه بنفسي.

كذلك لم يفصح عمّا كنت أنتظر أن أعرفه: هل هي التي طلبت منه إبلاغي عن انتقالها إلى المستشفى؟ لم أجد مناسباً أن أسأله عن ذلك مباشرة، ولم تفد أسئلتي، المتقطّعة على أيّ حال، في تقريبه من أن ينطق بجواب عن ذلك. «لاحظت إنها تعبتْ لمّا رحت زرتْها من أسبوع، تعبتْ هيك فجأة» قلت من أجل أن يجيبني بشيء يتعلّق بي. لكنّه لم يزد شيئاً كثيراً على ما قلته: «إيه، في مرّات بتتعب هيك... فجأة».

وفي مسافة من الطريق، حين اشتدّ الازدحام وصارت السيّارة تقف أكثر ممّا تسير، رحت أفكّر في وجودنا معاً، أنا الذي أسرع إلى

رؤيتها من دون أن أعرف لماذا أراني مندفعاً هكذا؛ وماهر الذي لا أعرف ما هي الصلة التي تجمعه بها. هل هو عاشق سابق لها؟ أو هل ما زال ينتظر أن يحصل شيء بينهما بعد كلّ تلك السنوات؟ هل هو صديق، مجرّد صديق، صديق وفيّ من أولئك الذين يحبّون أن يكونوا حاضرين في الملمّات؟

في المستشفى أيضاً، حين وصلنا، ذكر لي رقم غرفتها في الطابق الثاني وتركني أذهب بمفردي ليتابع إجراءات إدارية ما زالت عالقة كما قال. أجابت بـ«Oui» متسائلة على نقري الباب بعقدة إصبعي. وحين أعدت النقر مرّة ثانية، لأكون أكثر حذراً في الدخول، قالت بصوت أعلى، مستعيرة هذه المرّة ما يقال باللغة العربية الفصيحة: «اُدْخُلْ». كنت أستطيع أن أمازحها لنطقها تلك الكلمة، ولطريقتها في قولها، لكنّني تريّثت خوفاً من أن يكون ذلك غير مناسب لما هي فيه. كانت ممدّدة، مائلة برأسها على المخدّة لترى مَن الذي سيظهر عند انفتاح الباب. وهي بقيت على نظرتها تلك فيما أنا أقترب متمهّلاً من السرير. لم يبدُ على وجهها ما يدلّ على شيء. كانت تنظر فقط فيما أسير الخطوات القليلة نحوها حتى أصير قريباً منها، قادراً على مخاطبتها بالهمس. «جيتْ؟» قالت. «جيت أنا وماهر» قلت مجانباً، أو مؤجّلاً، التفكير في ما قد تعنيه كلمتها: «جيت». وهي بدورها تحوّلت إلى جانب أكثر حياديّة: «وينو ماهر؟» سألتْ، لكن مبقية على وجهها النظرة ذاتها، مثبّتة على وجهي.

– شو صار؟

– كنت مفكّرة إنّي صحّيت وخلص.

– ليه شو صار؟

– بتتزكّر لما كنت عندي؟

– بتزكّر، بس هلّق إنتِ مش هيك...

ابتسمتْ، كأن لتفهمني أنّني أستعجل طمأنتها. لكنّها مع ذلك وافقت على ما قلته:

– ما في شي مهم، بعرف. الحكيم قللي إنو تعبْ. تعبتْ... يمكن تحمّست، صار بدّي إضهر لوحدي وبدّي كمان روح لعند وداد...

– يعني الحقّ عليّي...

– لا مش إنتَا، أنا تحمّست كتير. على كلّ حال رح نرجع نروح.

– أكيد...

كنت أحبّ أن أسألها إن كانت وداد علمت أنّها في المستشفى، لكنّني رأيت أنّ مجيء وداد من مكانها البعيد قد يعني أنّها هنا في المستشفى لأكثر من حدث عارض.

– اقعد هون، قالت فيما هي تحاول رفع جسمها لتترك لي حيّزاً إلى جانبها على السرير.

ارتبكتُ. رحت أتطلّع حولي كأنّني أفكّر أين أضع الكرسي المركون على الحائط قبالة السرير، هل أحضره إلى هنا، حيث أقف، أم أذهب، حاملاً إيّاه معي، لأجلس عليه هناك حيث هي.

لكنّها كانت قد أخلت مكاناً ضيّقاً لجلوسي، ووضعت يدها عليه، يدها الصغيرة، لتشير لي بأن هنا، على السرير. كان عليّ ألّا أُظهر تردّدي، أو على الأقلّ تباطئي. ما كان يجب أن أفعله هو أن أجلس. أن أبدأ ذلك آذِناً لها بأن ترفع يدها التي أبقتها هناك. لا أستطيع إلّا أن أجلس. لا يهمّ ماذا تفكّر هي، أو ما هو قصدها من أن أكون قريباً هكذا إلى حدّ أنّ جسمي لا بدّ سيلامس جسمها.

كنت قد انعطفت نحو أن يكون جلوسي مواجهاً لها، وكانت يدها لا تزال حيث هي حين قُرع الباب ليدخل ماهر حاملاً بيده الأوراق التي أنجزها. قال ناظراً إليها وحدها أن لم يعد من مشكلة، ورفع الأوراق التي في يده تأكيداً لذلك. أتاح لي ذلك أن أعتدل في وقوفي، بل وأن أبتعد قليلاً عن السرير الذي كدت أكون ملتصقاً به. لكنّني لم أعرف ماذا أفعل بعد ذلك. بل شعرت للحظة بأنّنا، نحن الثلاثة، علقنا في هذا الوضع. كان على أحد أن يقول شيئاً. أن يقوم بحركة على الأقلّ تعيد توزيعنا في الغرفة.

– خلّيني شوفهن، قالت رافعة يدها عن مكانها ذاك لتشير بها إلى الأوراق.

– مش مهم، ما تشغلي بالك فيهن، قال ماهر مبقياً الأوراق في يده.

لكن ذلك كان كافياً لأُخلي مكاني تاركاً له أن يتقدّم إليها، لعلّه يريد أن يبلغها بشيء.

* * *

لم يطل بقاؤنا في الغرفة. بعدما جلب الأوراق لم يعد أمام ماهر شيء يفعله. أنا أيضاً شعرت بأنّ بقائي، ولو لخمس دقائق أخرى، لا غرض منه إلّا زيادة الوقت لتصير مدّة الزيارة كافية. لن أعرف أن أقول لها شيئاً وهو حاضر بيننا. وقد استنكرت بوليت أن نغادر هكذا بسرعة حين رأت التفاتتي نحو ماهر. «لأ مش هلّق» قالت قبل أن تضيف أنّنا «أنانيّين» أنا وهو، «لأنكن رح تتركوني بها الغرفة اللي ما فيها شي».

– خمس دقايق؟ سألني ماهر وهو ينظر إلى ساعته ضامناً لي أنّها خمس دقائق فقط. وهو، بعد انقضاء الدقيقة الأولى منها، منحني كلّ الوقت الذي بقي. «نسيت شغلة» قال مستأذناً، ثمّ تركنا وحدنا أنا وهي.

– ليش بدّك تروح؟ قالت من فور ما أُغلق الباب.

– ما شي، بس يمكن هيك لازم تكون الزيارة بالمستشفى.

– إنت بتنحرج لما يكون ماهر؟

– لا... لا، بسّ الحكي بيصير قليل.

– بدّك يروح وإنت تبقى؟

ليس من المؤكّد أنّها تقصد كلّ ما قد تعنيه تلك الجملة. هذه البلاغة ليست من لغتها. ربّما ما تقترحه لا يتعدّى استكمال ما كانت بدأته بدعوتي إلى الجلوس بجانبها، وفي أحسن الأحوال، لتختبر هي إن كانت تريد ذلك حقّاً.

– مش هلّق، أنا جيت معو... المرّة التانية بجي لوحدي.

ثمّ إنّني أنا نفسي لست متهيّئاً لأن أقوم بالخطوة التالية. فكّرت فيما كنت أهمّ بالجلوس قربها، أو لصقها، أن ألتقط يدها التي سترتفع عن مكانها على السرير وأبقيها في يدي متحسّساً صِغرها وطراوتها. لكنّني كنت أعلم في الوقت نفسه أنّني بذلك أكون قد انتقلت معها إلى الجهة الأخرى، التي لن يكون هيّناً الرجوع من بعدها إلى الوراء.

هذه المرّة لم يستأذن ماهر في الدخول وهو، من فور ما فتح الباب، رفع لي ساعة يده معلناً أنّ الخمس دقائق قد انتهت.

– خلص، C’est tout، قالت بوليت رافعة يدها الصغيرة مودّعة ومستعجلة رحيلنا.

* * *

مع بوليت، لم أكن متهيّئاً لذلك بعد. في السيّارة، وأنا إلى جانب ماهر، أعدت التفكير في ما كان خطر لي ونحن متّجهان إلى المستشفى: لماذا أُسرع إلى زيارتها كلما أتيح لي؟ من المؤكّد أنّني لم أكن منتظراً تعافيها فقط كي نذهب معاً، أنا وهي، إلى حيث تقيم وداد. من بعد زيارتي الأولى لمنزلها كنت أعرف ذلك. كما أعرف أنّني كنت أتساءل في كلّ مرّة إن كنت راغباً في التقدّم معها إلى الأمام. لكن بالطبع لم أكن لامبالياً تجاهها. كنت في المنطقة الوسط، لكن الوسط المتحرّك غير المستقرّ. الوسط المتردّد حيث يحيّرني كلّ شيء أراه فيها: يدها الصغيرة مثلاً، شعرها القصير الذي كأنّه نبت بعد مرض ومع ذلك تركته لفوضاه، ثمّ جسمها القليل، وكلامها الذي أظلّ أتأرجح بين سذاجته وطرافته، وكذلك العالم الذي تراه خفيفاً كأن لتعرف كيف تعيش فيه.

وأيضاً تلك الحادثة التي خرجت منها بلا نقمة ولا ضغينة، الحادثة التي كادت تقتلها والتي أكثر ما تتذكّر منها وجهها كيف صار «أحمر... كتير أحمر». ثمّ حكيها عن أولئك اللصوص، المجرمين، الذين بدل أن يتواروا أو يختفوا، جعلوا يستعرضون أنفسهم أمامها وأمام أصدقائها داخلين خارجين، «هيك كإنو ما صار شي» بحسب ما قالت هي عن بقائهم أمام مدخل البناية.

– ... إنت بتتذكّر هيديك الحادثة... لمّا فاتوا على بيتها؟

سألني ماهر بعد طول صمت بيننا.

– هونيك بالقنطاري؟

– ببيت أهلها، لما جرّبوا يخنقوها؟

– بتْذكَّر أكيد. خفنا كلّنا.

– مين هنّي؟
– اللي جرّبو يخنقوها؟
– إي...
– هنّي الزعران... الزعران اللي بالأحزاب، قال ليعقب ذلك بابتسامة علّق ممازحاً من بعدها: «ليش ناوي على شي؟».
ضحكتُ، مجارياً مزحته، المفاجئة لي أنا أيضاً:
– لأ، ناوي إكرهُنْ، هلّق بعد ما قَطَعِت كلّ هالسنين وفات الأوان.
– فات الأوان كتير، مش أقلّ من خمس وعشرين سنة. أنا كتير بتذكّر هيداك اليوم. وكمان بضلّ فكّر ليش ما رجعوا عملوها مرّة تانية.
وهي بقيت هنا، فكّرت بيني وبين نفسي. لم تلتحق بأهلها الذين كانوا يلحّون عليها، لا بدّ، كي تتبعهم إلى حيث أقاموا في فرنسا. ليس عن شجاعة، فهذه الصفة ليست على الأرجح ممّا يطلَق على من هنّ هكذا مثلها. ربّما بقيت لأنّها لم تكره أولئك الذين اعتدوا عليها وكادوا يقتلونها. أستطيع أن أتخيّل أنّها، بعد خمسة أو ستة أيّام من حادثتها تلك، لا بدّ خطر لها، وهي خارجة من بوّابة المبنى، أن تبتسم لمن تراه ناظراً إليها منهم، وتتمتم له بكلمة «بونجور» التي لن تعرف كيف سيكون وقعها عليه أو على أولئك الذين قد يكونون حوله. وهي، إن فعلت ذلك، فليس طلباً لمهادنتهم، ولا لتعلن مسامحتها لهم، بل لأنّها لا ترى عداوة في الوجه المتّجه بنظره إليها.
– ما راحت لعند أهلها أبداً؟

– راحت، يمكن شي مرّة أو مرّتين، بس هيك، زيارة. أنا بتعجّب كيف وحدة بيصحّلها تعيش هونيك بتضلّ بها البلد. شوف... شوف، قال مشيراً إلى سيّارة عبرت مسرعة من جانبه لكي تقف أمامه في طابور الزحمة. فوق هيك عندها باسبور فرنساوي. كتار سألوها، خاصّة وقت الاجتياح لمّنْ فرنسا بعتت باخرة خصوصي لتسحبن، هنّي الفرنساوية. «بحبّ هون» كانت تقول و«أنا ما بِتْرُك». تخيّل واحدة متلها، بجسمها هيدا الزغير، وبعقلها اللي صرت تعرفو، تخيّل إنّها تقدر تعيش لوحدها بين هالناس. أنا كنت متأكّد إنّو الزعران رح يرجعوا مرّة تانية. لأنو صار نفس الشي مع ستّ بتقربنا. أربعة خمسة منُّن فاتو عبيتها عالمصيطبة. شافتهن. مش بسّ قتلوها هيّي، قتلوا بناتها التنتين الصبايا بسكاكين جابوها من جارور المطبخ. ما حدن عرف مين هنّي طبعاً. هيك كانت الدنيا ببيروت. أنا شفت اللي جرّبوا يخنقوها لبوليت، وكنت حتى إقطع من بيناتهن. لما ماتت المرا وبناتها صرت فكّر إنو هول اللي عم شوفهن تحت بيت أهلها لبوليت هنّي اللي قتلوهن. أو إذا مش هنّي نفسُن، الزعران اللي متلهن. اللي متلهن تمام. ليك، مش هلّق خلصت الحرب؟ مع هيك بعدني بسأل حالي كيف هيدي قادرة تكمّل تعيش...

الفصل الثامن

محمّد صافي:

لم يعد شيء كثير يجمع بيننا، نحن الذين كانوا يسمّوننا شلة الشعرا. منذ زمن توقّفنا عن أن نلتقي لكنّني، مثلاً، أعرف على أيّ حال استقرّ زهير، أو أين هو بيت شوقي ومن يعيش معه. أعرف أيضاً ماذا يشتغل حسان، وقد زرته في مكتبه مرّات، وإن متباعدة تفصل سنة بين إحداها والأخرى. في هذه السنوات الماضية كنّا نلتقي، ليس جميعنا، وليس كما في أيّام الكليّة حين لم نكن نحتاج لأن نضرب موعداً كي نلتقي. أين نقولا، كنت أسأل زهير أو شوقي، لأعني بذلك أنّه حان وقت خروجنا. ذلك المقهى الذي كنّا نسهر فيه، والذي كنّا نحبّ أن نسمّيه خمارة، أتذكّر ليالينا فيه كما لو أنّني أستعيد شريطاً طويلاً متسلسلاً. أتذكّر أيضاً الطريق التي كنّا نمشيها معاً، عائدين من هناك، مزهزهين من العرق الذي شربناه. مضى زمن طويل على ذلك. ثلاثون سنة؟ خمس وثلاثون؟ صارت لقاءاتنا تتباعد بالتدريج، سنة بعد سنة. أتذكّر أيضاً إقامتنا جميعاً في ذلك البيت قرب البحر. سبحنا كلنا على الشاطئ الرملي القريب من تلك القرية، وأنا أقول لهم إنّ البحر ليس بهذه الزرقة في

أيّ مكان. ولأدلّ على ذلك رحت أشيل الماء بكفيّ المضمومتين مثل جرن صغير وأقول لهم انظروا... حتى هنا، بين كفيّ، هي زرقاء.

كنّا هاربين من الحرب، أقصد من جولة لها لا أستطيع الآن تعيينها ولا مَن كان المتقاتلون فيها. تلك النهارات ربّما كانت من بين ما سأظلّ أتذكّره على الدوام. ليس بسبب البحر فقط، وليس لأنّنا سبحنا فيه. إنّه الشعور بالأمان، الشعور بالسلامة من خطر القذائف الذي تركتُه حيث هو هناك في بيروت. وكنت أقول لهم ذلك من أجل أن يستهجنوا كيف أنّني لا أتذرّع بسببٍ لأهرب، معلناً هكذا أنّني أهرب من خوفي وجبني. كان يبدو لهم غريباً أن أُظهر نفسي، أنا القويّ، في الضعف الذي ينبغي أن يكون عليه الجبناء. «أنا جبان» أقول لهم، «وأنتم أيضاً جبناء مثلي». ولكي أصوغ من ذلك كلاماً يحوّل ما نعتُّهم به إلى كلام يحبّون سماعه أفصّل لهم ذلك: «هي الحرب. من أوّلها يعرف الجبان أنّه جبان. قبْل الحرب يُشْكِل الأمر على كلّ واحد إذ لا يستطيع أن يحدّد ماذا هو، كلّما ساءل نفسه، هل جبان أنا أم شجاع؟ أنا، منذ أن بدأت الحرب، صرت عارفاً أنّي جبان».

الآن، بعد هذه السنوات الكثيرة، بقي من معرفتي بأحوالهم ما يشبه العناوين العريضة: سكنهم، وظائفهم، وهل ما زالوا على ارتباطاتهم السابقة بنسائهم. أعرف عنهم تلك الأشياء التي لا تتغيّر والتي تبقيهم في رأسي كما هم، ثابتين في أوضاعهم ذاتها. من عشر سنوات أو خمس عشرة سنة كنّا لا نزال نتواعد لنلتقي، مع واحد منهم أو اثنين على الأكثر فنجلس في مقهى بشارع الحمرا. بل إنّني في فترات متباعدة كنت أذهب إلى بيت زهير البعيد عن بيروت، هكذا من دون أن أكون قد أخطرته بذلك، فأجلس

هناك عنده منتظراً عودته. «ربع ساعة أخرى ويعود» تروح زوجته تكرّر لي فأبقى في الصالون وحدي بينما هي مشغولة في المطبخ. كنت أحبّ بيت زهير. يلائم رغبتي في التبطّل وشمّ الهواء. هناك، نستطيع أنا وهو أن نحمل طعامنا وشرابنا إلى قطعة الأرض القريبة التي لم يبدأ البناء عليها بعد، ونجلس في وسط الخضرة، قريبين من البيت إلى حدّ أنّ زهير، كلّما احتجنا إلى شيء، ينادي على زوجته، من حيث نحن، لتحضره لنا.

نجلس وحدنا، أنا وزهير كما لو أنّنا في رحلة أو في نزهة. أنا وهو فقط، وأكون سعيداً بنزهتنا. «كاسك» أقول له رافعاً كأسي. وهو، إذ يرى أنّنا سعيدان من دون أحد معنا يقول، فيما هو يرفع كأسه ناظراً إليّ: «بسّ لو كان نقولا معنا»، أو يسمّي بدلاً من نقولا واحداً آخر خطر في ذهنه، ثمّ يروح يذكّرني بأيّام ما كنّا كلّنا معاً.

أمّا أنا فيكفيني واحد، نديم واحد. هكذا أُسمّي من يكون جالساً معي. «كاسك يا نديمي» أقول لزهير بعد الكأس الثانية أو الثالثة. الآن، بتّ لا يهمّني مَن هو نديمي. هكذا أفكّر فيما أبدّل سيّارات الأجرة لأصل، مع قنّينة العرق التي لففتها بأوراق كثيرة، إلى ذلك العرزال الذي أقامه بطرس في طرف ضيعته. نكون وحدنا هناك أيضاً. أنهمك معه في غسل حبّات البندورة والخيار وورقات النعناع لنضعها بعد ذلك على الطاولة التي صنعها بطرس من الخشب ذاته الذي بنى به العرزال. «تنقصنا حبّة حامض أو حبّتان»، أقول له داعياً إيّاه إلى أن ينزل ويحضرها من شجرة في الحقل القريب. وهو، حين يعود، ينظر في وجهي فيما هو يقرّب الحبّتين إليّ ليرى إن كانتا أعجبتاني.

لا أحد ممّن كانوا شلّة الشعرا سيصدّق أنّني أذهب إلى بطرس وحدي، وأجالسه وحدي. «بطرس؟» سيقولون متعجّبين، ومتذكّرين وجهه المحمرّ من وهج الشمس ولعثمته فيما يقول ما لا يستحق قوله كلّ ذاك الجهد وهذه اللعثمة. هكذا صار محمّد صافي، سيقولون معلّقين على انفرادنا معاً أنا وبطرس الذي صار رفيقي الأخير بحسبهم.

بتّ لا يهمّني مع من أكون. ونحن في الكليّة أيضاً كنت أحبّ الخروج ولا يهمّ مع من أخرج. صحيح أنّني اعتدت رفقتهم ومعهم أقول ما يعجبني لا ما يعجبهم فقط، لكنّني مع ذلك لا أجدني متعلّقاً بهم كما هم متعلّقون بي. كان حسّان يأتي إليّ قاطعاً كلّ تلك المسافة من بيته، سائراً على قدميه أحياناً، وأنا أقول له ماذا سنفعل الآن ونحن وحدنا، إلى أين نذهب؟ أعرف أنّه قطع مسافة طويلة ليصل إليّ، لكنّني مع ذلك لا أتردّد في أن أردّه، قاطعاً المسافة الطويلة ذاتها، إلى بيته. لا أكثر من عشر دقائق يقول لي في آخرها إنّه سيذهب إذ لا شيء نفعله معاً. كذلك لم يقل شيئاً حين تركته يكمل شجاره، وحده، مع آخرين جعلوا يستفزّونه. يعرف أنّني أغيب حين يجب أن أكون حاضراً، لكنّه لا يفصح ولا يقول.

وهو، ومعه الآخرون، أجّلوا ذلك ليضيفوه إلى الصفات التي لشخصي الثاني. أقصد الشخص الذي صرته بعد كلّ ما عرفوه عنّي. أنا، حين يفكّرون بي، شخصان اثنان. محمّد صافي القديم، ومحمّد صافي الذي يستهجنون كلما سمعوا خبراً من أخباره. أهذا هو؟ يعلّقون في كلّ مرّة. أهذا هو محمّد صافي الذي...؟ حين يأتون ليذكروا شيئاً ممّا عشته معهم يجدون أنفسهم عاجزين عن جمعه بجملة أو جملتين. لكنّهم يخرجون دائماً شيئاً ممّا يتذكّرونه ليقابلوا

به كيف أنّني لم أعد الشخص الذي كنته. ولديهم في ذلك مخزون لا ينفد.

أنا شخصان اثنان. ما زالوا متعلّقين بأولهما ولا يتوقّفون عن تذكّره، وليس دائماً لكي يقابلوا بين ما كنته وما صرت إليه. ذاك لأنّهم ما زالوا متعلقين بتلك السنوات الأولى، سنوات الكليّة. لا يريدون لها أن تُمَسّ أو أن تتشوَّش، لذلك أبقوني فيها كما كنت. بالتفاصيل ذاتها ما زالوا يروون كيف رحت أقود صالح، وأنا جالس على مقعدي في الساحة المشمسة، ليحصل على تلك القبلة من كاتيا. وقد أشاعوا بين آخرين كثيرين كيف أنّني قلت عن تلك القبلة إنّها الذروة التي بلغها لبنان. كان ذلك من أجل أن يُبقوا على تاريخ يحبّون أن يظلّ كما هو، ويظلوا هم فيه مثلما كانوا.

يحتاجون إليّ. يحتاجون إلى تلك الروايات التي ما زالوا يحكونها إلى الآن مظهرين أنّهم كانوا شركاء فيها. كانوا يحتاجون إلى بطولة ما، وأنا كنت بطلهم. لم يكن ذلك في الكلام الذي أقوله بل أيضاً في الشخص الذي صنعته لنفسي. كنت بطلهم، لكنّهم تركوني وحدي أذهب إلى حيث يكون الذهاب خطراً. كانوا يمزجون المرح بالإعجاب حين يرونني أؤلّف تلك النظرية عن الربح المؤكّد الذي سأجنيه من الكازينو. وكانوا يروون ذلك لمن يعرفونهم معيدين عليهم ما أقوله عن الربح ثمّ عودتي خاسراً أنتظر على الطريق عابراً يقبل أن يقلّني معه إلى بيروت. يحكون لهم أيضاً كيف أنّني سأصير مليونيراً من تجارة البرّادات التي سأشتريها بالتقسيط، وعن قمصان النايلون التي ثمن الواحد منها في الكونغو دولار ونصف، بأسعار الجملة، لكنّه سيباع هنا في لبنان بعشرين دولاراً. كان يضحكهم كلامي

عن المال الذي يبدو لهم، على رغم حماستي له، فكاهة وتنكيتاً لا يتوقفون عن ترداده ليضحكوا.

كان ينبغي لي ألّا أتوقّف عن أن أظهر نفسي كأنّني ممثّل على مسرح. أن أحتفل بالكلام فيما أنا أتكلم، أو أحتفل بالسعادة حين أكون ذاهباً إليها. كنت أريهم كيف يجب أن يكون الغرام حين أوقفت السيّارات التي تتقدّم من الجانبين لكي أصل إلى الرصيف المقابل حيث كانت من سمّيتها امرأتي. قفوا... قفوا، رحت أقول للسائقين فيما يدي توقف سيّارات القادمين من هنا ويدي الأخرى توقف السيّارات القادمة من هناك. وبين الحين والحين أشير إليها واقفة على الرصيف وأقول إنّها حبيبتي وقد أتت، انظروا إليها. وهم، باقين على الرصيف المقابل، يتفرّجون عليّ. كانوا كأنّهم يشاهدون فرجة، عرضاً مسرحياً في وسط الشارع اضطرّ سائقو السيّارات إلى المشاركة فيه.

هذا ما كان عليّ ألّا أخسره. تلك النظرة من حسّان، النظرة المتفاجئة وغير المصدّقة كانت من بين الخسارات الأولى. كنّا في بيت أهلي وبين يديّ ابن أختي الصغير الذي كان لا يزال في أشهره الأولى. بالحدس عرفت أنّ حسّان كان يتحيّن الفرصة للخروج إذ بدوت له، مع ذلك الطفل الصغير، مختلفاً عمّا كان يعرفه منّي. كنت أحسّ بذلك وأعرفه. ولذلك رحت أتصرّف مع الطفل كأنّي أتنصّل ممّا أفعله له. كأنّه رُمي عليّ وانصرف عنه من كان يجب أن يعتنوا به. هي لا تطيل غيابها هكذا، قلت لحسّان مفتعلاً تلك الابتسامة التي أبدو فيها مرتبكاً بما أُلقي عليّ. ولم يفد أن أُشركه معي. لم يعرف كيف يبقي الطفل ممدوداً على ذراعيه المتقدّمتين إلى الأمام، كأنّه يعرضه لأحد ينبغي أن يسرع لتخليصه منه. كنت

أعرف كلّ ما يحسّ به نحوي. كأنّي التقطت شيفرته أو التقطت موجة الذبذبات التي تتواتر في رأسه. وكنت، رغم ذلك، أخطئ في تصرّفي. لم يكن ينبغي أن أنحني بجسمي كلّه لألتقط، من تحت الكنباية، تلك اللعبة المطاطية التي توقف بكاء الطفل. كنت أشعر بحسّان ينظر إليّ من الأعلى، إلى ظهري المتقوّس وكتفيّ المنحنيتين وأنا حاشر رأسي في ذلك الفراغ القليل بين أسفل الكنباية وبلاط الأرض.

* * *

تركوني وحدي أذهب إلى حيث يكون الذهاب خطراً. حين رافقوني إلى الكازينو، في تلك المرّة الوحيدة، كان ذلك من أجل أن يتفرّجوا، ومن أجل أن يختبروا إن كان يمكن لخطّتي في الربح أن تتحقّق. «لكنّك خسرت» قالوا... «بل إنّك تخسر كلّما أتيت إلى هنا» أضافوا قبل أن أُكمل الجملة التي كنت سأوضح لهم فيها أنّي خسرت لأنّ المصاري التي معي قليلة، وأنّي لذلك أحتاج إلى أن يشاركوني اللعب بالمِنح التي يقبضونها من الكليّة. لم أكمل، بل إنّني دعوتهم إلى أن نقف قليلاً عند واجهة الكازينو لنتفرّج على روعة مطلّه. ذاك لأنّي كنت لا أزال أستطيع أن أتمتّع بمنظر ذاك الخليج على الرغم من أنّني خسرت للتوّ كلّ ما كان معي.

أن يجازفوا بمنحة الشهر ليس واحدة من المغامرات التي كان يمكنني إقناعهم بها. وأنا كنت أتخيّل تلك الحركة التي يقوم بها الأولاد الصغار حين يشدّون قبضاتهم على ما يخبّئونه في داخلها. هكذا أتخيّلهم كلما قالوا إنّ المنحة هذه يجب أن تكفيهم حتى آخر الشهر. لا أفهم كيف يمكن لأحد أن يمنع نفسه عن شيء أسال

لعابه بحجّة أنّ المنحة يجب أن تكفيه لآخر الشهر. سمك هذا المطعم طيّب ورائحته طيّبة أقول لهم فيكملون طريقهم مفضّلين بقاء المصاري في جيوبهم. كنت أقول لهم أيضاً إنّني أتعجّب كيف يستطيع صاحب بناية أن يصبر على بيعها. بل أتعجّب كيف لا يبيعها بخمسين ألف ليرة حتى لو كان ثمنها مليوناً. ولم يكن ذلك من باب الكلام فقط، فهكذا كنت أفعل مع كلّ شيء أقبضه. وهكذا فعلت حين رضيت بأن أترك البيت لمالكه مقابل أربعة آلاف ليرة أنفقتها كلها قبل أن يطلع الشهر الجديد، وهكذا فعلت أيضاً حين خُيّرت بين أن أقبض تعويضي كاملاً أو أن يُقسّط لي شهراً بعد شهر من أجل أن أضمن مستقبلي كما كان يقول أولئك المصرّون على نصحي.

الفصل التاسع

حين تلقيت ذلك الاتصال من إدارة المستشفى فكّرتُ أنّ بوليت أحلّتني محلّ ماهر في الاهتمام بها. قالت لي المتحدّثة من هناك أن لا حاجة الآن لإبقاء مريضتنا عندهم وإنّ معاملات خروجها قد أنجزت. تلك الطريقة المستعجلة في الكلام، شبه الآمرة، جعلتني غير منتظر أن تجيب المتحدّثة عن سؤالي عن حال بوليت. قالت إنّها لا تعرف، وإنّ عليّ أن أسأل الطبيب الذي، إن وصلتُ قبل الثانية عشرة والنصف، سأجده ما يزال في المستشفى.

بمزيج من القبول بالاختيار الذي وقع عليّ، والشعور بوطأته في الوقت نفسه، أسرعت بالنزول إلى المرأب المركونة فيه سيّارتي. بدا لي كما لو أنّني نُقلت، فجأة، إلى نهاية طريق كنت أفضّل، عند كلّ من منعطفاتها، أن أختار أيّ منعطف منها أسلك. لكنّني، مع ذلك، بدوت مستعجلاً الوصول إلى المستشفى. بل بدأت، من فور خروجي من الشارع الذي أنا فيه، أنزعج من احتمال أن تعوقني الزحمة التي أخّرتْنا في المرّة الماضية أنا وماهر. وإذ ظهر لي وجهه، يسوق مسلّماً بالتقدّم البطيء للسيّارة، أراحني أن أكون هناك في المستشفى وحدي هذه المرة، متخلّصاً من الشعور

الثقيل برقابته، وكذلك من الشعور الثقيل بموافقته، المريبة دائماً، على أن نُترك معاً أنا وبوليت.

كنت قد رفعت يدي لأقرع باب غرفتها حين أوقفتني الممرّضة. كانت تلهث من هرولتها ورائي في الممشى الطويل، وقد اعتذرتْ عن ذلك قبل أن تسألني إن كنت أنا الذي جرى الاتّصال بي. وحين أجبتها عن ذلك أبلغتني بأنّ الطبيب يريد مقابلتي أولاً. «بتريد نروح لعندو هلّق؟» سألتني، بل بدت منتظرة تلك الإيماءة الموافقة منّي. ونحن نصعد الدرجات إلى الطابق العالي سألتها، مستخدماً لغة المستشفيات، إن كانت حالة بوليت استقرّت الآن. «الدكتور هوّي بيقلّك... نحنا ما بنعرف».

في مكتبه الضيّق سألني إن كنت الشخص الذي اتّصلوا به. ولما أجبته عن ذلك هو الآخر قال لي إنّها هي، بوليت، مَن طلبت أن يُتّصل بي.

– وهلّق رح تضَهِّرا؟

– بفتكر، هيك قالولي.

– لوين؟

– مش لازم عبيتا؟

– كنت بس عم إسأل... على كلّ حال إنت رح تتفاهم معها، قال فيما هو ينظر إلى شاشة تلفونه الذي لم أسمع صوت رنينه.

– ... إيه، كنّا عم نقول لوين بدك تاخدا...

– يعني حضرتك بتنصح بمحلّ تاني؟

– وين...؟

– يعني على غير بيتها؟

– لا... لا، المهم ترتاح. «ترتاح كتير» أضاف مقوّياً صوته ومنبّهاً إيّاي، بنظرة محدّقة، إلى أن أفهم جيداً ما قاله، بل ما لم يقله.

كان ينتظر خروجي بعد ذلك. وهو، إذ رأى أنّني ما أزال واقفاً في مكاني، أعاد النظر إليّ وسألني إن كنت في حاجة لأن أفهم شيئاً. مرةّ أخرى اهتديت إلى ما يقال بلغة المرض والمستشفيات:

– يعني هل هي بحاجة لعناية خاصّة دكتور؟

اعتدل في وقوفه، كأن من أجل أن يُظهر لي مدى جدّية ما سيقول:

– يعني اللي لازم إنو حدا يضلّ معها، شخص قريب مثلاً، أو ممرّضة إذا كان هالشي ممكن.

هذه الجملة الأخيرة، أرفقها بنظرة رآها كافية لأفهم أنّ موضوع الممرّضة عائد إليّ.

– إذا كان هالشي ضروري...

قاطعني:

– نحنا ما بنحب نضغط على أهل المريض، لإنّو بنعرف إنّو وضع الناس صعب. بس مريضة متل بوليت...

وهنا، بذكره اسمها لأول مرّة، بدا مستعدّاً ليكون أكثر قرباً، وأكمل:

– لازم ما تكون لوحدها. مش رح يصير شي مفاجئ كتير، بس الأحسن يكون حدن موجود. متل ما صار آخر مرّة، لما صار معها العارض القوي. لو كانت لوحدها كانت الأمور أصعب عليها.

– وها الشي رح يصير دايماً؟

– محتمل، محتمل كتير، كمان محتمل يتطوّر. أنا رح أعطيك رقمي، هيّي معها كلّ شي بس خَلّي كارتي معك.

– لازم أعرف شي تاني بعد؟ بقصد هلّق قبل ما إضهر؟

– على كلّ حال هي بتعرف شو لازم ينعمل. الأدوية معها وهي بتعرف كيف تاخدا.

وأنا خارج من مكتبه الصغير قال لي إنّ الأوراق جاهزة ولا مشكلة في الخروج. كانت المتحدّثة على التلفون قد لمّحت إلى ذلك، ولهذا فكّرت بأنّه يعيد عليّ ما لا بدّ قد عرفته لتذكيري بما كان قد قاله عن الحاجة إلى ممرّضة.

في الممشى الطويل ظهرت الممرّضة ثانية. ابتسمت لي بعد أن أغلقت الباب الذي خرجت منه وسألتني إن كانت بوليت ستخرج الآن. كانت تنتظر ذلك لا بدّ، لكنّها أرادت أن تظهر لي ذلك التعبير الودود تجاه بوليت. قالت لي إنّها طيّبة ولذيدة وإنّ الجميع يحبّونها هنا. ثمّ أعقبت ذلك بقولها إنّها دقائق وستلحق بي إلى الغرفة.

* * *

– عرفت إنّك جيت، خبّرتني نادين.

كانت مبتسمة ووجهها رائقاً. وقبل أن أخطو إليها على السرير سألتني إن كنّا سنخرج الآن. أومأتُ برأسي موافقاً ثمّ، قبل أن أميل نحوها لمعانقتها، تعمّدت الجلوس على تلك المساحة الباقية من السرير، هناك حيث وضعت يدها داعية إيّاي، في الزيارة السابقة، إلى الجلوس. احتضنتني وشدّت يديها حول رقبتي. قالت لي إنّها تشعر بنفسها مرتاحة وفرحانة، وإنّها تحبّ الآن أن تمشي على الكورنيش، «حدّ البحر، مش كتير، خمس دقايق بس. تلات دقايق إذا بدّك. وَيْنا نادين... قالت إنها رح تجي تلبّسني. عيّطلا، فيك تعيّطلا...؟».

حين وصلنا إلى الكورنيش كانت قد تراجعت عن رغبتها في النزول إليه. قالت إنّها ستنظر إلى البحر من حيث تجلس في السيارة، لكن على أن أسير بها على مهل، كأنّنا نتنزّه. على رغم ضوء الشمس القوي، كان الموج يعلو مسقطاً رذاذه على الرصيف العريض. وكان يضحكها أن ترى الماشين يفرّون، نازلين عن الرصيف، كلّما فاجأهم سقوط الرذاذ. «شوف هيدا... شوف...» تقول لي هازّة إيّاي من كتفي لكي ألتفت مسرعاً وأرى أحدهم في لحظة تعرّضه لرشيش الماء. ثمّ تعود إلى الضحك من جديد حين تدعوني، مرّة أخرى، إلى أن أنظر إليه كيف يتطلّع متفاجئاً بثيابه المبلّلة. «طيّب ليه ما كان منتبه من قبل»، تقول ناظرة إليّ كأن من أجل أن أجيب عن ذلك. «يمكن هيك هوّي بدو» أقول، عارفاً أنّي لم أنطق بشيء يُعجب.

– هلّق لوين بدّك تاخدني؟

– لوين بدِّك؟ أجبت متخوّفاً من أن يكون لديها اقتراح آخر غير بيتها.

– مش حابّي روح عالبيت.

لم أعلّق، وبقيت سالكاً الطريق التي ستوصلنا إلى هناك.

– قصدي هلّق مش حابّي روح. لازم يكون في وقت بين المستشفى والبيت. ساعتين متلاً، أو تلاتة.

– بس أنا مشغول، ما فيّي إبقى بَرّا أكتر من هيك.

– طيّب، قالت مسلّمة بأن ليس لديها خيار آخر.

* * *

لكي لا يستغرق بقائي عندها أكثر ممّا تحتاج إليه لراحتها من تعب الوصول، أوقفت سيّارتي، عن قصد، في مكان غير مناسب. مشيت مسافة الطريق القصيرة وأنا ممسك بيدها وحامل، بيدي الأخرى، الحقيبة التي كانت الممرّضة نادين قد سلّمتني إيّاها. في المصعد وقفنا صامتين ومنفصلين. وعلى سفرة الدرج الضيّقة، وفيما هي تتردّد في أن تتقدّم لتفتح بابها أو أن تمرّر المفتاح لي لأقوم بذلك عنها، سألتني إن كنت أريد أن أرافقها إلى الداخل. «مش هالقد مستعجل» أجبت وأنا أفتح الباب وأقول، بهدوء مقصود: «تفضّلي مدام». «مرسي موسيو» أجابت متهكّمة فيما هي تخطو إلى الداخل ملتفتة إلى الحقيبة لتتبيّن إن كانت لا تزال وراءها.

– إذا مشغول فيك تروح.

– مش قبل ما ترتاحي شويّ من الطريق.

* * *

كان عليّ أن أكون حذراً، حاسباً كلّ حركة أقوم بها أو أيّ شيء أقوله. كل خطوة متسرّعة ستعني أنّي أتصرّف مستجيباً لرغبتها في أن أكون أنا الذي ستبدأ معه، منذ الآن، خروجها الجديد من المستشفى. لم أكن رافضاً لذلك، أو مستبعداً له، لكنّ ذلك الشعور بثقل ما أُلقي عليّ ظلّ ملازماً إيّاي، بل إنّه أرجع رغبتي المتردّدة نحوها مسافة إلى الوراء. ما كنت أسعى إليه معها هو أن أتقدّم بخطوات صغيرة، هذه التي أعرف أنّني قد حققت، حتى الآن، بعضاً منها. خطوات صغيرة، لأتأكّد بعد كلّ خطوة أقطعها أنّني قبلت معها بما لم يكن يجذبني في النساء من قبل. خطوات صغيرة، أقطعها واحدة بعد الأخرى، من أجل أن أتغلّب على تردّدي إزاء

الجسم القليل والساقين النحيلتين واليدين اللتين أروح أتساءل، كلما أمسكت بهما، إن كانت رغبتي في تحسّسهما وإبقائهما في يدي خطأً وشذوذاً. كان عليّ أن أنمّي ما أشعر به نحوها، أن أقوّيه، بل أن أثق به.

خرجتُ وتركتها وحدها في بيتها، متسبّباً بأن تنطفئ فيها تلك الحيوية النشطة التي لازمتْها في أثناء ما كانت تستعدّ لمغادرة المستشفى. كانت تحبّ أن تحتفل بهذا الخروج، وها أنا أقفل الباب عليها لأسرع إلى سيّارتي التي أوقفتها عمداً في المكان الممنوع. خرجت وأبقيتها في الداخل، واقفة، في منتصف غرفة الجلوس لترى كيف سيكون خروجي. وفيما أنزل مهرولاً على الدرجات، شعرت بأنّي سعيد ومرتاح لكوني وضعت ما سيكون بيننا على الطريق الصحيح.

* * *

– ألو ماهر.

– أيوه...

– أنا حسّان. مبيّن كإنّك مشغول؟

– لا... مش مشغول بس علقان بعجقة ناس هون بمبنى البلدية.

– كيفك؟ قلت، وكنت سأكرّر كلمة مجاملة أخرى من أجل أن يبدأ هو بذكر بوليت.

– أنا ماشي الحال... تعّبناك اليوم.

كان يعلم، بل بدا ممّا قاله «تعّبناك...» كأنّ ما قمتُ به كان واحداً من الإجراءات التي أنجزها هو قبل ساعة أو ساعتين من وصولي إلى المستشفى. وأنا، مستمرّاً في استدراجه، قلت له إنّ

المعاملات في المستشفى أكيد أهْوَن من تلك التي في الدوائر العقارية. لكنّه، للمرّة الثانية، أسرع إلى قول ما كنت أنتظره: «هيّ اللي طلبت إنّو إنت تضهِّرا».

– وهيك صار... مروراً بالكورنيش، قلت مقدّماً نصيبي من الإفصاح عن المعلومات.

– انتبه، كمان بدّا إنّك تاخدا لعند وداد، اليوم قبل بكرا.

بصراحته القليلة هذه، لا يفتأ ماهر يحيّرني. منذ البداية لم أفهم هذه الصلة التي تجمع بينهما. هل يحرّضني على أن أذهب قدماً معها، ثمّ من أيّ موضع يفعل ذلك. في أحيان أفكّر أنّه، في بقائه إلى جانبها، يبدو أقرب ما يكون إلى عاشق خائب، أو أراه مثل زوج انفصل عن زوجته لكن من دون أن يتوقف عن القيام بدور الوصيّ. وفي مرّات، إذ يستفحل سوء ظنّي به، أقول إنّه مثل صديق البطل في الأفلام العربية، حتى وإن لم يكن هناك من بطل... وهذا مستمرّ ربّما من أيّام ما كانا، هو وهي، طالبين في الكليّة.

الفصل العاشر

كان شوقي هو الذي دبّر تلك السهرة مع يوسف. لم يلزمه لذلك إلّا أن يجري معه تلك المكالمة السريعة قبل ساعة واحدة من توجّهنا إلى بيته. «أنا وحسّان قاعدين عم نشرب كاس، وكنّا بسيرتك» قال له شوقي، ثمّ، بعدما أنهى المكالمة، التفت إليّ وقال لي إنّه ينتظرنا. على الطريق طمأنني أنّنا سنكون وحدنا عنده. «لا محازبين ولا مؤيدين» أضاف جاعلاً يده تقوم بتلك الحركة النافضة التي تشير إلى أنّ ما كان يحصل في ما مضى قد ولّى زمانه. المرافقون أيضاً، أولئك الذين فُصلوا لحمايته، لم يبقَ منهم إلّا واحد، وسيكون واقفاً ينتظرنا عند مدخل البناية.

«هذا هو»، قال شوقي مؤكداً على فطنته كيف أنّه عرف بذلك سلفاً. كان الرجل يقف وحده في وسط الساحة التي ملأت السيّارات جنباتها. حيّاه شوقي فيما يفتح بابه ويقول لي أن أنزل أنا أيضاً وأترك السيّارة لأنّ «عامر بيعرف كيف يدبّرها». وكان علينا أن ننتظره وهو يفعل ذلك، مبعداً السيّارة إلى طرف الساحة ثمّ نازلاً منها لكي يفكّ قفل جنزير الحديد الذي وُضع لحجز المكان. لم يطُلْ

وقوفنا على أيّ حال. بسرعة أعاد لي المفاتيح ثمّ تقدّمَنا إلى الإنترفون ليبلغ «الأستاذ» أننا وصلنا.

في الأعلى، كان يوسف واقفاً لنا في وسط الباب المشرع. سألني، فيما هو يفتح ذراعيه لاحتضاني، كم مضى على لقائنا آخر مرّة. واستمرّ ناظراً إليّ وهو يمدّ يده لمصافحة شوقي، منتظراً جوابي عن سؤاله.

– يمكن سنة، أو أكتر شويّ.

– أكتر، أكيد أكتر، قال فيما يدعو مرافقه إلى أن يدخل هو أيضاً. «هيدا صديقي»، قال ليعرّفني بأنّه ليس مرافقه فقط. لكن، حين صرنا في الداخل، توجّه بنا يوسف إلى الصالون الواسع القليل الأثاث، فيما ذهب عامر في اتّجاه ما قدّرت أنّه المطبخ.

قنّينة الويسكي، مع كأس لم يبق فيها إلّا القليل في القعر، كانتا على الطاولة، قبالة المقعد المواجه للممشى الموصل إلى المطبخ وغرف البيت الأخرى. ذاك أنّ الشرفة التي أولاها ظهره، الشرفة العريضة الواسعة كما تبدّت لنا من الساحة، كانت محجوبة بالستائر السميكة التي تمتدّ من أول واجهة البيت حتى آخرها. «لأسباب أمنية» قال لي شوقي، وقد أعاد يوسف ذلك بأن قال إنّه، وهو هنا في البيت الوقت كله، لا يكاد يعرف الليل من النهار. وإذ علّقت ممازحاً أنّه لن يضجر مع ذلك لكون البيت كبيراً، أجابني بأنّه يبقى معظم الوقت هنا، على هذه الكنباية، قبالة القنّينة والكأس. وأعقب ذلك، فيما هو يستدير كي يحضر كأسين لنا أنا وشوقي، بأن قال إنّهم عزلوه. «عزلوني وتركوني بلا حماية» قال وهو يحمل الكأسين الفارغتين أمامنا، ثمّ، بصوت عالٍ خشن، قال إنّه يريد أن يؤتى له بالثلج. «هذه أيضاً صديقتي» معرّفاً بالمرأة الآسيوية التي

ظهرت ملقية نظرة على الطاولة. وحين أدرك أنّها أتت لتبحث عن الثلج قال لها إنّ الوعاء « not here»، اسألي عامر...». ولما تأخّر أيّ من الاثنين في المجيء دخل يوسف إلى حيث هما في القسم الآخر من البيت، مبقياً الكأسين الفارغتين في يده.

حين عاد سألتُه إن كان لا يخرج أبداً إلى الشرفة.

– مرّات بزيح البرداية شويّ، من طرفها، بس لأعرف كيف الطقس.

– طالما وقّفت شغل السياسة ليش هالقدّ بدّك تنتبه؟

– في إشيا بتضلّ عالقة. تصفية حسابات وما شابه.

– يعني إنت عْلِقت على طول، قال له شوقي على سبيل المزاح.

– إلّا إذا رجعت إشتغل بالسياسة.

– إي وشو بتعمل؟

– بصير أنا اللي بدو يصفّي حسابات.

ليس ضرورياً أن أعرف ماذا كان يفعل لأفهم أنّ ما يقصده هو أنّه قد يدير بندقيّته هذه المرة إلى الجهة الأخرى، لتكون فوهتها مصوّبة إلى من كانوا معه.

– يعني الحرب بعد ما خلصت معك، قال شوقي.

– يمكن لأنّي ما باعرف إشتغل شي تاني.

* * *

«ربّنا يساعد»، علق شوقي على ما قاله يوسف عن أنّه سيطبخ لنا بنفسه السمكة التي اشتراها عامر في المزاد. ثمّ نادى على عامر ليأتي بها إلينا. كان حجمها يفيض عمّا توقّعْنا، وكان علينا أن

نحدّق فيها ممدّدة أمامنا على الصينية التي قرّبَها عامر، من شوقي ثمّ منّي، كأنّما من أجل أن نشمّ رائحتها أيضاً. ثمّ، وهو يعود مع عامر إلى المطبخ، طلب من شوقي أن يريني البيت. من الصالون الواسع الذي نجلس فيه قدّرت أنّ الغرف هناك في الداخل ستكون واسعة وكثيرة، لكن قليلة الأثاث هي أيضاً، وربّما كان بعضها فارغاً. وقد صادق شوقي على ما أفكر فيه حين وقفنا لنبدأ جولتنا. «مش رح تشوف إلّا المساحات»، قال لي. رغم ذلك، كانت المساحة الفارغة التي لا تقلّ عن غرفة والمرفقة بالحمّام الذي يوصل إليه الممشى أولاً، مفاجئة... بدت كأنّها ممشى واسع يوصل إلى ما ينبغي أن يكون الحمّام في آخرها. قال لي شوقي قبل أن يقفل الباب لينتقل بي إلى الغرف الأخرى إنّ المهندس حمار، واعداً إيّاي بأنّ ما سأشاهده تالياً لن يكون أفضل بكثير.

عند رجوعنا سألني يوسف، فيما هو منكبّ على السمكة التي طرحها على بلاطة المجلى، إن كان البيت أعجبني. وإذ أجبته ماذا يفعل بكلّ هذه الغرف، ردّ بأنّ البيت «بين أربعميّة وخمسين وخمسميّة متر». حين عدنا إلى حيث كأسينا، علّق شوقي بأنّ يوسف كان يهيّئ نفسه لموقع يحتاج معه إلى بيت مثل هذا، لكنّه «متل ما إنت شايف!».

* * *

قلت لشوقي إنّني سأقوم وأزيح الستارة لأرى ماذا سيحدث. ذلك لم يخلُ من سخرية لما يبذله يوسف من حرص على نفسه. «بتجيك الرصاصة فوراً» ردّ شوقي مجارياً إيّاي، بل متّفقاً معي، على أن يوسف يتوهّم أشياء لن تحصل له.

– كإنو بدّو يضل هونيك... مطرح ما كان، قال شوقي.
– بدّو إنو ترجعلو الحرب.
– شو يا يوسف، جايين نحنا لنقعد لحالنا؟ خاطبه شوقي معلياً صوته كأن من أجل أن نوقف استرسالنا بالكلام هكذا عنه.
– جايي... خلصت، هنّي رح يكمّْلوا...
ولم يلبث أن أطلّ علينا وهو ينفض يديه مريحاً إيّاهما من شغله بالسمكة. كان لا يزال يخطو نحونا حين قال له شوقي إنّني كنت على وشك أن أزيح الستارة وأخرج إلى الشرفة.
– ما بيصير شي إذا عجّل وفرجاهن حالو، لازم بسرعة يعرفوا إنو هوّي هوّي مش هوّي أنا.
قال ذلك مجارياً مزاحنا، لكنّه لم يتأخر عن أن يوقفنا عمّا بدأنا به: «كاساتكن فاضية، شْرَبو... شْرَبو» قال وهو يرفع القنّينة فوق كأسينا.

* * *

ونحن حول طاولة الطعام التي وُضعت السمكة في وسطها، لم أعرف كيف أتصرّف مع يوسف. تلك المعرفة السابقة به، المعرفة الأولى في سنة الجامعة الأولى، كانت قد قطعتها السنة التي تلت. حتى ونحن على ذلك القرب من جلوسنا معاً مستمعَين، بل ومحدّقَيْن بالأسطوانات التي تدور على المسجّلة، ووعدي له بأنّي سأذهب بمفردي لأحضر الأغراض من بيته الذي قرّر أنّه لن يعود إليه، حتى آنذاك كان عليّ أن أتصرّف معه بحسب الشخص الجديد الذي صاره. لن يعجبه الآن، فيما هو يرفع نخبنا أنا وشوقي، أن أذكّره بتردّدنا إزاء الغيتار، هل نحمله معنا لنربط وتره المقطوع؟

سأبدو كأنّني أدفعه دفعاً للعودة إلى زمنٍ فعَل كلّ ما في وسعه ليتعدّاه. هنا، في عشائنا عنده، سأظلّ مترقباً ما الذي يحبّ سماعه وما الذي ينبغي ألّا أستمرّ في الكلام فيه. وله في ذلك طرقٌ. «شْربو... شْربو...» قال لنا داعياً إيّانا هكذا إلى أن نكفّ عن استدراجه إلى قبول طرف السخرية الذي ظهر في كلامنا. ربّما ما كان يريده هو أن أظلّ منتبهاً إلى ما كانه وهو في أوج ما يسمّيه عمله النضالي. ذلك الذي لا أعرف عنه شيئاً يزيد عمّا كان يتداوله عارفوه. ذلك التاريخ الذي ما زال، حتى الآن، صامتاً عنه مبقياً إيّاه سرّيّاً بحسب مقتضى الأيّام التي كان نضاله ذاك جارياً فيها. عليّ إذن أن أسلّم له بما لا أعرفه، وأنصت في الوقت نفسه إلى حكيه عن كلّ شيء سوى ذلك. كان شوقي قد أخبرني أنّه كثير الكلام ولا يتيح لمن حوله إلّا أن يستمعوا. وأنا، على طاولة عشائنا ذاك، كان عليّ أن أتحيّن الفرص لكي أقول كلمة، أو أن أندفع مقاطعاً كلامه، هكذا متعرّضاً لصدّ متكرّر يطلع من الصوت الملحّ والمُصرّ، معزّزاً باليد التي ترتفع، متدخّلة ومُسْكِتة. وستنتهي كلّ محاولة بأن أتراجع فأنا لست مثله أصرّ على أن أتصرّف بغير ما يأخذني إليه ارتباكي. كان ذلك التعرّف الجديد، أو التعرّف الأخير إليه، صعباً، وإن داخَلَه رفع أنخاب وعبارات ترحيب. شوقي كان أكثر تمرّساً منّي، ولو بقليل، إذ قال له حين سمعه يطنب في الكلام عن مهارته في المعرفة بأنواع السيّارات: «شو، كم كاس صرنا شربانين؟».

لكن، مع ذلك، على الكلمة الأخيرة أن تكون كلمته. حتى لو بفرض السطوة يجب أن تظلّ الكلمة الأخيرة له. كنّا قد شربنا كثيراً وذلك استجابة للأنخاب التي ظلّت تُرفع. وبدا، بسبب ذلك، أنّ الكلام ينزل إلى حيث تصير استعادته في اليوم التالي باعثة على

الضحك. قلت لشوقي على التلفون: «ولك ما بيقبل حدا يقول شي تاني. حتى لما إنت شهدت معي إنو اعتصام طلاب الكليّة على الشارع كان سنة 1969 مش سنة 1971 ما كان يقبل. وكمان لما قلّك إنو إنت سْمين أكتر منو، وكيف إنو بقي مصرّ على هيك حتى لما وقفتوا تنيناتكن قدّام المراية».

– هيدا قد ما بيقعد لحالو. ما بيشوف حدا غير هالتْنين اللي شفتن... عامر، وشو إسما التانية...؟ بعدين بيكفيك هالبرداية اللي بيتنقوز منها...

الفصل الحادي عشر

محمّد صافي:

كنت قد شربت كأسين قبل أن يمرّوا عليّ ليقلّوني معهم إلى السهرة. ذلك من أجل أن أدخل معتدل المزاج ورائقاً إلى ذلك البيت الذي لم أكن قد زرته من قبل. حتى قبل أن نصل بمسافة أربعة أو خمسة أبنية، قال كامل، وهو قريب لي، إنّه سيركن سيّارته هنا. «تريدنا أن نسير كلّ هذه المسافة؟»، أخذ يقول له رفيقاه الجالسان في المقعد الخلفي. بل راهنا على ضيق المكان بحيث لن يتّسع لسيّارته. «إنزلوا هون»، قال كامل، لأنّنا لن نستطيع أن نفتح الأبواب على قدر ما نحتاج للنزول. كنت راغباً في المشي، وكان الشارع مضاءً باثنين من مصابيح الطريق ما زالا يعملان. ولم أنتظر أن ينهي كامل رَكن سيّارته حتى نسير معاً نحن الأربعة. سبقتُهم، ليس فقط من أجل المشي، فقد عنّ لي أن أدندن أغنية لمحمّد عبد الوهّاب كانت تترجّع في رأسي منذ أن كنّا على الطريق. وقد بدأت الغناء بصوت ربّما كان مرتفعاً إلى حدّ أنّي ظننت أنّهم ربّما يسمعونني. لكنّهم لم يعلقوا بشيء على ذلك. ربّما مشيت أكثر قليلاً من نصف المسافة حين تباطأت بعد ذلك، ليصيروا

قريبين إليّ، ثمّ عدت إلى المشي متقدّماً عنهم أمتاراً. لكنّهم ما لبثوا أن أوقفوني قائلين إنّ الأفضل لنا أن نظلّ معاً. ثمّ قالوا بعد أن قلّلت مسافة ابتعادي عنهم إنّ المبنى هو ذاك الذي أمامنا. انتظرتهم على الرصيف. كنت لا أزال أتمتم بالأغنية، لكن من دون صوت. بل بقيت أتمتمها فيما نحن نقطع الطريق على الرغم من وقوف ذلك الرجل الحامل رشاشه هناك، عند الرصيف المقابل. وقد خطر لي، في لحظةٍ ما كنت في وسط الطريق، ماشياً إلى حيث يقف، أنّني ربّما أستفزّه ببقائي منطرباً، غير متّخذ سحنة الانكفاء أو الخوف التي عليّ إظهارها وأنا على ذلك القرب من رجل مسلّح. كان عليّ أن أُسكت الأغنية، على الرغم من أنّني لم أكن أُخرج شيئاً منها من بين شفتيّ، وأن أنكمش بجسمي قليلاً فلا أبقيه منتصباً كأنّي مغترّ بقوّته وضخامته. ثمّ ما لبثت أن عرفت أنّ ما خطر لي لم يكن مجرّد ظنّ متوجّس إذ سرعان ما تحوّل، حين صرت على قرب خطوتين من ذاك الرجل، إلى ما يشبه اليقين. وهو، حين صرت بمحاذاته، أثبته وأكّده. قال لي وأنا أرفع رجلي إلى حافة الرصيف: «أنت...»، مصطفياً إيّاي من بين الثلاثة الذين كانوا حولي. وقفت ملتفتاً إليه من دون أن أبدّل سحنة وجهي ومن دون أن أُحني كتفيّ لأكون في وضع من لا يتحدّى. سألني، فيما هو يتفرّس فيّ، إلى أين أنا ذاهب. لم أكن لأتردّد في أن أجيب أنّنا ذاهبون إلى هذه البناية، لكنّ كامل أعفاني من الإجابة متطوّعاً لقول ذلك عنّي. «لعند مين؟» سأل المسلّح فيما هو يعيد نظره من كامل إليّ، لكنّ كامل أجابه هذه المرّة أيضاً. وإذ خفت ألّا يعجبه بقائي صامتاً على سؤال آخر وجّهه لي، أضفت إلى جواب كامل ما قد يرضيه ولا يظهرني، في الوقت نفسه، خائفاً أمام مَن هم معي.

«هو صديقنا وحبّينا نسهر عندو» قلت. لا أعرف إن رأى في ذلك استفزازاً. كان عليّ أن أنتظر قليلاً، خائفاً من أن يدفعه شعوره بسطوته إلى أن يقول لي مثلاً أن أعود إلى هناك، إلى حيث كنت على الرصيف الآخر، وأعود بعد ذلك إلى هنا من أجل أن يختبر كم بدّلت في مشيتي. لكنّه ظلّ مستمهلاً نفسه، ناظراً إليّ مفكّراً ماذا يفعل بي، أنا الواقف المنتظر أمامه.

أخيراً، اهتدى إلى ما يجب عليه فعله: أن ينظر إليّ كلّي، بدءاً من رأسي نزولاً إلى قدميّ. نظرة دارسة ومهينة معاً، ثمّ بإيماءة من رأسه أشار لي بأن أتحرّك، إلى الاتّجاه الذي كنت ذاهباً إليه أصلاً.

تقدّمنا صامتين، نحن الأربعة، إلى مدخل البناية. كان ينبغي أن نتصرّف كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، مؤجّلين كلامنا إلى أن يرتفع بنا مصعد البناية طابقين أو ثلاثة طوابق. «ليش عمل هيك؟» قال لي كامل من لحظة ما رأى أنّنا صرنا مرتفعين بما يكفي...

– لأنّي كنت عم غنّي.

– عن جدّ؟ قدّامو كنت عم تغنّي؟

– مش قدّامو، عم غنّي أنا وساكت، بس هوي عرف.

* * *

كنت في أوقات سبقت أقول لمن أكون معهم إنّ ما يتعرّض له كلّ منّا يخفض منسوب الرجولة فيه يوماً بعد يوم. ولأدلّ على ذلك أضيف متسائلاً كيف يمكن أن يظلّ الرجل رجلاً كلما التقى أحداً، وذلك بعد أن يكون قد أبرز تذكرته حوالى ستّ مرات على الأقل. ولم يكن ضرورياً أن يقول رجل الحاجز شيئاً مهيناً كي تقع الإهانة.

يكفي لذلك أن تظلّ واقفاً حتى يأذن لك بأن تمشي. تخيّل أن تتعرّض لامتحان كهذا ستّ مرات في مشوار واحد، أي أن تضطرّ إلى أن تبتسم لرجل الحاجز بعد أن يقول شيئاً سمجاً يتعلّق بك، عن سواقتك مثلاً، أو عن لباسك أو عن هيئتك، فضلاً عن أن تضطرّ إلى أن تشاركه سماجته فتقول شيئاً يؤيّد ما قاله عنك. لكن في تلك الليلة، مع الرجل المسلّح أمام مدخل البناية، كان شيئاً آخر مختلفاً ذاك الذي اختبرته... شيئاً فاجأني أنا الذي أعرف أنّ جسمي، من دون تدخّل منّي، يعرف كيف يستجيب ويتصرّف. جسمي الذي يعرف عادة، هكذا من تلقائه، ماذا يفعل حين يكون عليه أن يُذعن، لم يقم بذلك في تلك الليلة. رفض، أو تجاهل وتصرّف على هواه. ربّما أغراه بذلك الكأسان اللتان شربتهما قبل خروجي من البيت.

في السهرة، هناك في الطابق التاسع، ظنّ الاثنان اللذان كانا معنا أنا وكامل أنّنا نجونا إذ أكملنا مشوارنا من دون أن نتعرّض لعقاب. حتى ونحن بعد في المصعد بدا لهما أنّ تلك الحادثة لا تستدعي التوقّف عندها إذ إن أحدهما أسرع إلى النظر في المرآة من أجل أن يغطّي بشَعره الباقي فجوة تقرّعت، فيما علّق الآخر على تلك المحاولة ضاحكاً أنّ الشعرات التي أزيحت عن مطرحها كان من الأفضل لها أن تبقى حيث كانت.

* * *

ربّما يستطيع الآخرون أن يعالجوا الإهانة بالاستخفاف بمن أهانهم، أمّا أنا فلا أستطيع. أحاول في أحيان أن أفكّر مثل كامل حين قال لي، ليحثّني على أن أندمج في السهرة، إنّ الرجل المسلّح بدا،

وهو واقف أمامي، مرتبكاً لا يعرف ماذا يفعل. ثمّ قال لي إنّه بدا قزماً يتناوط عليّ، مذكّراً إيّاي هكذا بكبر جسمي. لم أجبه بما يوحي أنّ ما يسترضيني به لا يعوّض شيئاً، ولن يُشعرني إلّا بالمزيد من نقص الرجولة، بالمعنى الحقيقي هذه المرّة لا فقط بالكلام الذي أقوله لتسلية الجالسين معي. «بتحبّ رَجّْعَك على البيت؟» قال لي كامل بعد أن رآني في السهرة قاعداً وحدي أشرب وأدخّن، أشرب وأدخّن. إذا شئت الذهاب أستطيع أن أذهب وحدي، كنت أجيبه. وحين يرجع إلى السهرة بعد ذلك، مشاركاً من فوره في النقاش الذي تعلو له أصواتهم، أروح أفكّر ماذا كان سيفعل لو كان هو في مكاني. أتخيّله سيضحك، من لحظة ما يعرف أنّ الرجل الذي هناك لم يعد يمكنه سماعه. تعوّد على أن يفوّت ما يؤذيه ويتركه وراءه. وهو ليس وحده في ذلك، بل هكذا هم الجميع. يبدأون الاعتياد من المرّة الأولى التي يحصل فيها ما لم يكونوا ينتظرون حصوله. كأنّهم عاهدوا أنفسهم على القبول بكلّ ما يجري لهم مقابل أن يظلوا أحياءً. أنا لا أستطيع ذلك، بل لا أقبله. لم أقبل بتلك الورقة التي علّقوها على مدخل بنايتنا. لم أقبل أن يتكلموا باسمي من دون علمي. «أهالي هذا الحيّ يستنكرون ما صدر عن...». أنا من أهل هذا الحيّ ولم أستنكر. هذه اسمها، بلغة كاتبي البيان، مصادرة. لا أقبل أن أُصادَر. هذا لا أقبله. لن أسكت عنه. قلت لكامل حين أتى للمرة الثانية أو الثالثة ليسألني إن كنت أريد أن يوصلني إلى البيت إنّي سأذهب الآن وحدي. «مش رح تعرف توصل...» قال لي فيما أقوم مسنداً يديّ إلى الطاولة الصغيرة التي أمامي. «أنا رايح لوحدي...» قلت بنبرة ساخطة بعد أن صرت واقفاً على رجليّ. «إنت ما فيك تروح... ما فيك تروح لوحدك، لإنّك سكران مطفي... كم كاس

شربت...؟» قال فيما يقرّب يديه منّي متهيّئاً لأن يمسك بي إن هويْت.

رفضت حتى أن يوصلني إلى المصعد. «إنت خلّيك هون، خلّيك هون... إيه؟» صرت أقول له وأنا أضغط على ذراعيه بيديّ الاثنتين كأن لأثبّته حيث هو في مكانه. هناك في المرآة كان وجهي متغضّناً وأحمر، ولأظلّ متمكّناً من الوقوف، أسندت ظهري إلى جدار المصعد الذي خضّني توقفه فجأة هناك في الأسفل. كنت أتمايل وأنا أمشي في المدخل، ثمّ، بعد أن صرت على الرصيف، وقفت متطلّعاً حولي لأعرف في أيّ اتّجاه أذهب. حين لمحت المسلّح لا يزال هناك، مبتعداً هذه المرّة عن مدخل البناية، رأيتني، كأن من غير قصد منّي، أتقدّم إليه، محاولاً ضبط ترنّحي وإمساك الويسكي عن الصعود إلى حلقي.

– إنت اللي وقّفتني أنا وماشي عم غنّي، قلت له كأنّني أنذره بأنّني سأفعل شيئاً بعد أن يجيب. لكنّه جعل يبتسم وصار ينقّل بصره بين هنا وهناك كأنّه ينتظر مجيء أحد. «أنا ما بقبل...» قلت رافعاً صوتي في وجهه. لكنّه لم يكن هو. ذاك الرجل الذي كان هو لم يعد هنا. «إنت جيت بدالو للّي كان هون» قلت بنبرة من يسأل هذه المرّة. «لأ مش أنا، هوّي» قال مشيراً بيده إلى أحد يسير نحونا. «هوّي اللي كان هون؟»، عدت إلى سؤاله. لكنّني لم أنتظر جوابه، بل أدرت وجهي إلى الآخر الذي بات واقفاً بقربه. «إنت ليه وقّفتني؟ إنت شو؟ شوف... أنا ما بقبل. إنت لازم تعرف إنو الناس...». سبقني الويسكي فلم أقل ما كنت سأقوله. طلع بخبطة واحدة واندفع إلى الخارج مخلوطاً بأشياء صفراء كانت في بطني. لم أعرف إن كنت استفرغت من تلقائي أو من خبطة أتتني من أحد

منهما. كانا قد تراجعا إلى الخلف حين أخرجت دفعة القيء التالية، ثمّ تراجعا مسافة أخرى متحسّبين أنّني سأستفرغ الدفعة الثالثة. سمعت أحدهما يقول، وأنا أقترب من حافة الرصيف لأقعد، إنّني سكران أخو شرموطة وإنّني طرطشت قيئي على ثيابه، بينما يقول له الآخر أن يتركني وشأني.

الفصل الثاني عشر

محمّد صافي:

بدل أن أنظر من حيث أنا إلى الشخص الذي كنته من قبل، كما يفعل جميع الناس، أراني واقفاً هناك، وأنا في أول الشباب، أنظر محدّقاً بالرجل الذي صرته الآن. قليلاً ما يحدث ذلك لغيري، بل إنّني، أنا نفسي، وجدت ذلك غريباً حين انقلَبَ موقع كلّ منّا، أنا وذلك الشاب الذي كنتُه، فجعل هو يتأمّل في ما صرت إليه بدل أن أتذكّره أنا كيف كان. غلبني انقلاب الأدوار بيني وبينه، ثمّ شوّشني حين بدا لي كما لو أنّ خطأً حصل في الطريقة التي يشتغل بها عقلي. كأنّ شيئاً تبدّل في وقوفنا أمام المرآة فصار الذي في داخلها هو الذي يحدّق بالآخَر الواقف ليتمرّى قبالتها. ليس من المعتاد أن يقف أحد في ماضيه ويطيل النظر إلى نفسه وقد صار كبيراً، ليكون أمام نفسه مثل ابن أمام أبيه. لا أقول إنّ ذاك الشاب كان يمتحنني، أو يفكّر إن كنت أعجبه أو لا أعجبه. كان ينظر إليّ فقط، ساهماً فيّ. ولم يكن يتساءل عن شيء، ولا يبدو عليه أنّه سيتكلّم ليقول شيئاً. ربّما كان مندهشاً فقط لأنّ كلّ ما جرى في السنوات التي أعقبت عمره، السنوات الثلاثين أو الأربعين التي

تفصل بيننا أنا وهو، لم يكن يتوقّع حدوثه أبداً. كان يراني أعيش في عالم غريب، لا يعرف منه شيئاً. وكان مشفقاً عليّ، ربّما، كيف أنّني لم أعد كما كنت، كما كان يعرفني. وكيف أنّ الخيط الذي من المفترض أن يجمعنا معاً، أنا وهو، قد انقطع.

أن أسلّم الآن بأنّي خسرت فهذا، حتى هذا، تأخّرت عنه وفات أوانه. تلك البطولات التي كنت أراها في نفسي، ويرونها فيّ، استدرجتني إلى أن أستمرّ في لعبها، وقد بقيتُ كذلك حتى إلى ما بعد انتهاء التصفيق الذي كان يؤدّى لها. متأخّراً عرفت أنّ عليّ أن أقلع عن ذلك، في كلامي وفي عيشي. ليس فقط لأنّه لم يعد يفيد أو لم يعد يعمل، بل لأنّني بتّ منساقاً بدوافع أخرى تُملى عليّ من داخلي. تلك التي يسمّونها الغيرة لم أكن أعرفها فيّ. ربّما لأنّني، في ذلك الزمن الذي سبق، لم أحسّ بأنّ أحداً ممّن أعرفهم، وممّن لا أعرفهم، يمكن أن يعرّضني لها وجودُه أمامي أو إلى جانبي. كيف يمكن أن يحدث ذلك حين كان ما يُنتظر منّي هو أن أتكلّم لا أن أُصغي. لا أقصد شباب شلّة الشعرا في الكليّة، بل الأساتذة أيضاً، الدكاترة، وأيضاً الكهنة والمطارنة، والأدباء الذائعة أسماؤهم، كما أولئك الذين لم تكفهم أمجاد القيادة التي ظفروا بها. كنت أرى في عيونهم تلك الالتماعة التي يقدحها اندهاشهم بالكلام الغريب الذي يسمعونه منّي. ذاك الكلام الذي يحتاجون إلى أن تطول صفنتهم فيما هم يفكّرون كيف تألّف، وهل يمكنه أن يكون صحيحاً وهو على هذا القدر من الطرافة والتبجّح. الغيرة، التي لم أكن أعرفها، بتّ أحسّها وقد طلعت فجأة من داخلي المعتم. وكنت، لشدّة كرهي لها، أعاقب نفسي بنفسي فأتخيّل أنّني أصفع خدّيَ واحداً بعد الآخر. بل ويخطر لي أن أخبط رأسي بالحائط خجلاً ممّا

أوقعت نفسي فيه. ليس أنا الذي فعل هذا، قلت حين عدت إلى المقهى الذي كنت فيه بشارع الحمرا، والذي كنت قد غادرته من أجل أن أرى ماذا تفعل سعاد هناك مع الشاب الذي كانت تواعدت معه. كنّا معاً حين جاء هو إلى طاولتنا. «نص ساعة وبرجع»، قالت سعاد، «... بس فنجان قهوة» أضافت فيما هي تغادر مبتسمة لتبدو في خروجها مع الشاب كأنّها تكيدني وتمازحني في الوقت نفسه. لكنّني لم أصبر على غيابها معه. لا أكثر من عشر دقائق قمت في آخرها إليهما حيث يجلسان في المقهى القريب. «شو غِرتْ...؟» قالت ملقية نحوي تلك النظرة المعابثة التي تعني أن ليس من معنى للحاقي بها إلّا الغيرة. ولم أعرف كيف أبتسم، أو كيف أجد عذراً لأبقى هناك واقفاً في الوسط بينهما، ولا حتى أن أجد شيئاً أقوله لأبرّر به عودتي إلى حيث كنت. ما فعلتُه كان الأسوأ على الإطلاق. من دون أن أهيّئ لذلك بسبب اضطراري أو غير اضطراري، قلت لها أن تقوم. وهي، حين تلقّت ذلك، تجاهلته كأنّها لم تسمع. ظلّت تنظر إلى ذلك الشابّ، مبقية وجهها على مسافة قليلة من وجهه. «أنا قلت قومي» أعدت ما قلته بنبرة آمرة. ربّما كان النبيذ الذي شربته في ذلك المقهى الأوّل أسكرني، أو ربّما عاودني ذلك الشعور بدالّتي عليها. لكنّها بدت كأنّها لم تسمع أيضاً، بل إنّها تصرفّت كما لو أنّ نبرتي تلك لن تؤدّي إلّا إلى مزيد من القرب بينها وبين ذلك الشابّ. راحت تبتسم له، ابتسامة العشق ذاتها، تلك التي تجعل العينين سابحتين في الوجه المقابل القريب. كنت مدركاً أنّه مأزق أوقعت نفسي فيه، وأنّني سأزداد فيه تورّطاً. لم يكن أمامي إلّا أن أتراجع. مددت لها يداً مصالِحة لكي تمسك بها وتقوم، لكنّها رفضت. ثمّ أبعدت وجهها عن ذلك الشابّ، لا لتنصرف

عنه، بل لتفهمني، بجلوسها محدّقة في نقطة ما على الطاولة أمامها، أنّها ستظلّ هكذا صامتة لا تستجيب لشيء حتى أغادر. ولم يأت ذلك الشابّ بحركة. ظلّ ساكتاً مبعداً نظره نحو المارّة وراء زجاج المقهى، متخلّصاً هكذا من أن يصيبه شيء من المواجهة الجارية أمامه. انتصر عليّ، وهو سيزيد انتصاره مع كلّ ثانية أظلّ فيها واقفاً حيث أنا، حائراً ماذا أفعل. انتصر عليّ وهزمني، وهزمتني هي. ليست الغيرة وحدها، بل الجبن أيضاً. فقد تقصّدت أن أبدو، فيما أنا أخرج خابطاً قدميّ بالأرض، أنّني أهدّد، أنّني سأنتقم، عارفاً مع ذلك أنّني لن أقدر على فعل شيء.

الفصل الثالث عشر

«هاي هيّي وداد» قالت بوليت صارخة بفرح طفولي كاد يرفعها عن مقعدها. كانت قد قالت على التلفون إنّها ستنزل وتنتظرنا على الطريق، وذلك بعد أن راحت بوليت، عند كلّ منعطف نصل إليه، تقول إنّها لا تعرف أين نحن وإنّها لا تتذكّر شيئاً. حين ظهرنا لها لوّحت لنا بيدها التي لا تزال ممسكة بهاتفها الذي بقيت تحمله كي نعود ونتّصل بها إن أضعنا الطريق، على الرغم من قِصر المسافة الباقية. ثمّ مدّت تلك اليد ذاتها داعية إيّاي إلى أن أتوقّف هنا، حيث يكون وجهها قريباً من الزجاج الذي كانت بوليت قد فتحته حتى منتصفه. «بدّي قلّك وين تصفّ» قالت لي من أجل أن تمشي أمامي وأتبعها. لم تكن مسافة طويلة على أيّ حال. لا أكثر من أمتار وقفتْ بعدها في وسط الطريق الضيّقة وأشارت لي أن هنا. أدرت سيّارتي إلى المدخل الواسع لما كان في الأصل دكاناً عادياً على الأغلب. وعندما نزلتُ من السيّارة قالت لي، من قبل أن نباشر كلمات الترحيب والاستقبال، إنّه لواحد من جيرانها، وهو أذِن لها بأن نركن فيه سيّارتنا.

«ما تغيّرت» قالت لي بعد مصافحة سريعة، ثمّ اسرعت إلى بوليت لتحتضنها بذراعيها الاثنتين ثمّ لتتراجع عنها خطوة كي ترى وجهها من ذلك القرب. قالت لها إنّ صحّتها جيدة وإنّها تراها الآن أفضل ممّا كانت في لقائهما آخر مرّة. ثمّ قالت لي، مستعيدة عبارة «آخر مرّة» في ما خصّني: «بتتذكّر آخر مرّة وين التقينا؟». «بالمودكا» أجبتها. هزت رأسها موافقة، ثمّ عادت إلى بوليت لتقول لها إنّها كانت تنوي الذهاب إلى المستشفى لتزورها، لكنّ ماهر طمأنها أنّ المسألة بسيطة وأنّهما، هو وبوليت، سيزورانها هنا في المخيّم.

هي كلمة واحدة عن ماهر، إذ لم تنتظر وداد تعليقاً أو إيضاحاً لماذا أنا الذي جئت لا هو. وقد أربكني أن أبدو لها في هيئة من انتقل من واحدة إلى صديقتها، على رغم انقضاء الوقت الطويل. لكن ذلك لم يكن ليتشبّث بي إذ فكّرت أنّ هذا الزيّ الذي ترتديه يُبعد ما كان جرى بيننا ويزيد من فوات الزمن عليه. كما سيعفيها من أن تفسّر لنا، فيما نحن نصعد إلى بيتها في الطابق الثاني، أو تعتذر لنا، عن تكسّر أطراف الدرجات وتساقط أجزاء من الدرابزين الباطوني. بدلاً من ذلك كانت تلتفت إلى الوراء، حيث نتبعها، لتسأل بوليت إن كان الصعود يتعبها. كانت قد تغيّرت، بالقدر الذي يتناسب مع زيّها. تدلّ على ذلك غفلتها عمّا بقي ظاهراً من جسمها: قدميها اللتين تركَتْهما مكشوفتين، ومشيتها النشطة غير المكترثة بأنّها مُشاهَدة من الخلف.

«تفضّلوا، هيدا بيتي» قالت مخاطبة إيّاي، لا بدّ، فالبيت معروف لبوليت التي، رغم ذلك، أسرعت إلى أن تقول بشيء من الدهشة: «في إشيا مغيّرة». «أبداً... ما شي» علّقت وداد، بنبرة شبه حازمة،

كأن من أجل أن تقول إنّه بيتها وإنّها راضية به هكذا. لم يكن داخله مختلفاً عمّا يوحي به خارجه. بدلاً من المقاعد وُضعت طرّاحات فوق ما يشبه مصطبة غطّت جدارين متلاصقين من غرفة الجلوس. في الوسط رُكنت طاولة منخفضة غُطّيت بشرشف مطرّز، ثمّ طاولة مرتفعة في الزاوية توسّطتها مزهرية فارغة. وهناك عند الزاوية الأخرى خزانة يكاد علوّها يصل إلى السقف.

لا لوحات معلّقة على الجدران، ولا أثر لتلك الأشياء الصغيرة التي تخيّلتُ وجودَها، والتي كانت ستميّز بيتها عن البيوت المجاورة له. بدا واضحاً أنّ كلّ ما يعود إلى ماضيها تركته هناك في ماضيها. وها هي تدعونا إلى الجلوس، بذراع ممدودة، على الطرّاحات، بما بدا لي تأكيداً آخر منها أنّها هكذا تريد أن تكون، مثلها مثل الآخرين الذين أرادت الإقامة بينهم.

ربّما كانت بوليت مهتمّة بما أفكّر أنا فيه حين سألتْها، هكذا بما بدا انتباهة منها غير متوقّعة:

– كيفك معهن، بعدك بتحبيهن؟

– مين؟

– هنّي، Les gens qui vivent ici، قالت بوليت راسمة بيدها دائرة أحاطت بها الناس الذين تفترض أنّهم يعيشون حولها.

– كلّ الناس بيقدرو يكونوا صعبين، بسّ ماشي الحال... بدكن قهوة أكيد؟

هززت رأسي مرحّباً، وعلى الفور استدارت نحو المطبخ.

– Tu veux que je vienne avec toi?

– إذا بدِّك... أجابتها وداد.

***

امتناعها الزاجر الذي صدّتني به، هناك في السهرة المحبطة، ما زال ماثلاً حتى فيما هي تتقدّم نحونا حاملة صينية القهوة. كان يمكنها مثلاً، كي تكسر ارتباك بداية اللقاء، أن تمازح بوليت بشيء بعد أن رأتها جالسة على ذلك القرب منّي على الطرّاحات. لم تفعل. فقط تركت الصينية أمامنا وتراجعت لتجلس وحدها على صف الطرّاحات الآخر، مستقيمة الظهر ورافعة رأسها إلى الأعلى.

– إنتَ عن جدّ ما تغيّرت كتير، قالت لي كأنّما من أجل أن تُزيل الصمت الذي أعقب جلوسها.

– أنا ما بتذكّر إنّي كنت أعرفو، علّقت بوليت قبل أن تنظر إلى وداد متسائلة إن كانت تذكر شيئاً عن معرفتها بي.

– ما بعْرف، أجابت وداد بابتسامة أزالت بعضاً من الغضون حول فمها وذقنها. ثمّ أضافت أنّ بوليت لم تكن تحبّ كثيراً أن تنزل إلى الكافتيريا، «مش متلكن، إنتو كنتو تْضلّوا هونيك» قالت متّجهة إليّ.

لم أعرف إن كانت تلمّح إلى شيء لم تكن تحبّه في ذلك. بل خطر لي أنّها الآن تفصح عن أنّ تصرّفها الغامض آنذاك ربّما يرجع إلى أنّنا كنّا نظلّ في الكافتيريا.

– إنتِ كمان ما كنتِ تنزلي كتير على الكافتيريا، قالت لها بوليت.

– كانت بْتِخنُقْ، بسّ الكليّة كانت كلها كافتيريا، الساحة فوق والساحة الزغيرة تحت... حتى الطوابق والكولوارات...

هذه الكلمة الأخيرة، التي لم تستطع أن تقولها إلّا بلكنتها الفرنسية، أعادت لي مشهد وقوفها هناك، في الكولوار، مسندة ظهرها إلى الحائط ثمّ مادّة رجلها لتعاكس مشية الشاب ورائي، غير مهتمّة بأنّي ما أزال هناك، أرى كلّ شيء.

– إنتَ بتدخّن؟ سألتني، ثمّ سألت بوليت من بعدي إن كان التدخين يضايقها. «أنا بعدني عالقديم» قالت فيما ترفع سيجارتها المطفأة مستأذنة أن تشعلها.

أخرجت دخاناً كثيفاً وهي تقرّب السيجارة من عينيها لترى اشتعالها من ذلك القرب. بدا لي كما لو أنّها تأخّرت عن تناولها، بسبب انهماكها في مجيئنا، وها هي تعود معها إلى هدأتها المعتادة. وفي الصمت الذي لازم استنشاقاتها الأولى انشغلتُ باستعادة ما أتذكّره من تلك الليلة، متبيّناً إن كان بين ما أحفظه منها مشهد لها وهي تدخّن. كما كنت في أثناء ذلك أسترق نظرات إلى وجهها متخيّلاً، أو متسائلاً، ماذا سيتغيرّ في وجهها إن رُفع ذلك الحجاب عن جبينها المغطّى كلّه؟ هل ستبدو أصغر عمراً عندذاك؟ ثمّ شعرها، هل تسرّحه مثلما تفعل النساء عادة؟ وهل تعالج لونه بالأصباغ مثلهنّ، على الرغم من أنّها لا تكشفه لأحد؟

حتى بوليت لا تعرف شيئاً عن ذلك ربّما. ليس فقط بسبب المسافة التي تفصل بين إقامتيهما، بل أيضاً لأنّهما، وقد كانتا هكذا في السابق على الأرجح، غير متكافئتين. في علاقتهما تبدو بوليت أقرب إلى الأخت الصغيرة منها إلى الصديقة. ولم أكن أحتاج إلى وقت كثير حتى يتبيّن لي أنّها، منذ وصولنا، توقفّت عن التصرّف على سجيّتها وأنّها تجلس منتظرة ما يأتيها من وداد.

أنا أيضاً بقيت صامتاً مشغولاً بإجراء اللمسات التجميلية على ذلك الوجه.

– هلّق بعد القهوة شو بتحبّو نعمل، قالت وداد فيما هي تهبّ واقفة.

– شو فينا نعمل؟ قالت بوليت بعد تردّد.

– فينا نبقى هون إذا عبالكن، فينا نحضّر شويّة إشيا ونجيب إشيا من برّا.

– منضهر، شي محلّ عالبحر، تدخّلتُ معلناً بصراحة عن رغبتي في الخروج.

* * *

من مشيتها على الرصيف العريض للكورنيش البحري أستطيع أن أتصوّر المرّات الكثيرة، بل مئات المرات التي نزلتْ للتنزّه عليه وحدها. من الخلف، حين أتركهما تتقدّمان عنّي يظهر لي مشهدها مرتاحة في المكان الذي تعرفه والمعتادة عليه. ذلك السواد الهابط من قمّة رأسها إلى قدميها لم يقيّد حرّيتها في المشي، فها هي ترفع يدها عالية فيما هي تشير إلى شيء تريد أن تريه لبوليت. وهي، إن أرادت أن أشاركهما في ذلك، تستدير إلى الخلف، باندفاعة سريعة، لتقول لي أن أنظر إلى هناك أنا أيضاً. وفي أحيان تقف، وتوقف بوليت معها، ثمّ تحرّك رجليها وهي واقفة لأعرف أنّ عليّ أن أسرع ولا أظلّ متأخّراً عنهما. وحين بلغنا الميناء سألتْنا، مطلقة ابتسامة ساخرة، إن كنّا نحبّ أن نقوم بنزهة في البحر. أشارت إلى قارب مزيّن ببالونات ورقيّة ملوّنة وبأعلام على شكل مثلثات صغيرة. «أنا بحبّ...»، قالت بوليت متهلّلة كأنّها تستعد لخوض مغامرة، لكنّ وداد أوقفت اندفاعتها، مكتفية لذلك بكلمتين فقط: «مش هلّق»، قالتهما وهي تديرها إلى الجهة التي سنكمل فيها مشيَنا على الكورنيش. وقد انصاعت بوليت لذلك فلبثت حيث أُوقفت منتظرة أن تعاود وداد المشي حتى تسير إلى جانبها. لم تبدُ محتجّة على تجاهل رغبتها ولا على سؤال وداد الذي انتهى

إلى التلاعب بها. أمّا أنا فكنت أنتظر ردّة الفعل السريعة، تلك التي ظننت أنّه لم يكن ممكناً لبوليت إلّا أن تقولها، حتى من دون أن تفكّر فيها: «مش إنتي سألتينا إذا بنحب...». لكن هذه لم تحصل.

حين عدنا إلى المشي، وأنا متراجع عنهما ثلاث خطوات أو أربع، صار يخطر لي كيف أنّ لجسم كلّ منهما، لا بدّ، أثراً في تلك السطوة التي تظهر من وداد على رفيقتها النحيلة الصغيرة. من حيث أراهما متقدّمتين تلك الخطوات عنّي رحت أفكّر أنّهما مثل أختين لم يكتمل نضوج صغراهما بعد. لكن هل كانتا هكذا على الدوام، أقصد منذ أن كانتا معاً في ذلك الزمن؟

بعد أن تقدّمنا مسافة أخرى مبتعدين عن السور الذي يحجز صفّ القوارب، قالت بوليت إنّنا مشينا كفاية. ثمّ قالت بعد أن مشينا خطوات أخرى إنّها تريد أن نرجع. ولما التفتنا إليها متسائلين قالت إنّها تعبت. كان التعب قد بدأ يظهر عليها حتى إنّ وداد أحاطت كتفها بذراعها وراحت تكلّمها بصوت قريب من الهمس:

– بدّك ترتاحي؟ هون في قهوة قريبة...

– قريبة؟ سألت بوليت، لكنّها مع ذلك قالت لنا أن نطمئنّ، وإنّها تعرف أنّه تعب عادي «متل ما كنتو إنتو رح تتعبوا لو مشينا أكتر شوي».

– بس هالشي صار معِك هيك بلحظة، قالت لها وداد منبّهة ومتسائلة معاً. ثمّ أضافت، مخاطبة إيّاي، «من دقيقة كانت بدّا تطلع بالشختورة!».

– هلّق لما نوصل عالقهوة رح إتْرِكُّن وعجّل جيب السيّارة.

– يمكن أحسن، قالت وداد.

– مش ضروري. تْعِبْت شوي، وهلّق بشرب ميٌّ... tout ira pour le mieux.

حين وصلنا مازحتْها وداد بأن قالت لها إنّها، هنا في المقهى، ستشعر كما لو أنّنا جالسون في القارب. كان البحر على ذلك القرب بالفعل، بادئاً من تحت حافة الباطون أمامنا. «الميّ حلوة» قالت بوليت ثمّ أضافت إنّها تحبّ الآن أن تُغطس فيها رجْلها.

– أنا رايح جيب السيّارة، قلت، لكن منتظراً موافقتهما...

– لا ما تجيبا... je vais bien، قالت بوليت.

– بس انتبهي، إنت بتقدري ترجعي كلّ هاي المسافة اللي مشيناها؟ سألتها وداد.

لم تجب بوليت، بدت كما لو أنّها تفكّر بينها وبين نفسها إن كان يمكنها ذلك.

* * *

لكنّها لم تتأّخر في الاهتداء إلى جواب. قالت، ناظرة إلى وداد أولاً، ثمّ إليّ، إنّها تريد أن نعود إلى البيت. وأنا عرفت، كما لا بدّ عرفت وداد، أنّ شعورها بالتعب، أو بالمرض، قد ازداد في تلك اللحظات القليلة.

– شو حاسّة؟ سألتها وداد فيما هي تلمس جبهتها بكفّها.

– ما بعرف، مش كتير، بس لازم نرجع عالبيت.

– بدّك نروح عالمستشفى؟

– لأ... عالبيت.

نظرت إليّ وداد متسائلة ماذا علينا أن نفعل. ثمّ، من دون أن تنتظر سماع شيء، قالت لي أن أبقى بجانب بوليت وخرجت

مسرعة إلى الطريق كي تلوّح من هناك للسيّارات التي يتتالى مرورها. وإذ لم تستجب السيّارة الثالثة أو الرابعة لحركتها المندفعة، عادت إلينا، مهرولة. ولما رأت بوليت مغمضة عينيها سألتني، بحركة من يدها، إن كان هذا نوماً. ثمّ توجّهت بذلك إلى بوليت: «شو بوليت، إنتي نايمة...». فتحتْ بوليت عينيها متّسعتين ومتسائلتين ثمّ، بعدما رأت وجه وداد أمامها، عادت إلى إغماضهما. «شو لازم نعمل هلّق؟» سألتني، ولما أجبتها بأنّي سأذهب لأوقف أول سيّارة، ومشيت نحو الكورنيش، أوقفتني لتقول لي أن أبقى هنا، ثمّ ركضَت نحو المدخل حيث إدارة المقهى. لا أكثر من دقيقتين عادت بعدهما برفقة رجلين جاءا مسرعين مثلها. «بوليت... بوليت، فيكي تمشي؟» سألتْها. قال أحد الرجلين إنّ ذلك لا يهمّ وإنّ رفيقه يستطيع الوصول بالسيّارة إلى هنا. ثمّ قال لنا إنّ علينا أن نأخذها إلى مستشفى. وفيما هو يذكر اسم المستشفى مطَمْئناً إيّانا أنّ رفيقه يعرف كيف يُدخلنا إليه، رفعت بوليت رأسها قليلاً لتقول إنّها لا تريد المستشفى. «بس عالبيت» قالت وأبقت عينيها نصف مفتوحتين. «فيكي تقومي؟» قالت لها وداد عند وصول السيّارة، وهي استجابت لذلك بأن نظرت إلى وداد مستفهمة، ثمّ تطلّعت إلى جانبيها متبيّنة كيف ستتمكّن من الوقوف. «احملوها» قال رجل المقهى، وأشار إلى سائق السيّارة ليساعدنا في ذلك. لكن وداد طلبت من السائق أن يفتح باب السيارة ويبقيه مفتوحاً. «ياللا رح نمشي» قالت مخاطبة بوليت وممسكة إيّاها من إبطها. وقد أمسكتُها أنا من الجهة الأخرى. وحين بدأنا بإدخالها من الباب المفتوح، قالت، كأنّها تشترط علينا، قبل موافقتها على الصعود، إنّها تريد أن تذهب إلى البيت. وحين أطبقنا الباب وجاء دورنا

بالصعود سألتني وداد عمّا تقصده بوليت بالبيت، وهل ما تعنيه هو بيتها هي في بيروت. وإذ لم أعرف بماذا أجيب، أو إن كان عليّ حقاً أن أجيب، استدارت نحو الباب في الجهة الأخرى، وهي تقول إنّها لا تعرف إلى أين علينا أن نذهب الآن. ولم تستمهلني لأعلّق بشيء فقد أسرعتْ إلى أن تقول بنبرة متوتّرة لم تشأ إخفاءها إنّها، قاصدة بوليت، تعرف أنّها مريضة ومع ذلك جاءت إلى هنا. كانت تعلم، فيما هي تطبق باب السيّارة إلى جانبها، أنّني سأفهم أنّها لا تقصد بذلك بوليت وحدها، وأنّ السخط الذي أبدته لا يقتصر على هذا الفاصل الأخير من مشوارنا، بل هو ابتدأ ربّما منذ أن أُبلغَت أنّنا سنقوم بزيارتها.

الفصل الرابع عشر

محمّد صافي:

لم يكن خجلاً ذاك الذي رأوه في هيئتي حين دخلت إلى حيث كانوا جالسين في المطعم، ولم يكن حياءً كذلك. كانت تلك هيئة الخسارة التي، على رغم ضآلة معرفتي باثنين منهم وانقطاعي عن نقولا سنتين أو ثلاث، لا بدّ كانوا يتوقعون أنّي بلغتها. لا بدّ أنّهم كانوا يتوقّعون أنّي تغيّرت، بسبب العمر، لكن أيضاً بسبب ما يصل إليهم من أخباري. ولا بدّ أنّهم كانوا يزيدون ذلك عليّ في كلّ مرّة يأتيهم خبرٌ عنّي كيف صرت أعيش، وأين، وماذا كان يحصل في تلك الحانة الرخيصة حين يضيق صدري بكلام أحدهم فأعلي صوتي عليه بالسبّ والشتم. وأنا أصعد تلك الدرجات الموصلة إليهم في ذلك المطعم كنت أعرف ما الذي سيرونه تغيّر فيّ. أسناني أوّلاً، تلك التي سقطت اثنتان منها وسينكشف الفراغ الذي خلّفَتاه من لحظة ما تنفرج شفتاي لتنطقا بأوّل كلمة. ثمّ تلك القبّعة اللبّادة التي لا بدّ سيتساءلون لماذا أرتديها ما دامت تقصر عن أن تغطّي كلّ صلعتي وتشعّث الشعر الظاهر من تحت أطرافها. ثمّ هناك الأشياء الأخرى، أشياء الخسارة التي ستظهر، من لحظة إطلالتي

الأولى، على ثيابي، وفي مشيتي، ثمّ في نطقي لتلك الكلمات الأولى التي ينبغي أن أراعي فيها ما استجدّ في تغيّر الموازين بيني وبينهم. وهذا ما لن أصل إلى صرفهم عنه بمجرّد أن أقول إنّ عليّ ألّا أكون مثلما كنت من قبل. ذلك الوجه الذي كان لي في ما مضى لم يعد يصحّ أن أُظهره لهم. لقد ابتعدنا كثيراً، أنا وهم، عن تلك الأيّام التي كنت فيها أكلّم الناس كأنّني أعلّمهم أو أقودهم. لن أتمكّن من أن أثني الناس عمّا كانوا يفعلونه بمجرّد أن أدعوهم، بكلمة واحدة، إلى التراجع عنه. الآن لن أتمكّن من إرجاع زهير، مثلما فعلت يوم كان واقفاً على ذلك السنسول الطويل الممتدّ في البحر، مجازفاً معرّضاً نفسه للوقوع، بمجرّد أن أناديه من حيث كنت جالساً تحت شجرة السنديان، «تعا يا زهير، عايزك»، وهو عاد، راكضاً أيضاً. لن يحدث هذا الآن. لن يستجيب زهير ولا سواه لأمر مثل ذاك الذي قلته حتى من دون أن أشك في أنّ من الممكن ألّا أُطاع. ليس وجهي الذي تغيّر، بل كلامي أيضاً، بل وحتى صوتي. في مطعم الروشة ذاك كنت أعرف أنّني سأخطئ منذ أن أبدأ بالكلام، حتماً سأخطئ، أنا الجالس بينهم الآن كأنّني غريب أقدّم لهم نفسي ليتعرّفوا إليّ. الخطأ الأول حدث مع مجيء نادل المطعم ليسألني ماذا أريد أن أشرب. تردّدت قبل أن أجيب، منتظراً أن يتولّى ذلك أحد عنّي. لكنّهم ظلّوا ينظرون إليّ، ساكتين. وفي لحظةٍ ما أجبت النادل بأنّي أريد كأس ويسكي، وجدت نفسي ألتفت إلى مَن كنت قدّرت أنّه صاحب الدعوة. تلك الالتفاتة، التفاتتي، فاجأتني أنا نفسي، فقد خرجتْ منّي مثل رجفة، أو مثل نقزة، أو مثل حركة مفرَدة من تلك التي تظلّ تتتالى في أجسام المصابين بمرض الاهتزاز. وقد ظنّ من التفتُّ إليه أنّه يستدرك زلّتي

حين رفع عينيه إلى النادل ليعيد عليه ما كنت قلته: «ويسكي... ويسكي للأستاذ»، قالها فيما هو يشير نحوي باسطاً راحته كأنّما ليعرّف النادل مَن أنا، أو ليفهمه أنّ مَن تراه أمامك ليس مثلما يبدو لك.

فكّرت أنّ تلك الالتفاتة، التفاتتي المستأذِنة والمخجلة، لا ينبغي أن تنقفل هكذا، مثلما توضع نقطة عند آخر الجملة. ما يجب أن أفعله هو أن أبقيها مفتوحة على ما يجب أن يأتي بعدها، وأن أفعل ذلك بسرعة، مستبقاً أن يبدأوا بتبادل النظرات الغامزة، تلك التي سيسأل فيها بعضهم بعضاً على ماذا تدلّ نقزتي تلك. وقد أعانني على ذلك رجوع النادل سريعاً بكأس الويسكي. «شكراً»، قلت له وأنا أتناول الكأس من يده قبل أن تصل بها إلى الطاولة. «بصحّتكم»، قلت رافعاً الكأس عالياً ثمّ منقّلاً إيّاها بين وجوههم، كاسك... كاسك... كاسك... رحت أقول مردّداً إيّاها لكلٍّ من الرجلين ثمّ إلى نقولا الجالس إلى جانبي. هذه جرعة قوّة كان عليّ أن أظهرها لهم. وقد فعلتْ فعلها فقد ردّ كلّ منهم على نخبي مثلما كنت منتظراً منه أن يردّ. كاسك... كاسك... كاسك... أجابوا واحداً بعد واحد، لكن كأنّهم ينتظرون مع ذلك ليعرفوا ماذا ستكون خطوتي التالية.

كانت الدقيقة التي أعقبت محرجة وثقيلة. ظلوا صامتين هم الثلاثة وكلّ منهم ينتظر أن يبادر أحد سواه إلى الكلام. هذا دورهم الآن، فكّرت، ولن أشغل رأسي بشيء آخر أقوله. كانت دقيقة واحدة فقط، لكنّ الحرج في ثوانيها الأخيرة تصاعد كما قنبلة موقوتة راحت تطلق تكّاتها المنذرة الأخيرة. وهم على أيّ حال لم يتأخّروا في الاهتداء إلى ما يخرجهم من ذاك الصمت. كان الاثنان الجالسان

على الطرف الآخر أمامي، قد انعطفا في اللحظة ذاتها، أحدهما نحو الآخر، ليتهامسا بشيء يخصّهما معاً. ثمّ تبادلا ضحكات خفيفة بعد ذلك. أمّا نقولا فتبعهما بأن قال متسائلاً: «شو؟... شو؟»، ليجيبه أحدهما بحركة من يده تفهمه أنّه سيعرف ذلك لاحقاً.

ولكي يعيدني صاحب الدعوة معهم إلى رفقتهم على الطاولة سألني، كأنّه انتبه فجأة إلى كأسي الفارغة: «كمان ويسكي؟».

– قاعدين بعد شوي؟ سألته وأنا أنقّل النظر بين كؤوسهم.

– ولوْ، بعد ما قعدنا، قال فيما هو يرفع يده ليراها النادل الذي لا بدّ أسرع في التوجّه نحونا. لكنّه، قبل أن يصل، أتته حركة اليد المشيرة إليّ ليفهم أنّني أنا. ومن حيث توقّف النادل، هناك عند مسافة ثلاث خطوات أو أربع خلفي، تخيّلته يشير إليّ أنا أيضاً، ليتأكّد ممّا فهمه. بلى هو، أكّدت تلك الإيماءة الخفيفة على وجه المضيف أمامي.

منزعجاً غاضباً كنت أنتظر مجيء الكأس، إذ لم يزُل من رأسي أثر ذلك التهامس بينهم. لم يكن ينبغي لي أن أقبل بالكأس الثانية هذه. ما كان يجب أن أردّ به هو أن أسأل الجالسيْن قبالتي إن كان فاتهما أن يحكيا قبل وصولي عن ذاك الذي تذكّراه الآن، أو أن أقول لهما إنّني سأتركهما قليلاً، إلى الحمّام مثلاً، من أجل أن يطلعا نقولا، رفيقهما الثالث، على ما ينتظر أن يعرفه.

– إيه وكيف عم تقضّي إيّامك، سألني المضيف.

وإذ لم أجب، عاد الجالس إلى جانبه ليعيد عليّ السؤال بطريقة أخرى:

– مين عم تشوف؟

– بطرس

– مين بطرس؟
– صاحبي
– نحنا بنعرفو...؟ أخذوا يتساءلون ناظرين بعضهم في وجوه بعض.
لم أجب أيضاً، رغم علمي بأنّ السؤال الذي تبادلوه بينهم موجّه إليّ.
– نحنا بنعرفو؟ سألني المضيف متذمّراً...
– ما بعرف... يمكن، قلت مستخفّاً بالاهتمام الذي يبدونه لمعرفة من هو بطرس.
– ما بدّو يقول، تْركوه على راحته.
لم أسرع بالردّ. انتظرت قبل ذلك أن يظنّوا أنّ ما سمعته مرّ ولم أردّ عليه، وها أنا، بعدما ظنوا أنّي ابتلعت ما أسمعوني إيّاه، قلت لهم، هم الثلاثة:
– فيني إسألكن... إنتو ليش اتصلتوا فِيّي، ليش قلتولي إجي؟
– اشتقنالك، قال الجالس إلى جانب المضيف متجرّئاً على الكلام باسم رفيقيه.
– ليش أنا كتير بَعْرفك؟
لم يجب، لا أكثر من أنّه جعل يقلّب نظره بينهما كأنّه ينتظر أن يفهم ماذا يجري.
– ما كان قصدنا شي، بس حبّينا نعزمك على كاس، قال المضيف عائداً بي إلى تهامسهما بعد طلبي الكأس الثانية.
– الحقّ عليك يا نقولا، قلت مديراً وجهي إليه...
– التفت إليّ وهو يحرّك يده مستفهماً متسائلاً.
– ... مين هنّي هاوْ يا نقولا، أنا شو بدّي فيهن...

– بس شو عملو، أنا ما سمعتهن قالوا شي...

حين قمت واقفاً لم يكن نقص من الكأس أمامي إلّا تلك الرشفة الواحدة. كنت أريد أن أقول شيئاً يبقى بينهم، بعد خروجي، مثل صفعة أو مثل بصقة. كلمة قويّة مثل تلك التي تقال عند انتهاء مشاجرة، أو جملة مؤثرة من تلك التي ينتهي بها فصل من مسرحية. لكنّني اكتفيت بأن خبطت، فيما أقوم، كفيّ على الطاولة، واستدرت بعد ذلك، فيما أضع يداً في جيبي، متطلّعاً حولي أبحث عن النادل أين هو.

الفصل الخامس عشر

وداد:

من أعاد تذكيري بحسّان كان ماهر. قال لي ذلك على التلفون وقت ما اتّصل ليبلغني أنّ بوليت نُقلت إلى المستشفى. «هوّي بيعرفِك من أيّام الكليّة، وجايي على بالو يعرف وين صرتي». كان ماهر ينتظر منّي أن أجيب مستفهمة، بأن أسأله مثلاً لماذا يريد أن يعرف أين صرت. لم أفعل. فكّرت أنّ ذلك لا يعدو كونه تحيّة عابرة يرسلها إليّ، كمثل أن يقول لماهر «إيه وداد، سلّملي عليها إذا شفتها». تذكّرت اللقاء السريع بيني وبينه في الحمرا، بل ربّما كانا لقاءيْن، وتساءلت إن كنت رأيته بعد ذلك. في الحمرا كان لا يزال مسلّماً بأنّي لا أريده. وباستثناء الكلام العابر السريع لم يصدر منه شيء. كما أنّه لم يسعَ إلى أن يطيل جلوسه معي. لكنّني أعرف أنّه كان ينتظر أن أكون أنا مَن يبادر فأقول له أن يبقى.

ليس أنّي تعمّدت اللامبالاة آنذاك، فقد كنت غير مبالية بالفعل. كان يمكن أن أستبقيه، لكن ليس من أجل شيء. أقصد ليس من أجل أن أتسلى، أو من أجل أن يذكّرني بأيّام الكليّة كيف كانت، وكيف كان الآخرون فيها ما دمت أعرف أنّه لن يعود إلى الحديث عن

تلك الليلة، في بيتي المؤقت آنذاك في الطابق الحادي عشر. لم يعد إلى ذلك في الأيّام التي تلت ذلك، أيّام كنا بعد في الكليّة، فكيف كان سيفعل بعد مرور حوالى عشر سنوات، أو ربّما أكثر.

كنت قد أبعدته عنّي بحركة واحدة من يدي، بكفّي التي رفعتها في وجهه صادّةً وحازمة. وهو استجاب على الفور. تراجع عنّي مثلما لو تلقّى صدمة. حتى تلك النظرة المتسائلة لم تَظهر، أو لم يُظهرها، على وجهه. قلت له إنّي أريده أن يذهب، فقد كنت أظنّ أنّه سيفعل مثلما يفعل غيره، أن ينتظر قليلاً ثمّ يبدأ من جديد محاولات لكي يبقى، لأعود أنا وأصدّه من جديد.

لكنّه لم يفعل. بعد أقلّ من خمس دقائق كان قد صار في الخارج، منتظراً المصعد. كان وجهه محتقناً بالحمرة ومندّى بالعرق. لم يلتفت إليّ فيما هو يفتح باب المصعد ويصير في داخله ليبدأ نزوله. كان مستحياً، مطيعاً لما أردته طاعة تامة. فكّرت آنذاك أنّ ما كنت أراه من اعتداده وهو يتنقل بين الطاولات في الكافتيريا، لم يصمد أمام صفعة واحدة أتته. مع أنّه ربّما كان يتوقّع، منذ بداية تبادلنا النظرات، صدّي له، متسائلاً بينه وبين نفسه، بعد كلّ خطوة يبلغها معي، إن كانت الخطوة التالية ممكنة. كان يُفاجأ بأنّي أقبل، بل أتجاوب. وهكذا كان يتقدّم، منذ أن وضع يده على يدي، وأبقيت يدي مستسلمة في مكانها، حتى اقترابه إلى ذاك الحدّ مني، هامّاً بأن يطبق شفتيه على شفتيّ.

وأنا كنت أختبره في أثناء ذلك. أترقب ثانية بثانية كيف يتصرّف، كأنّي أتحيّن تلك اللحظة التي أوقفه فيها عنّي وأُبعده. ذلك الإعجاب القليل، غير الكافي، أو غير المقْنع، يصير شعورنا بثقله يتضخّم. يصير يكبر وحده حتى، في لحظة، نختنق به فندفعه عنّا

من أجل أن نعود نتنفّس. لم يكن هو الوحيد الذي مررت معه بتلك التجربة، ولم يكن الأوّل. كان آخرون قد جاؤوا إلى بيت الطابق الحادي عشر قبله. ذاك أنّ الذين مثله كانوا كثيرين في الكليّة، ومعهم كانت نظرة واحدة منّي تكفي لأن يشعروا بأنّهم حصلوا على ما لم يكونوا ينتظرون أن يحصلوا عليه. هي نظرة واحدة، النظرة التي تقول: «نعم أنتَ، أنا أنظر إليك أنت»، حتى وإن أسرعتُ بإزاحة تلك النظرة بمجرّد أن يلتقطها، بل بمجرّد أن يشتبه بأنّها له. ثمّ سيكون عليه هو أن يكمل ذلك من بعدي، بتردّد غالباً، وبمبادرات غير واثقة، وذلك حتى يتأكّد، بعد المرة الثانية، أو الثالثة، أنّ تلك النظرة لم تقع عليه سهواً. تلك الجلبة التي يحدثونها في الكليّة، تلك الأصوات العالية المتجرّئة، لا يعود لها من أثر حين يكون كلّ منهم بمفرده. تلك النظرة، التي أغضّها أو أقطعها من فور ما تصل، تعزل مَن وصلتْه عن الشبّان الذين يكونون معه. تقرّبه إليّ، وإن متردّداً ومحاذراً، متسائلاً بينه وبين نفسه إن كنت أقبل به حقّاً، أقصد إن كنّا نقبل بهم، نحن اللواتي لنا طريقتنا المختلفة في الكلام، وترَبّينا مع أهل مختلفين عن أهلهم، وأنّ وجودنا معهم هنا في الكليّة حصل بمحض الصدفة، كأنّ جهةً ما نصحت جهة أخرى بأن شيئاً ما يمكن أن يتأتى من جمعنا معاً، نحن وهم، في مكان واحد.

وها هو الآن يأتي برفقة بوليت التي لا أعرف ماذا يريد منها. ربّما هو الطموح نفسه، الطموح القديم الذي بات تحقيقه الآن سهلاً بعد أن لم تعد مثلما كانت. لقد تغيّرتْ، كما تغيّرتُ أنا، من طول الاختلاط بأولئك الذين كانوا في تلك السنوات يجهدون، وإن متردّدين غالباً، لإثارة فضولنا. لم نعد الآن غرباء عنهم ولم يعودوا هم غرباء عنّا.

كأنّنا، نحن وهم، أزلنا تلك القشرة التي كانت تغلّف كلّاً منّا فبتنا كأنّنا أتينا جميعاً من مكان واحد. لا بأس به، تفكّر بوليت، بل ربّما ترى أنّها لا تستحقه، لهذا كانت تجلس، عندي في بيتي، ملتصقة به متشبّثة بذراعه. وهو لم يبدُ مبالياً. كان يفكّر ربّما في أنّنا، نحن الاثنتين، صرنا متاحتين له الآن، أو يفكّر أيّ واحدة منا ستحقّق الفوز على الأخرى. هل كان يمكن أن يدور شيء آخر في رأسه وهو جالس، ساكتاً منقّلاً نظراته بيننا. ولا بدّ أنّه قام بذلك أيضاً ونحن على كورنيش البحر، ناظراً إلينا، مقارناً بيننا من مسافة الأمتار التي تراجعَها عنّا.

منذ البداية لم أكن مسرورة بتلك الزيارة التي أخبرني ماهر أنّهما ينتظران الوقت المناسب للقيام بها. وهو، ماهر، عرف ماذا أقصد حين سألته إن كانت صحّة بوليت تساعدها على تحمّل تلك المسافة. قال لي إنّني يجب أن أنتبه على كلّ حال، مظهراً بهذا ثقته القليلة بالتزام حسّان تجاهها.

الفصل السادس عشر

محمّد صافي:

كانت غريبة تلك الطريقة التي راح يكلّمني بها الطبيب. «شي مرّة حَسَبت كم قنّينة صرت شربان بحياتك؟» كان يسأل زامّاً شفتيه جامعاً هكذا بين الإبتسام والتأسّف. «غيرك كان سيموت مع نصف هذه الكمّية» قال، لكن من دون أن يطمئنني مع ذلك بأنّي نجوت. هناك جملة أخيرة، يخبّئها أو يؤجّلها، وها هو يراوغني قبل أن ينطقها.

ثمّ قالها أخيراً، مبدّلاً لها سحنته وطريقته في الكلام. «لكنّنا فكّرنا في علاج قد يفيد»، أضاف مستعجلاً كأنّه يتّقي بيديه جداراً كاد يتسبّب بسقوطه. ربّما بان على وجهي ذاك الذي أحسسته في داخلي مثل دويّ. دعاني إلى أن أجلس على كرسي أعاد تحريكه ليكون جلوسي عليه هيّناً. بقيتُ صامتاً، خوفاً من أن أتلعثم أو أتأتئ. كنت قد هيّأت نفسي لذلك، أقصد لأن أسمع ما سمعته، لكنّني لم أفكّر كيف عليّ أن أتصرّف بعد تلقّيه. ولكي لا أطيل سكوتي، فأبدو كما لو أنّ الخبر أفقدني نطقي، سألته، مستعيراً ذلك من أفلام كنت شاهدتها:

– قدّيه بقي لي؟

– لا... لا... ما تفكّر هيك، أجاب، ثمّ ألحق ذلك بأن أضاف أنّنا لم نصل إلى هذا الحدّ.

خرجت من عنده منتصباً رافعاً جسمي إلى الأعلى، ربّما لكي أريه أنّ ما صدمني به لم يهدّني. كانت يداي، إضافة إلى التنميل الذي أعرف أنّه من أعراض الشرب الكثير، ترتجفان وتهتزّان. لكنّني مع ذاك وجدتني متّجهاً إلى المقهى الذي أعرفه. لن يقول لي الشابّ الذي يدير المقهى، كما قد يقول لي سواه، إنّ الوقت ما زال مبكراً على الشراب. ثمّ إنّ الطريق إليه ليست طويلة، وأنا أسرعت في المشي فوق ذلك إذ لم أشأ أن أتحمّل الصدمة هكذا من دون شيء يُسْكرني.

مرّت شهور، بل سنوات، كنت فيها أتوقّع سماع هذا الذي سمعته الآن، أو شيء مثله، أو شيء يساويه. ولم أكن أجد ذلك إلّا نهاية منطقية لحياة كان يجب أن يوصلني تسلسلها إلى هنا. كنت أعرف أنّني سأصل إلى ما وصلت إليه، هكذا مثلما يتبع الرقمُ الرقمَ حين نعدّ: عشرين – ثلاثين – أربعين... إلى آخر ذلك. بل ربّما كنت أتوقّع أن يحصل هذا وأنا في عمر أصغر. ذاك لأنّي بدأت مبكِّراً بتخريب جسمي. حين كنت أخرج مع الشباب من المطعم الذي سمّيناه «خمارة»، بشيء من الاعتداد لكوننا بلغنا آخر الأمكنة التي يجري فيها تناول الشراب، كنت أمازحهم، بنوع مماثل من الاعتداد، سائلاً إيّاهم إن كانت هناك من طريقة لأعيد تعبئة كلّ ما جمّعته في بطني بقنانٍ أبيعها. «حتى ترجع تشربها معبّأة من جديد» أجابني نقولا آنذاك. كان يعجبني أنا أيضاً ذلك، أقصد الكلام، كلام الزهزهة أو كلام السكر الذي كان يلازم خروجنا في آخر الليل.

من دون أن يعرف ما بي ظهر أحمد صاحب البار مرحّباً، بل ومحبّاً. حتى من قبل أن تفرغ الكأس الأولى فاجأني بوضع كأس ثانية أمامي. قال لي إنّ هذه ضيافة من المحلّ، ثمّ سألني إن كنت أحبّ أن أتناول شيئاً مع الكأس فيما هو يقرّب منّي صحن جبن مقطّع وُضعتْ عند طرفه خيارة مقشّرة. كنّا وحدنا في البار أنا وهو. وقد أراحني اهتمامه بي، بل خطر لي أن أكافئه بشيء. لكنّني فكّرت أنّني لن أستدعيه إليّ من هناك، منحنياً يشتغل بشيء وراء باب الثلّاجة الواطئ. انتظرت حتى قام وابتعد باتّجاه الدرجتين الموصلتين إلى حيث وُضِعتْ قنانٍ بعضها كان فارغاً. كدت أصرف النظر عن ذلك لولا أنّني، منتبهاً من صفنتي، رأيته مقبلاً نحوي، كأن من أجل أن يسأل إن كنت محتاجاً إلى شيء. «أحمد» قلت مسابقاً إيّاه بالكلام، «جيت هلّق من عند الحكيم...».

– إي خير... في شي؟

– في شي.

– معك بالقلب؟ سألني لمّا رأى ما بدا ظاهراً على وجهي.

– لا...

لكنّه فهم من دون أن أُكمل. انتظر قليلاً قبل أن يردّ، ساعياً إلى طمأنتي، بأنّ جميع من يصابون بهذا المرض صاروا يُشفون.

لكنّه لم يلبث أن سألني، بعد دقيقة انتظار أخرى: «وين إجاك؟»

– بالكبد.

– هيدا من الشرب، قال مرسلاً نظرة لاعنة إلى القناني المصفوفة فوق البار.

وقد طال سكوته بعد ذلك. لم يجد شيئاً آخر يقوله، ربّما من خوفه أن تنزلق الكلمات إلى ما لم يكن يقصده. لا أكثر من أنّه بقي

واقفاً، مثل خادم، أو مثل حارس.

– طيّب، قلت وأنا أسند يدي إلى حافة الطاولة.

– ارتاح، خليك إذا بدّك، أنا ما عندي شي، قال لي واضعاً يداً على كتفي لكي أبقى.

* * *

كان رأسي مشوّشاً وعيناي زائغتين وأنا واقف في الخارج، مبتعداً قليلاً عن بوّابة البار. لم يخفّف عنّي قول الطبيب إنّنا ما زلنا في مرحلة ما قبل الخوف من عدم التحكّم بالمرض. لم أصدّقه. لن يكون مرضي أرحم عليّ من أولئك الذين أماتهم مرضهم. لم يؤذوا أجسامهم كما فعلت بجسمي. المرض سيتقدّم سريعاً فيّ، ومع الطبيب الذي سيعالجني لن أكون مستسلماً ومطيعاً إذ لن أعيش الآن مثلما كان يجب عليّ أن أعيش وأنا في أول الشباب. وها إنني، وأنا أقف غير بعيد عن مدخل البار، أفكر أنّني لن أذهب إلى بيتي من دون قنّينة أحملها معي. سيكون الوقت الباقي من النهار طويلاً، وسيكون الليل طويلاً من بعده، أعرف، أكثر من أيّ ليل سبقه. ثمّ بيتي، ذلك القليل الذي بقي من تدرّجي في الخسارة. قليل وضيّق ولا مجال لأن أنقّل جسمي فيه حين يضيق بي السرير أو أتعب من جلوسي على مقعد الطاولة في زاوية الغرفة.

– ليه واقف هيك أستاذ، قال لي أحمد مخرجاً رأسه من شقّ الباب، «تفضّل... تفضّل». وإذ رآني صافناً لا أعرف بماذا أجيبه، خرج إليّ وأحاط يده بذراعي وهو يردّد «تفضّل... تفضّل».

لم أدخل. أرخى ذراعي بعد أن قلت له إنّي أريد أن أتمشّى. لكنّه ظلّ واقفاً، كأن من أجل أن يراني أسير الخطوات الأولى.

الفصل السابع عشر

منذ أن وصلنا إلى بيتها، بل منذ أن رفعت يدها لتقول إنّها هنا تنتظرنا في ذلك الزقاق الضيّق، كنت أعرف أنّ وداد لم تتوقف عن التساؤل لماذا أنا هنا، وماذا جئت أفعل، بحسب ما كانت تقول نظرتها المتهرّبة والمتوجّسة. وحين كنّا على الكورنيش، ثمّ في المقهى بعد ذلك، لم يقرّب بيننا ذاك الذي أصاب بوليت. وهناك في بيتها لم نتبادل أنا وهي كلمة واحدة في وقت ما كانت بوليت ممدّدة غافية على الطرّاحات. أقصد لا كلمة واحدة من خارج الانهماك في ما يجب أن نفعله، أو من خارج انهماكها هي على الأصحّ. كانت تسألني بين مرّة وأخرى، عمّا يجب فعله، لكن من دون أن تبدو منتظرة إجابتي أو موافقتي. «عم فكّر إتّصل بالحكيم يجي لهون؟» تقول وهي تنظر في وجهي، ثمّ تسرع إلى التقاط تلفونها وتنقيل إصبعها على أزراره. «الحكيم مش عم بيردّ... شو لازم أعمل؟» تقول سائلة، فيما هي ما تزال رافعة التلفون مفكّرة بمن يجب أن تتّصل من بعده.

وأنا جالس على مسافة قريبة من رِجليْ بوليت المثنيّتين كنت أشعر بأنّني لا أفعل إلّا إطاعة وداد بالنظر إليها كلما بدا أنّها

تخاطبني. كنت أستطيع أن أعلّل عطالتي هذه بأنّني لا أعرف شيئاً عن المخيّم حيث تقيم ولا عن المدينة التي حوله. كان هذا كافياً ليعفيني من القيام بشيء، لكنّني رغم ذلك كنت أشعر بما تحسّ به نحوي: إنّي سخيف وبلا معنى، وإنّي لا أفيد في شيء، وإنّ جلوسي هكذا ضامّاً كفّاً إلى كفّ، لا بدّ يزيدني سخفاً وتفاهة في نظرها.

«كإنو ارتفعت حرارتها» قالت ثمّ انتظرت ثواني لتخطو نحو بوليت وتجسّ جبهتها بيدها. كأنّها، بتلك الثواني الفاصلة بين قولها وقيامها، كانت تدعوني لأقوم أنا بذلك. لكنّني لم أفعل. «أكيد حرارتها عالية... يمكن وصلت للأربعين؟» قالت وهي تسرع إلى الغرفة لتبدأ هناك بفتح الجوارير ثمّ إغلاقها، بنحو مكرّر، مصدرة أصوات خبط قويّة. بل كنت أسمعها تسخط وتكلّم نفسها، فيما لا أعرف إن كان عليّ أن أبقى جالساً حيث أنا، أو أقوم واقفاً معلناً استعدادي لأن أشارك في شيء. «ما في ميزان حرارة... كان عندي واحد ما بعرف وين طار...» قالت وهي تؤدّي بيديها حركة الطيران والاختفاء.

– يمكن لازم ننزل عبيروت؟

– تنزِّلا هيك عبيروت... مش يمكن تموت على الطريق.

كأنّها، للوهلة الأولى، لم تكترث لاحتمال أن تسمعها بوليت. لكنّها عادت وانتبهت إلى ما انفلت منها، فأدارت وجهها مسرعة إليها لتتبيّن إن كانت لا تزال مستغرقة في غفوتها. لكنّها، حتى قبل أن تزيح نظرتها عن الوجه المحتقن باحمراره، قالت، مخاطبة نفسها، لكن أيضاً مخاطبة إيّاي: «بتعرف حالا مريضة، ليه إجت؟».

بدا كما لو أنّ كلماتها تلك تنفلت منها قبل أن تتمكّن من ضبطها. مشت خطوات في الغرفة رافعة وجهها كأن من أجل ألّا تقع عيناها على شيء، ثمّ اتّجهت مسرعة نحو الباب لتخرج وتنزل مهرولة على الدرج.

* * *

فكّرتُ أنّها لن تغيب طويلاً. فقط الوقت الكافي لتُنسي نفسها ما قالته، أو ربّما لتكون حرّة في سخطها هناك وتقول، بالنبرة القويّة التي تريحها، ما لا ينبغي أن أسمعه.

لكنّها لم تعد بهذه السرعة. انقضى أكثر من عشر دقائق حين رأيتُ عيني بوليت تنفتحان ثمّ تندهشان إذ رأتاني أنظر إليها مقرّباً وجهي منها. ابتسمت لي بشفتين جافّتين وتمتمت كلمات غير كاملة قبل أن تعود إلى غفوتها. كانت وداد قد ابتعدت لا بدّ إلى مكان أبعد من البناية ومن مدخلها، لكنّني بقيت أفكّر أنّها لن تتأخّر وأنّها ستظهر في أيّ لحظة، داخلة من الباب الذي أبقتْه مفتوحاً. لكنّني، فيما أنتظر عودتها، رحت أفكّر أنّني يجب ألّا أظلّ كما أنا. على الأقلّ يجب أن تراني، لحظة ظهورها، أقوم بشيء أعوّض به عن غيابها، حتى لو اقتصر ذلك على أن أبدو واقفاً محتاراً ماذا أفعل. مرّة أخرى وأنا أنظر في وجه بوليت الغائب، لكن متأمّلاً فيه من فوق هذه المرّة، انفتحت عيناها، مندهشتين أيضاً ثمّ، من دون أن تحرّك شفتيها، سألتني بتردّد إن كنت لا أزال هنا. وكانت قد بدأت تعود إلى غفوتها حين، فجأة، عادت عيناها إلى أن تنفتحا، مذعورتين كأنّهما تلقّتا صدمة أو ارتجاجة حدثت في داخل جسمها. ثمّ عاودتها تلك الصدمة، مرفقة هذه المرّة بتجشّؤ قوي، ثمّ بما بدا

رغبة في التقيّؤ دفعتها إلى أن تحاول رفع جذعها إلى الأعلى. وإذ رأيت أنّها لن تنجح في ذلك سألتُها إن كانت تريدني أن أساعدها، ثمّ بدأتُ برفعها من قبل أن أتلقى منها جواباً. «روح... روح»، قالت لي قبل أن تطلق من فمها دفعة قيء، لكني بقيت ممسكاً بها، يدٌ تسند ظهرها وأخرى تحيط بطنها. «اتركني» قالت فيما تحاول تخليص جسمها. ولما تمكّنتْ من أن تسند جانباً من ظهرها إلى الحائط راحت تنظر، كأن من دون اكتراث، إلى حيث سقط قيئُها، على طرف سترتي وعلى جانب الطراحة ذاك، كما على الأرض. كانت تبدو ذاهلة لكن مرتاحة ولا تتكلّم. حرّكت رأسها أن «لا» حين سألتها إن كانت تريد أن أفعل شيئاً. وانتظرت وقتاً بعد ذلك لتسألني، بحركة قليلة من رأسها، أين وداد. ثمّ، فيما أنا أشير إلى الباب المفتوح، قالت وهي تتململ من مرارة حلقها:

– راحت...

لم يكن ذلك سؤالاً، بل إنّها لم تقل تلك الكلمة من أجل أن أسمعها. «يمكن إرجع إستفرغ...» قالت من بعدها ثمّ تطلّعت حولها. ثمّ أشارت لي إلى حيث المطبخ، لكنّني كنت أعرف أنّ ما ارتفع من بطنها لن يمهلني حتى أصل إلى هناك. كانت خطوة واحدة تراجعتها إلى الخلف، حيث المطبخ، مترقباً ماذا سيحدث حتى أعرف ماذا عليّ أن أفعل. وفي اللحظة التي اندفع فيها القيء من جديد أزحت وجهي جانباً إلى حيث رأيت وداد تنظر إلينا واقفة عند الباب. كنت أنا نصف منحنٍ وفي وضع المتهيّئ لأن أعود مسرعاً إلى المطبخ. ثمّ تراجعتُ خطوة واحدة أخرى لأفسح الطريق كي تعبر وداد من أمامي. ومن فور ما أصبحتْ أمام بوليت التفتت إلي: «هون بالمطبخ، جيب شي من المطبخ» قالت لي

وهي تسرع نحو بوليت تاركة، هناك عند الباب، رجلاً جاء معها لم يعرف إن كان عليه أن يدخل هو أيضاً أو أن يبقى منتظراً حيث هو. في المطبخ أعفاني اللكَن البلاستيكي من البحث عمّا جئت من أجله. كان كبيراً، وقد حملته إلى المجلى وفتحت الحنفية التي فاجأني اندفاع الماء قوياً منها. كنت مرتاحاً إلى كوني مبتعداً وأقوم بشيء ما في الوقت نفسه. وكنت قد بدأت بخلع سترتي حين سمعت وداد تقول لي، نافدة الصبر، «حاج تعبّي مَيْ، جيبون». كان اللكَن كبيراً وواسعاً، ورحت أحاذر أن يندلق منه الماء على الرغم من أنّه لا يملأ إلّا ربعه أو ثلثه. وكان الرجل لا يزال منتظراً هناك، مختلساً النظر إلى ما يحدث في الداخل. سأل وداد حين رآني أنظر إليه إن كانت تريد أن يذهب ويعود بعد قليل. لم تجبه. كانت منهمكة في إزالة ما علق على قميص بوليت بالفوط الورقية. وكانت تكلّمها فيما بوليت تحدّق فيها بعينين متسائلتين. «هلّق لازم نروح عالحمّام» قالت وداد مستبعدة العمل بهذه الكمّية من الماء التي رأتها في اللكن إلى جانبها. وإذ بقيت بوليت صامتة أعادت وداد عليها السؤال، بطريقة أخرى وإن بصيغة الجمع ذاتها: «بتقولي فينا نوصل عالحمّام؟». ثمّ «ياللا بوليت"، ولما لم ترَ استجابة نهضت واقفة لتقول، بلهجة اقتربت من أن تكون آمرة، «ياللا... لازم نقوم»، وأكدّت أنّ ذلك يجب أن يحدث بأن أدارت وجهها إلى الرجل الواقف ما زال في مكانه: «إنت روح إذا بدّك، أنا بحاكيك بعد شوي».

معاً، أنا وهي، أوصلنا بوليت إلى الحمام. وهناك عند بابه، قالت لي أن أرتاح وإنّها ستكمل ذلك بمفردها. لكنّها، بعد أن صارت هناك في داخل الحمّام، نادتني لأرجع. كانت قد أجلستْ بوليت، شبه غافية، على حافة البانيو الصغير. وإذ تركتنا هناك معاً كي تحضر

شيئاً، رحت أفكّر كيف ستتدبّر أمرها وحدها، حيث كان يمكن لبوليت برأسها المنحني وظهرها المتقوّس أن تسقط في أيّ لحظة هاوية برأسها إلى البلاط.

حين خرجتا كانت بوليت أكثر صحواً. لكنّها بدت كما لو أنّ الاغتسال أنحل وجهها وأظهر شعرها ملبّداً وقليلاً. أجلستها وداد بجانبي لتبدأ تنظيف ما خلّفه القيء على طرف الطراحة وعلى الأرض تحتها. أحضرتْ ماءً وصابوناً وفوطاً لتبدأ ذلك ونحن جالسان، مرتفعين عنها بحيث لا نستطيع، بل لا أستطيع أنا على الأخصّ، أن أتجنّب النظر إليها ماذا تفعل. إلى جانبي كانت بوليت، نصف جالسة ومنكمشة على نفسها بذلك الثوب الذي لم تضعف الزهور الصغيرة المنتشرة على قماشه من قوّة سواده. وراح يخطر لي، كلما طرفتْ عيناي باتّجاهه، أنّني عالق هنا، باقٍ هنا، منتظراً أن تعود بوليت إلى ارتداء ثيابها هي، تلك التي رحت أتخيّلها مكوّمة على أرض الحمام، حيث تُركت، كومة متّسخة لن أسأل متى سيبدأ تنظيفها. كما لا أستطيع أن أسأل إن كان علينا أن نبقى جالسين، أنا وبوليت، منتظريْن هكذا. ثمّ ذلك الرجل الذي كان يقف على الباب، هل قالت له وداد أن يعود؟ هل قالت له إنّها ستتّصل به حتى تقرّر هي إن كان عليه أن يعود؟ لا بدّ أنّها جاءت به من أجلنا، أو على الأقلّ من أجل أن يساعد في شيء. أن يخرجنا من الحيرة التي كنّا واقعين فيها، كأن ينقل بوليت إلى المستشفى، أو يستدعي آخرين منتظرين عند مدخل المبنى. ذلك الرجل هو من يجب أن أنتظره. هو الذي سيفصل بيني وبين بوليت فأرجع وحدي، خفيفاً مسرعاً، إلى سيّارتي أولاً، ثمّ إلى الطريق الطويلة نحو بيروت.

الفصل الثامن عشر

محمّد صافي:

لأنّني كنت على ذلك القرب من الموت، قبلتُ به. قلت ذلك للطبيب الذي أخبرني أنّ جرعات العلاج التي حقنني بها لم تكن كافية. فكّرت أولاً أنّه أساء وقت إعلامي بذلك، فقد كنت تلقّيت ما ظننت أنّه الجرعة الأخيرة لتوّي، منهَكاً، مسمّماً ومتوجّعاً من أكثر من عضو في جسمي. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها سقوطي في الموت هيّناً. ربّما ما كنت أريده هو الراحة، مجرّد الراحة، حتى إنّني كنت أرى الموت أقرب إلى إغفاءة، كأن أذهب، كما في إبرة المخدّر حين تعطى لي، لا إلى النوم بل إلى الموت. لم أشعر به قريباً هكذا من قبل، وهيّناً هكذا. أعرف أنّنا، بتفكيرنا فيه، نرتعب قليلاً مرّة وفي مرّات نرتعب كثيراً. هو خوف متفاوت، لكنّه لن يكون مقبولاً أبداً. لذلك نروح نُسقط من أيدينا مسؤولية موتنا. نضعها في يد الله، حتى وإن كنّا توقفنا عن عبادته.

كانت مرّة واحدة إذن تلك التي استسهلتُ فيها الموت. لم تعد ثانية لكنّني ما زلت متمسّكاً بحصولها الأول ذاك، محاولاً إعادتها كما هي، أو كما أتتني في لحظتها: أكون أنا مستلقياً على باب

الموت، شاعراً بأنّ دخولي فيه هيّن. ولست فزعاً ولا أضطرّ إلى أن أكون شجاعاً ولا أفكّر ماذا هناك في الداخل.

هي تلك المرّة فقط، تلك اللحظة. لا شيء سواها يجعل ما أنا مقبل عليه محتملاً. لم يفصح لي الطبيب عن الوقت الباقي لي. هذا في يد الله قال، هو أيضاً. وحين أضاف، بتلك النبرة المحترفة، أنّنا على كلّ حال نفعل ما علينا، عرفت أنّه كان يُفهمني أنّني أنا، وحدي، من ينبغي أن يفعل ما عليه.

* * *

رفضتُ الجولة التالية من العلاج. قلت للطبيب إنّني لن أعود إلى ذلك. وهو، حين أدرك أنّها «لا» قاطعة، أجابني بأنّ ذلك مؤسف إذ ما زال هناك أمل بالشفاء. ظنّ أنّ ذاك الأمل الباقي، أو الأمل الأخير، سيثنيني عمّا قرّرته، لكنّني أعدت تأكيدي أن لا.

بل إنّي أكملت ذلك بأن مددت إليه يدي كأن لمصافحة أخيرة. تردّد قليلاً، ثمّ بدا كأنّه يرضخ لما أريده فمدّ يداً مرتخية إليّ وهو يقول: «هيدا قرارك على كلّ حال». لكنّني لم أكن قد خرجت بعد من الباب حين شعرت بأنّي ربّما لن أستطيع تحمّل ما سيحصل لي من دون أحد يكون إلى جانبي، أو على الأقلّ إلى أحد أعود إليه حين أمرّ بما لا أعرف كيف أتلقاه. تلك المصافحة التي أسرعتُ إليها لم تكن إلّا مكابرة. كأنّها ردّ على الإصرار والعناد اللذين أبداهما مرضي. كانت مكابرة، ردّاً منّي على المرض بقولي له: إن كنت أنت كذلك، فأنا كذلك أيضاً.

كان على الطبيب أن يفهم ذلك، وأن لا يتركني. وأنا كنت أنتظر أن أسمعه يقول لي، قبل أن أتوارى خلف باب عيادته، أن أسرع إلى

الاتّصال به ساعة أحتاج إليه.

* * *

هو قريب لي، ذلك الشاب الذي جاء ليكون إلى جانبي كما قال. كان أكبر قليلاً من أن أكون في عمر أبيه، فظللت أتساءل، فيما أراه جالساً أمامي منتظراً شيئاً يفعله، لماذا جاء إليّ ما دام لا يعرف أيّ شخص كنت ولا يعرف أحداً ممّن كانوا أصدقائي، وفوق ذلك لم يكن ينتظر شيئاً منّي. كلّ هذا جعلني أتصرّف من دون حرج من وجوده. معه، وهو هناك جالس على الكرسي ومسنداً مرفقه إلى الطاولة الصغيرة، كنت أفكّر في ما قرأته مرّة عن شخص مثله قال كاتب الكتاب، وهو يحكي عن مرضه، إنّه ظلّ يتساءل بينه وبين نفسه هل الذي أمامه ملاك يستحيل لمسه أم هو شخص حقيقي. ذاك أنّ هذا الجالس أمامي يظلّ في مكانه حيث هو، أو ربّما أنا من يبقيه هكذا لا يفعل شيئاً. فقط يقوم بتلك الحركة التي تشبه النهوض، ولا ينهض، حين يرى أنّني سأفعل بنفسي ما بدأت القيام لأفعله. أقول له إنّني «بعدني فيني إتصرّف لوحدي». وأنا أعرف كيف وقعتْ في أذنه تلك الـ«بعدني». لكنّني أضيف من بعدها أنّنا، أنا وهو، سنخرج اليوم، لأفهمه أنّنا ما زلنا بعيدين عمّا جعلته يفكّر فيه. أحياناً أكلّمه، فقط لكي أشعره بأنّي غير مستاء من وجوده، فيردّ بحماسةِ من كان قبل ذلك يتردّد في أن يفصح عمّا يرغب في أن يقوله. أسأله عن رجال من أقاربنا توقّفتُ عن أن أعرف عنهم شيئاً، فيجيبني مفاجئاً إيّاي كيف يعرف كلّ من يُسأل عنهم. وحين يأتي في النهار التالي، يضيف شيئاً إلى ما كان قاله عمّن سألتُه عنه، كأنّما من أجل أن يوصل حبل الكلام الدقيق، والقليل، الذي

انقطع أمس. أو يقول لي إنّه لم يعرف بماذا يجيب أولئك الذين سألوه إن كنت أحبّ أن أستقبل زائرين. «لا أعرف يا طلعت» أقول له فيما أفتح يديّ لأدلّ على ضيق المكان وقلّة أثاثه. وبعد أن يقيس بنظره المكان حوله، متوقّفاً عند قطع من أثاثه، يهزّ رأسه موافقاً أنّ المكان هنا لا يصلح.

الفصل التاسع عشر

لم أجب على الاتّصالين اللذين تلقيتهما من ماهر. وهو، من جهته، كان متردّداً لا بدّ قبل اتّصاله حيث، في المرّتين، أقفل هاتفه قبل الرنّة الرابعة. كنت أعرف ماذا سيقول، فقد انقضى أسبوع كامل منذ أن تركت بوليت هناك، بين يدي وداد، ولم أتّصل لأعرف ماذا جرى بعد رجوعي، وحدي، إلى بيروت. تخيّلت، من بعد إقفاله خطّه، أنّه سيتّصل ببوليت على الفور ليبلغها بأنّي لا أجيب، وربّما يزيد على ذلك بأن يقول لها إنّه لن يعاود الاتّصال بي للمرّة الثالثة.

كنت أعرف كيف أدبّر اعتذاراً لماهر إن عاودتني رغبة في لقاء بوليت. بل ربّما أقول له صراحة إنّني أردت أن أرتاح لأنّ ذلك النهار أتعبني. وهو، سيقبل بذلك ربّما، فلا بدّ أنّه سئم، بطريقة ما، من مهمّته هذه المقتصرة على أداء الخدمات. أمّا أنا، من جهة أخرى، فلم أكن غير مبالٍ تماماً بما تركتُه هناك، قبل خروجي. على الأقلّ كنت راغباً في أن أعرف ماذا فعلتْ وداد بعدما اتّصلت بذلك الرجل الذي كانت قد صرفتْه. قالت آنذاك، فيما هي تقفل هاتفها، إنّه سيعود، وسيصطحب معه آخرين يساعدونه. هذا يعني، بحسب نظرتها إليّ، أنّني أستطيع أن أغادر الآن إذا شئت. وأنا، مع أنّني

كنت متشوّقاً للخروج، شعرت كما لو أنّها تدعوني إلى أن أغادر، شبه مطرود، لأنّه لا لزوم لي.

وفيما كنت أسوق سيارتي عائداً إلى بيروت رحت أفكّر في حالهما معاً، هي وبوليت، كطرف واحد، رغم أنّي رأيت أنّ شيئاً لم يعد يجمع بينهما. لم أكن أعرف تماماً كيف كانتا في السابق، أيّام ما كانتا طالبتين في الكليّة، لكنّني، مع ذلك، رحت أفكّر أنّني في ذلك النهار شهدت الفصل النهائي من علاقتهما. ذلك الانهماك الإجباري الذي أبدته وداد سيتوقف، لا بدّ، من لحظة ما تقلع السيّارة المستأجرة التي وَضَعتْ فيها بوليت. ولن تعود إحداهما إلى الاتّصال بالأخرى. فحتى بين امرأتين صديقتين يجب أن يكون هناك شيء يُعجب، أو يفتن، وهما باتتا لا تملك إحداهما شيئاً تُظهره للأخرى.

لقد خسرتا في ذلك اللقاء الذي لا أعرف كم انقضى من وقت قبل حصوله. فبوليت، حتى من قبل أن يُضعفها مرضها، كانت تحتاج إلى أحد ما ليأخذها إلى ذلك المكان البعيد. كنت أسألها ونحن نضيع بين المداخل الضيّقة هناك إن كانت تتذكّر في أيّ واحد منها علينا أن نعبر، فتضحك وهي تجيب بأن كيف لها أن تعرف. أمّا تلويحتها لوداد، تلك التي أنهضتها عن مقعدها إلى جانبي، فلم تلق استجابة مماثلة من وداد التي أسرعت إلى إيقاف هرج اللقاء لتنشغل بي كيف أدير مقود سيّارتي. كانت وداد تقوم بما يجب أن تقوم به، لا أكثر. أمّا في ما تلى من النهار، فقد ساعدتها على ذلك الانتكاسة التي أصابت بوليت، تلك التي أتاحت دافعاً مناسباً لاهتمامها بها.

* * *

أنا أيضاً طويت صفحة وداد. ذلك القليل الباقي من ليلتنا القديمة أنهاه تماماً ذلك النهار. عرفت، منذ وصولنا، أنّها قد لا تتردّد في أن تفهمني أنّني لن أحظى بالترحيب الذي أنتظره، وأنّني لن ألقى تجاوباً إن كنت جئت مذكّراً بذلك الذي كان بيننا. تلك القوّة التي عرفتها في صدّها السابق، تبدّت لي من جديد، لكن خالية هذه المرّة من الأمل بقبولها، ذاك الذي بقيتُ متمسّكاً به. كانت قد تغيّرت، حتّى عمّا كانته في تلك الصورة التي على هاتف سهير. شيئاً فشيئاً كنت أرى كيف أنّ تلك التجاعيد والغضون، التي ظننت أنّني أستطيع إزالتها، أو محوها، بإصراري على استعادة وجهها الأول كلما نظرتُ إليها، ازدادت قسوة عمّا كانته في الصورة. أمّا ثوبها الأسود فجعلني أتخيّل خباء جسمها من تحته، متروكاً لعتقه وعتمته. ثمّ تلك القبّعة البيضاء التي تحت منديلها الأسود، تلك التي تحرص النساء المحجّبات على تخبئتها لتكون مثل حجاب أوّل فوق الرأس. لقد أصبحت واحدة من أولئك النساء اللواتي تعيش بينهنّ. وقت طويل مضى على انتقالها للإقامة هناك، والثياب التي كان يمكنها، في وقت سابق، أن تبدو مؤقتة ومستعارة، صارت هي ثيابها. لم يعد بينها وبينهنّ ذلك الشيء الإضافي الذي كان يفرّقها عنهنّ. الشيء الإضافي الذي هو أنّها، مع أنّها تعيش عيشهنّ، إلّا أنّه كان متاحاً لها أن تعيش حياة أخرى. ذاك الشيء الإضافي الذي هو أنّها انضمّت إليهنّ بالاختيار والتطوّع، أو أنّها نذرت نفسها لتكون مثلهنّ، كان ينبغي أن يكون احتياطيّها الذي تحرص على أن تظلّ محتفظة به. كان يمكن لاختيارها الفقر والعيش بين الفقراء أن يكون بطولة، أو شيئاً شبيهاً بالتضحية بالنفس. لكن، في أيّ حال، كان

على ذلك أن ينتهي سريعاً، أن يكون محطة عبرت بها وداد، لتخرج منها بعد ذلك في لحظة سريعة مناسبة.

الفصل العشرون

رغم أنّ من يلتقونه كانوا يتناقصون سنة بعد سنة، حضر كثيرون إلى السهرة التي دعا إليها مَن كانوا آخر جماعة من أصدقائه. كنت أعرفهم. على الطريق أتبادل التحيّة مع من أصادفه منهم، بل نتصافح في أحيان، أو نتبادل كلمات سريعة تنتهي غالباً بذكر شيء ما عنه. وكان لديهم ما يروونه، نكات أو آراء ساخطة كان محمّد صافي يطلقها في السهرات وهم يحفظونها ويردّدونها، مثلما كنّا نفعل في أيّام الكليّة، حين كنّا نحن أصدقاءه.

كانت دعوة إلى كلّ مَن عرفوه، جرى تناقلها على الألسن لا على شاشات التلفونات بحسب ما بات يفعل موجّهو الدعوات. ربّما لأنّ ذلك التناقل الشفهي كان يتيح لهم أن يقولوا ما لا يستطيعون قوله في نصّ مكتوب: «... قرّرناها هيك بسرعة قبل ما يموت»، هكذا قال لي ذاك الذي دعاني إلى أن أجيء إلى السهرة، لكوني واحداً من أصدقائه القدامى.

إذن، سيكون هو، محمّد صافي، حاضراً في تلك السهرة. وقد أجفلني ذلك، بل لا بد أنّني تراجعت خطوة إلى الوراء عن ذلك الرجل الذي كان يظنّ، لا بدّ، أنّ ما قاله سيزيدني رغبة في أن أكون

بين الحاضرين. أوّل ما خطر لي هو أنّني أستطيع أن أجد عذراً لعدم ذهابي. لا أستطيع أن أرى محمّد صافي متحمّلاً أن تكون هذه سهرته الأخيرة. ثمّ كيف سأصافحه، وأيّ رسالة أبلغه حين، مع المصافحة، ستلتقي عيوننا بتلك النظرة التي ستكون الأخيرة، هي أيضاً.

بقيت متردّداً في الذهاب. لكنّني، فيما بقيت أتساءل حتى آخر لحظة عن قيامي بذلك، أو حتى وصولي إلى مكان السهرة، وجدتني في ذلك اليوم أدفع بيدي ذلك الباب الضخم الثقيل الذي يحجز المكان عن العابرين بمحاذاته على الرصيف. هناك، وراء الباب، كان آخرون قد وصلوا متأخّرين مثلي، وظلّوا واقفين حيث هم، مفكّرين ربّما ماذا عليهم أن يفعلوا بعدما رأوا أن ليس من مطارح شاغرة على الكراسي المتلاصقة أحدها بجانب الآخر، والمتدرّجة صفوفها حتى أوّل القاعة. بقيت واقفاً بينهم، بل خلفهم، متخفّياً بهم، وقريباً من الباب الذي، ساعة أرغب في الخروج، سيكون هنا ورائي. لكنّني، من بين تلك الرؤوس، كنت أنظر إلى الجالسين الناظرين كلهم إلى الأمام، حيث يقف رجل وراء ميكروفون. كان ينتظر شيئاً يحصل كي يبدأ قراءةَ ما في الورقة التي بين يديه الاثنتين. بين الحين والحين، كان يرفع رأسه لينظر إلى آخر القاعة، حيث نحن الواقفين، ثم يجيل بصره على الجالسين الواقعين تحت نظره، مسروراً بكثرتهم. فجأة، وفيما أنا أنظر إلى الذين قدموا من بعدي حاجزين إيّاي عن الباب، ارتفع صوت تلك النقرة المعدنية لتثبت للرجل الواقف منتظراً هناك أنّ صوته سيكون مسموعاً حين يباشر بالقراءة، أو ربّما ليسكت أصواتاً كانت تطلع من هنا وهناك. ظلّ الباب الضخم يُفتح بين الحين والحين، ليزداد عدد الذين صاروا

ورائي دافعين بنا، أنا ومن هم حولي، كي ننحشر ونتقدّم في وقوفنا إلى الأمام. ثمّ طلع للمرّة الثانية ذلك الصوت ليعلن أنّ الرجل هناك سيتكلم فعلاً هذه المرّة. «أهلاً بالأصدقاء» قال، ثمّ، وكأنّه لم يجد الكلمات المناسبة لما يضيفه إلى كلمات ترحيبه، اكتفى بالالتفات إلى يمينه، بطريقة بدا بها كأنّه يدعو الحاضرين جميعهم إلى أن ينظروا حيث ينظر. هناك كان محمّد صافي، على ما عرفت من التصفيق الهادئ والمتقطع الذي يطلع من الصفوف الأولى. كان عليّ أن أرفع جسمي ورأسي لأراه جالساً على كرسي منفرد، هكذا بلا شيء أمامه أو حوله ليسند يديه أو ليغطّي جلوسه المنكشف. وحين بدأ ذلك الرجل كلمات ترحيبه ذاكراً أنّ «صديقنا وحبيبنا»، على رغم أوجاعه ومرضه، أصرّ على أن يكون بين أصدقائه وعارفيه، رأيت محمّد صافي وهو يهزّ رأسه بحركة موافَقة متكرّرة، كأنّه يؤيّد ما يسمعه، مسلّماً أمره لما تقتضيه المناسبة.

* * *

أخرجتني عنوة تلك اليد من بين المزدحمين حولي. لم يتحرّج ذلك الرجل، الذي كان هو نفسه من دعاني للمجيء إلى ما سمّاه سهرة، من أن يقول لي أمامهم إنّني لا يجوز أن أظلّ واقفاً هنا. قال لي، على مسمعهم أيضاً، إنّ هناك أمكنة شاغرة ويجب أن أسرع لأحظى بواحد منها. لم ينتظر موافقتي، بل مشى أمامي من أجل أن يدلّني أين سيكون جلوسي. وأنا تبعته، فقد فكّرت أنّ موقفنا سيبدو غريباً إن استدار، وهو في وسط طريقه، ووجدني لا أزال واقفاً في مكاني. متردّداً كنت، لكنّي تبعته. لم أكن قد قطعت إلّا صفوفاً قليلة حين اهتديت إلى أين يقودني. كانت ثلاثة مقاعد قد

تُركت خالية، وحين بلغناها أشار عليّ أنّها هذه. ثمّ همس لي، فيما أنا أنتظر أن يفسح الجالسان على الطرف لعبوري، أنّني إن أحببت أن أدلي بكلمة فسيكونون مرحّبين.

لم أعرف إن كان عليّ أن أومئ لمحمّد صافي، أو أن أبتسم له إن صادف وقوع نظره عليّ. كان يفصلني عنه صفّان من الجالسين، ثمّ تلك المساحة الخالية في الأمام. كان قد استعدّ للسهرة التي قصّ لها شعره وارتدى لها بدلة كحلية قدّرتُ أنّها جُلبت خصّيصاً للمناسبة. كان مطرقاً خافضاً رأسه وهو يكرّر تلك الحركة الموافِقة على ما يسمعه. لكنّه مع ذلك بدا أكثر انشغالاً بيديه اللتين راح يقلّبهما ويضع إحداهما بجانب الأخرى كأنّه لاحظ فرقاً بينهما ويرغب في أن يتأكّد إن كان ذلك صحيحاً. وبين الحين والآخر ينصرف عنهما لينظر بعينين تظلّان منخفضتين إلى الجالسين في أوائل الصفوف. ولا يستوقفه أيّ شيء ممّا يرى إذ لا يلبث أن يعود إلى النظر في يديه. «غلطوا... أكيد غلطوا» تمتم الرجل الجالس إلى جانبي، بصوت بدا لي أنّه يتوجّه به إليّ. ثم عاد ليقول، بالصوت المتمتم ذاته، إنّهم جاؤوا به ليشارك في حفل تأبينه. بما يشبه نصف التفاتة، سريعة وخاطفة، أدرت وجهي إليه. وكان ذلك كافياً لأرى التماعة عينيه الناظرتين أمامه مباشرة، جامعاً هكذا طرفي المشهد أمامه من دون حاجة إلى التلفّت.

لا الرجل الذي أنهى كلمة الترحيب الأولى، ولا الذين سيبدأون بالتعاقب على الكلام من بعده، سيأتون على ذكر السبب الصريح الذي جاء بهم إلى هنا. رجل الميكروفون الأوّل وضع تحديداً لذلك بقوله إنّنا نجتمع اليوم لتكريم صديق. وهذه ستتكرّر لا بدّ في الكلمات التي اشترط ذاك الرجل، قبل أن يترك لهم الميكروفون، أن

تكون قصيرة. وهم سيبدأون هكذا، على نحو ما بدأ أوّلهم كلمته: «عرفت محمّد صافي من...»، وسينظر إلى حيث يجلس محمّد صافي، كأن من أجل أن يساعد نفسه على التذكّر.

«هنّي بس عم يعذّبوه»، عاد الرجل الجالس إلى جانبي يقول، ثمّ، بعد صمت ثوانٍ قليلة، قال لي، مقرباً جسمه منّي هذه المرّة، إن كنت أظنّ أنّ شيئاً يمكن أن يسليّ رجلاً يعرف أنّه قريباً سيموت؟

* * *

كان عليّ أن أبقى حيث أُجلستُ. ليس فقط لأنّ خروجي سيلفت الأنظار إليّ، لكن أيضاً لأنّي كنت راغباً في أن أرى في أيّ هيئة سيكون محمّد صافي بعد جلوسه الطويل الذي لم يغيّره، حتى حين أُعطي له الميكروفون ليشكر الحاضرين ويلقي بعد ذلك مقطعاً من قصيدة قديمة له. كنت أريد أن أعرف كيف سيقوم، ثمّ كيف سيبدو وهو واقف، وكيف سيمشي. لكن ما إن انتهى الحفل، حتى اندفع رجال ليتحلّقوا حوله حاجبين إيّاه عن النظرات الأخيرة التي راح يطلقها نحوه الخارجون من القاعة. ربّما أطلت وقوفي، هناك عند طرف الصفّ الذي خلا ممّن كانوا جالسين فيه، بمن فيهم الرجل الذي خصّني بتذمّراته. ذاك لأنّي رغبت، هكذا فجأة، في أن يراني محمّد صافي حين يصير واقفاً، بل أن يراني ناظراً إليه، رافعاً له يدي، من تلك المسافة، بما يشبه التحيّة. لكنّ أولئك الذين التفوا حوله ظلّوا حوله، وربّما انضمّ إليهم آخرون، وأنا يجب أن أخرج لئلّا أبدو، إن حدث والتفت في اتّجاهي، أنّني أبالغ في تذكيره بنفسي.

لكنّني عدت ورأيته لكن وأنا في سيّارتي التي يقطّع سيرها ازدحام تلك الطريق الضيّقة. كان الذين حوله قد باتوا قليلين، وهو يقف بينهم منتصباً مرتفعاً عنهم، حتى إنّني تساءلت إن كان طويلاً إلى هذا الحدّ حين كنّا معاً. ربّما هو نحوله بسبب المرض، أو ربّما هي أناقته التي، على رغم كلّ ما يمكن أن يكون دائراً في رأسه، أصرّ عليها. حتى إنّه بدا نشيطاً في تلفّته بين أولئك الباقين حوله، ونشيطاً أيضاً في محاولته الانسلال من بينهم، لأنّ السيّارة التي ستقلّه ظهرت له من مسافة سيّارتين أو ثلاث واقفة في الزحمة خلفي.

الفصل الواحد والعشرون

يوسف:
مَن يقبل أن يشارك في الحرب فعليه أن يقبل بكلّ ما قد توصله إليه. أنا لم أُسقط قذائف على المدنيين لكنّني لم أحتجّ على ذلك، لا أمام الحزب ولا أمام حلفائه. كنت مقتنعاً بأنّ عليّ أن أقبل بذلك وإلّا فسيكون عليّ أن أقعد في بيتي مثل جميع الناس الذين تسقط عليهم القذائف. سكتُّ عن أمور أخرى كانت في متناول يدي. لم أفعل مثلاً ما كان يجب عليّ فعله لأوقف إخراج عائلات من بيوتها. لم أبذل جهداً كنت أستطيع بذله لأفرج عن مخطوف تصيّده مقاتلون كانوا على الجبهة معنا. في الحرب أنت لست وحدك. هناك الآخرون الذين لا يتوقفون عن أن يثبتوا أنّهم أشدّ قساوة منك، سواء كانوا أعداءك أو كانوا حلفاءك. مع هؤلاء لن يُرسم حدّ نهائي للضراوة. لذلك لن يصحّ أن تظلّ كما أنت. عليك أن تتقدّم، بل أن تسابق، وتسبق. أولئك الذين استفظعوا تنحّوا. صاروا، مرّة أخرى، في صفّ أولئك الذين سمّوا أنفسهم «ضحايا الحرب». وليس عليك أن تفهم أنّ الحرب تبدأ هيّنةً. من معركتها الأولى ستعرف إلى أين هي ذاهبة. أولئك الذين كنت آخذهم إلى مركز التدريب لم يحمل

السلاح منهم إلّا قليلون أستطيع الآن أن أعدّهم على أصابع يدي. كانوا يظنّون فيما هم يصوّبون على أهداف مرسومة على كرتون أنّ أكثر ما سيتعرّضون له هو قضاء ليلة أو ليلتين في خندق محميّين من الرصاص، هذا إن جرى إطلاق رصاص. كنّا نسمّيهم جبناء. وكنّا نقول لهم ذلك في وجوههم. قبل الحرب لا تقول للجبان في وجهه أنت جبان. لكنّه، وهو يتركك ليذهب هارباً إلى بيته، يقبل بذلك، بل ويعلنه لك كما لو أنّه يعترف بسرّ ظلّ كاتماً إيّاه طيلة ما سبق من عمره. في البداية كنت أقول لهؤلاء إنّني أخاف أنا أيضاً. لا أحد إلّا يخاف، لكنّ الجبن شيء آخر. كي لا تكون جباناً في الزمن العادي يعني أن تقدر على أن تكون حيث يكون الخطر. أمّا في الحرب فعليك أن تخطو خطوة إلى ما بعد ذلك. أن تشعر، حين تعود ممّا كنت قد خضته، بأنّك نجوت فعلاً.

أمّا أن تمضي إلى ما يتراءى لك أنّه آخر الطريق، فإنّك ستحظى عندئذ بالمجد. أعرف أنّها كلمة لم تعد موجودة إلّا في الكتب القديمة، وأنّ المحاربين الآن يستخدمون كلمات أخرى، بل ولغة أخرى، حين يصفون دافعهم إلى البقاء على سلاحهم. أنا مثلهم، لا أنطق بتلك الكلمة، «المجد»، وأعرف أنّ ما يجري بين المتقاتلين، هو دون تلك الكلمة بكثير. لكنّي أحسّها تلك الكلمة. أحسّ بمعناها كاملاً. ليس فقط وأنا عائد من مواجهة خطرة، بل أيضاً حين أستعيد، وأنا وحدي، ما كنت قد قمت به. ليس على جبهات القتال هنا، حيث ما يسمّى المحاور، تلك التي، في وقت ما، بدا لي أن لا نصر يتحقق فيها ولا مجد. أنا قاتلتُ من لا يطعن أحد بشرف قتالهم. أولئك الذين اسمهم العدوّ. أولئك الذين وحدهم استحقّوا تلك التسمية، فيما المتحاربون هنا كانوا يرون، على رغم كلّ ما جرى

بينهم، أنّ من يقاتلونهم هم أقلّ من ذلك. القتال المشرّف هو الذي خضته، ولأكون صادقاً في ما أقوله، هو الذي كُلّفت بخوضه. لكنّ ذلك لا يهمّ ما دمت أنا المخطّط والمنفذ والآمر لأولئك الذين كانوا معي.

مشرّف لأنّه، بحسب ما كان يقول الحزب، هو القتال الحقيقي، فيما القتال الآخر، ذاك الذي كان الحزب لا يزال مرابطاً على جبهاته، وسِخٌ وبشع وغرق في الأوحال. وكنت أعرف، وأنا في خباء ما يسمّونه النضال السريّ، أنّهم يمعنون في إذاعة أخبار العمليات التي نجريها أنا ومن هم معي، مشيعين هكذا أنّ هذه وجهتهم في الحرب. ذلك الشرف الذي يتحقّق كانوا يتلقون نتائجه وهم هناك، حيث هم. يقولون «نحن...»، أو يقولون «حزبنا...». وأنا كان يكفيني ذلك الاستقبال الذي ألقاه، هناك في القاعة المقفل بابها، حيث يكون في انتظاري ثلاثة أو أربعة من أولئك الكبار. كنت راضياً، أو فلأقل منتظراً أن يحين الوقت الذي يقال فيه، حين أظهر على من أعرفهم وعلى من لا أعرفهم: «هذا هو»، «إنّه هو الذي...». ذلك يفوق كثيراً أن يرفعني ما أنجزته درجة أخرى في التراتب الحزبي. لا يكفي ذلك المجد، أو ذلك الشرف، حين أشعر بهما وحدي. أعرف أنّ هذا لا يتّفق مع كوني حزبياً ينبغي أن يكون نكران الذات واحدة من صفاته. لكن عليَّ أن أستحق تلك اللحظة التي أحسّ فيها كما لو أنّ أحداً يرفع يدي عالياً مثلما يحدث للمنتصرين على الحلبات.

ولم يعجبني أن يكون كلّ ما قمت به مجرّد نجاح في مهمّة كُلّفت بها، إذ لا يجب أن يتساوى ذلك مع مهمّة مثل جمع التبرّعات للحزب أو قيادة مجموعة حزبية في منطقة أو حيّ. لهذا بقيت مصرّاً على أن لا أنزل عمّا كنت فيه. أعرف أنّ تلك الحرب فات أوانها في

ما خصّ الحزب، لكنّني لا أستطيع أن أنتقل منها إلى واحدة من المهمّات التي اقتُرحت عليّ. ما أريده هو أن أبقى هناك. أقصد أن أبقى في مركز لا أعرف ما هو، لكنّه لا يبتعد عمّا استحققته ولم أتلقّ جوائزه بعد.

ليس هذا وحده ما يقعدني في البيت الآن. أنا أيضاً أستطيع أن أكون ماكراً فأقول مثلاً إنّني لم أُطق التخاذل في وقت ما كانت تنبغي المواجهة. أو أقول إنّ التضحيات الكبيرة التي بُذلت لا ينبغي أن تنتهي نزاعاً على المسؤوليات والمناصب. هم أيضاً يستطيعون أن يقولوا إنّ المكاسب أغرتني وإنّني أُخرجت من بينهم ولم أخرج محتجّاً أو منشقّاً.

أنا الآن في بيتي. ما صحّ مع أبي حين واجهتُه، وما صحّ معي أيضاً حين قرّرت أن أصارع نفسي وأغلبها، لم يصحّ معهم. ذاك أنّهم يعرفون كيف يظلّون ثابتين في القواعد التي طال مكوثهم فيها. ويعرفون كيف يناورون أيضاً. لم يكن خروجي من حزبهم سهلاً، ولن تنطوي صفحته بعد أن صرت خارجه. لكنّني لم أشأ أن أخرج بلا غنيمة، أقصد أن يظلّ ما حقّقته عندهم، في حسابهم. قلت إنّ ما أنكروه عليّ سيكافئني سواهم عليه.

«يعني بعتَه!» قال لي واحد من الساهرين الذين جاء بهم شوقي. لم يعرف إلى أيّ حد أغضبني. وأنا سخطت به. رفعت صوتي حتى بدا له، وللآخرين الذين معه، أنني أهدّده. ولم يهدّئني خروجهم مسرعين فيما هم يتمتمون خالطين التذمّر بالاعتذار، بينما بقيت واقفا في مكاني، هنا في وسط الصالون. كان شوقي، قبل أن يستدير ليلتحق بهم، قد همّ بأن يقول لي شيئاً. لم يفعل. اكتفى بتلك الحركة من يده، الحركة المتسائلة التي تعني ماذا

جرى لي، وأنّني يجب أن أنتبه. لم أردّ بشـيء، ولم أتقدّم خطوة لأبدو كأنّني أرافقه إلى الباب.

الفصل الثاني والعشرون

لكي أعيد الاتصال ببوليت، بعد انقضاء أكثر من شهر على إهمالي لها، عليّ أن أقوم بخطوة تفاجئها. أن أذهب مباشرة إلى بيتها. تقوم لتفتح الباب فتجدني هناك، واقفاً أمامها. ستفرح بي، بل وتعانقني، ولن تذكر شيئاً عن اختفائي طيلة تلك المدّة. هي ليست من نوع النساء اللواتي يحاسبن أو يعاتبن. في أحيان أفكّر أنّها لم تنضج كفاية لتكون مثلهنّ. لم تنفصل عن وقت ما كانت طفلة. وظلّت كذلك برغم المرض الذي يغيّر الناس عادة ويعقّد عقولهم. أكثر ما بقيت أتذكّره، في هذه الأيّام الأخيرة، أو أتخيّله، هو إمساكها علبة الكاتو بيد وإلصاقها هاتفها باليد الأخرى فيما هي تمشي مسرعة إلى بيتها. فرحها بذاك القليل حقيقي. لا تفكّر أنّه ليس إلّا لحظة عابرة سريعاً ما تتلاشى.

لن أتّصل قبل ذهابي. سأكون، حين يفاجئها ظهوري على الباب، كأنّني لم أستطع تحمّل القرار الذي اتّخذتُه بالابتعاد عنها. كأنّي أقول ها أنا قد جئت، وهي ستسرع، بعد ثانيتين أو ثلاث، إلى أن تحتضنني ملقية رأسها على صدري. وبيدها الصغيرة ستمسك يدي، فيما لا تزال ملتصقة بي، جارّة إيّاي إلى الداخل. وأنا سأبقى

محتضناً إيّاها، شادّاً جسمها إليّ، لكنّني سأربّت كتفها بعد ذلك موقفاً، أو مؤجّلاً، ما قد يوصلنا إليه اندفاعها. سأربّت كتفها بيدي هناك، قرب ذلك المقعد في غرفة الجلوس، مفهماً إيّاها أنّني، الآن على الأقل، سأجلس هنا.

سأكون حذراً، أرسل إشارات غرامية ثمّ أتراجع عنها. وهي باتت تعرف أنّ ما نبدو مقبلين عليه في لحظة سيتوقّف في اللحظة التالية. ونحن في الطريق للقيام بتلك الزيارة قالت لي إنّ وداد لن تصدّق أنّنا «ما نمنا بعد مع بعضنا». وجدَتْها فرصة مناسبة للكلام عن ذلك، لكنّني بقيت صامتاً. وهي تلقّت صمتي بصمت مشابه فقد أدركت أنّ ما قالته أحرجنا معاً. ثمّ التصقت بي في جلوسنا على الطرّاحات، هناك من لحظة وصولنا إلى بيت وداد، فيما رحت أتساءل إن كانت تفعل ذلك للاعتذار عمّا قالته في السيّارة، أو لتُفهم صديقتها أنّنا لسنا أقلّ من عاشقين.

سأذهب إلى بيتها مفاجئاً إيّاها وسأكون، هذه المرّة، أكثر استعداداً لأن نصل إلى ما تأخّرنا عنه في كلّ المرّات التي سبقت. رغبتي فيها، تلك الحائرة المتردّدة والتي لم تكتمل مرّة، سأدفع بها قدماً. سأنحاز إلى ما يثيرني في تلك الشُقرة الخفيفة متخيّلاً كيف ستكون هناك عند ملتقى فخذيها، كما إلى ما تثيره هشاشة جسمها الذي سينبّهني أن أحذر من أن أقوم بشيء قد يؤذيه.

* * *

أول ما فكّرت فيه وأنا هناك، واقفاً بمواجهة الباب الذي لم ينفتح لي، هو أن أتّصل بماهر. لكنّني استبقت ذلك بأن طلبت رقمها. رنّات قصيرة ومتلاحقة سمعتها تبدأ من فور ما كبستُ رقمها الأخير.

الهاتف مقفل، وهذا لا يحدث إلّا عن قصد. أو ربّما أصابها شيء غيّبها. الرنّات نفسها تكرّرت في اتّصالي الثاني. وأنا ما أزال واقفاً حيث أنا، فكّرت أن لا بدّ من الاتّصال بماهر. لم يردّ هو أيضاً، رغم إبقائي الرنين متواصلاً لأكثر من ستّ مرّات أو سبع. ها هو يفعل مثلما فعلت، وفكّرت أنّه ربّما سيجيب على اتصالي الثاني الذي سأقوم به حين أصير قريباً من سيّارتي. وإذ لم يردّ على هذا أيضاً، أقفلت هاتفي وأعدته إلى جيبي كارهاً له ومتعجّباً كيف أنّه، هو الخانع المستجيب لكلّ ما يُطلب منه، يخبّئ في نفسه تلك الضغينة.

فجأة تذكّرت أنّها ربّما تكون في المستشفى. انتبهت، وأنا أدير سيّارتي لأذهب إلى هناك، أنّني لم ألحظ هذا الاحتمال في السيناريو الذي أعددته للقائي بها. وفي طريقي إلى المستشفى الذي أعرفه، خطر لي أنّني لم أفكّر من قبل بما يتعدّى تلك النوبات التي تعاودها، معتقداً ربّما أنّ الذهاب إلى المستشفى والعودة منه هما كلّ شيء في ما يتعلّق بمرضها. ومسترسلاً في سيناريو المخاوف الذي أحللته محلّ السيناريو الأول، رحت أتخيّل أنّها تعرف بالخطر الذي لم أنتبه له، بل ربّما تعرف أيضاً إلى أين سيودي بها.

كانت زحمة السير تزيدني كرهاً لماهر الذي كان عليه أن يردّ بعدما منح نفسه الوقت الكافي لمعاملتي بالمثل. بدا لي كأنّه أظهر هكذا فجأة عن وجه لئيم، لكنّني رغم ذلك رحت أنظر إلى شاشة التلفون مرّة بعد مرّة لأتبيّن إن كان أرسل شيئاً، لأقول أنّه ما زال مصرّاً على لؤمه وأنا ألقي بالتلفون في جيب السيّارة أمامي.

* * *

وأنا أنتظر ما سيقرأه موظف المستشفى على حاسوبه كانت بوليت قد اكتملت كامرأة أخرى. كلّ كلمة قالتها، كلّ حركة قامت بها، كلّ شيء، حتى ابتسامتها لي أو تربيتها على ذلك الجانب من السرير لتدعوني إلى أن أجلس... كلّ هذا لم يعد يعني ما كان يعنيه. هي امرأة أخرى. كنت أنا الساذج إذن، المسلّم بأنّ ما تظهره لي عن مرضها هو كلّ شيء.

– نعم كانت عندنا، قال موظف المستشفى.

– كانت هون وضهرت؟

– آخر مرّة كانت من أقلّ من شهر... أنتَ قريبها؟

تمتمتُ محاولاً إفهامه أنّ هذا لا يهمّ، لكنّ ما رآه، وربّما ما سمعه، أوقفه عن إعادة التحديق بالشاشة التي أمامه. وأنا عرفت أنّ إلحاحي لن يفيد، وأنّي لن أتحمّل أن يقول لي إنّ هذه قوانين المستشفى.

تركته لأتسلق الدرجات ركضاً إلى الطابق الذي كانت قد أُنزلتْ فيه المرّة الماضية. كنت أعرف عمّن أبحث: نادين، الممرّضة، التي لا أعرف كيف أتاني اسمها بهذه السهولة. «عم إسأل عن نادين»، قلت لتلك المرأة بحجرة الممرّضات في أول الممشى الطويل.

«تذكّرتَك» قالت لي. وكان هذا مشجّعاً إذ ستجيبني هي إن بدا أنّ نادين ليست هنا.

– جيت لعند بوليت، لضهّرها على البيت.

– كيفها هلق، في شي؟ عاد صار معها شي...؟

– بدّي إسأل إذا لازم نتوقّع شي عن قريب...

– ما بعرف مسيو، يمكن لازم تسأل الدكتور اللي اهتم فيها آخر مرّة.

– يعني كانت بحاجة لدكتور غير اللي عم يعالجها؟

ابتسامة الاستقبال، تلك التي صاحبت قولها إنّها تذكّرتني، ما لبثت أن تلاشت: «قلتلّك يا مسيو إنو أنا ما بعرف. هيدا مش شغلي».

كان عليّ أن أغادر، على الفور، وإلّا فستقول لي قريباً إنّني أؤخّرها عن الشغل الذي حملت ملفّاته وانتظرت واقفة.

تراجعتُ خطوات قليلة كي أبدو أنّني لن أقف في طريقها. وهي انعطفتْ من أمامي وتقدّمت خطوات في الممشى الطويل، توقفتْ من بعدها لتدير وجهها إليّ. ثمّ استأنفت سيرها، متعجّلة، ربّما من أجل أن تخبر أحداً أنّني أقف حيث يجب ألّا أكون.

* * *

عدت قاطعاً المسافة إلى بيت بوليت. هناك سأكرّر وقوفي ذاته أمام الباب الذي لن ينفتح، أعرف، لكن لا شيء آخر يمكنني أن أفعله. على الطريق، وأنا عالق في الازدحام، بدأت بإعادة الاتّصال بماهر، لكنّني عدت وقطعته. لن أتحمّل وجهه وهو ينظر، مرّة أخرى، إلى رقمي على تلفونه ويبتسم ابتسامة الجبان المنتصر. هو يعرف أين هي بوليت. أكيد يعرف، وهذا ما يزيده لؤماً، إذ بات لديه شيء ثمين يسكت عنه ويخبّئه. لن أتّصل به مرّة أخرى. ولن أردّ على اتّصاله حين يحاول هو أن يتّصل بي...

ركضاً صعدت على الدرجات، وذلك كي أسبق سيّارة ضخمة قد تأتي وتجد سيّارتي مضيّقة الطريق. ليس لديّ وقت كثير. سبقتني يدي إلى الباب خابطة الدقّة الأولى، هكذا كأن قبل خطوة من وصولي. ثمّ ارتميت عليه، لاهثاً من سرعتي على الدرجات. الخبط

على الباب وليس الضغط على الجرس، لاختصار الوقت القليل. ثمّ رحت أخبط بقوّة. ثمّ بقوّة أكبر. ثمّ بقدمي.

لا أحد.

عليّ أن أعود مسرعاً إلى السيّارة في الأسفل. كنت قد خبطت الباب خبطة أخيرة، خبطة واحدة أخيرة، ساخطة، حين فتحتْ امرأة باب شقتها الملاصقة فيما هي تتساءل مستنكرة: «شو في؟ شو هيدا...». وحين وقع نظرها عليّ قالت لي متّهمة «إنت مين... شو بدّك...؟».

– بوليت مش عمتفتح، خيفان يكون صار لها شي.

– بوليت مش هون، ما في حدا هون.

– أنا صديقها...

– صديقها وما بتعرف إنّها مش هون!

– كنت غايب.

– بوليت صارت عند أخوها. هوي إجا وما في حدن حدّا... وأخدها... كانت مريضة عمتموت...

بدت كما لو أنّها تنتظر أحداً لتقول له كلّ شيء. لكن أوقفها فجأة خبط أقدام قويّة أعقبتها كلمات شاتمة ومهدّدة. «سيّارتك اللي قاطعة الطريق؟» قال لي الرجل الحانق من حيث وقف في وسط الدرجات. كان عليّ أن أنزل على الفور، لكنّني التفتّ إلى المرأة قبل ذلك لكي أقول لها أن تنتظرني وإنّي سأرجع. لكن صوتاً من الرجل زاعقاً أصمتني، فاستدرت بحركة سريعة لأبدأ النزول. تنحّى لي لأسبقه ولينزل من بعدي، فيما المرأة تقول من ورائي ما لم تستطع أن تفوّته:

– أنا تلفنت لأخوها على فرنسا... كانت عمتموت وما حدن حدّا.

سطور أخيرة
زيارة لم تكن ضرورية

لم يزل مبنى الكليّة قائماً. من الخارج لم يتغيّر فيه شيء كثير. العتق ربّما، ذاك الذي لا بدّ منه، فالجدران الظاهرة على الطريق لم يتجدّد طلاؤها ولو مرّة واحدة. وهناك أيضاً تلك اللافتات التي أضيفت إلى اللافتة الوحيدة التي كانت تعيّن، هناك فوق المدخل الرئيسي، أن هنا «كليّة التربية». تلك اللافتات، التي عُلّقت واحدة بعد واحدة كلما أضيفت إلى المبنيين كليّة جديدة، أقلّ عرضاً كلها لتشير ربّما إلى أنّ كليّتنا ما زالت هي الكليّة الأصل. أمّا تلك التي تشير إليها اليافطات الجديدة، ففروع لكليّات لم يكن لها وجود في أيّامنا، مثل الزراعة والسياحة والعلوم التقنية، وقد توزّعت صفوفها على الطوابق، كما اختلط طلّابها مع سواهم عند مدخل الكليّة وفي ممرّاتها. هكذا صار متعذراً على من كانوا طلّاب الكليّة القدامى، حين يمرّون من هناك، أن يلتفتوا إلى الطلّاب الواقفين عند المدخل، ويقولوا إنّ هؤلاء هم الذين ورثوا الكليّة. ثمّ إنّ طلّاباً كثيرين تعاقبوا طيلة تلك السنوات الكثيرة. كانوا أجيالاً، أفواجاً تأتي

وأفواجاً تذهب، متبدّلين في كلّ مرّة حتى ابتعد الشبه بيننا وبينهم فبات من الصعب أن يذكّرونا بأنفسنا.

من هؤلاء يجب أن نطلب الإذن قبل أن نقيم تلك السهرة، قال إبراهيم علواني لزوجته حين كانا مارّين بسيّارته الشيفروليه الكبيرة من أمام الكليّة. كانت تعاودها تلك الفكرة كلّ ثلاثة أشهر أو أربعة، فيحبطها إبراهيم بقلّة حماسته. يقول لها إنّ ذلك يحتاج إلى شغل كثير وإنّها ربّما لن تجد أحداً يتطوّع ليساعدها فيه. وبعد أن يكرّر ما اعتاد قوله، يعرف تلك اللحظة التي ستطوي فيها زوجته صفحة السهرة، أو الحفلة كما تسمّيها في أحيان، لكن مؤقتاً كما في كلّ مرّة، وذلك من لحظة ما يسمعها تقول، بما يشبه أن تكون تحدّث نفسها: «ما بيصير ننسى هيديك الإيّام...»، ثمّ، بعد صمت لا يزيد عن دقيقة، تُلحق ما قالته بجملة تأسّف فصيحة: «كأنّ شيئاً لم يكن».

تعرف أنّهم تغيّروا كلهم وليس فقط ذلك الرجل الذي صادفاه هي وإبراهيم في المول الضخم. كان مثلهما يدور في جناح المفروشات، ويسترق النظر إليهما بعينيه اللتين تهدّلت أجفانهما كاشفة عن شرايينهما الدقيقة الحمراء. قال لها إبراهيم أن تتجاهله، إذ لم يكن أبداً ممّن يمكن أن يذكّرهما بأحد يعرفانه. لكنّ الرجل، فيما هما خارجان من ذلك الجناح، تقدّم منهما بخطواته البطيئة تلك، وسألهما إن كانا من طلّاب كليّة التربية.

صدمهما، أو صدم نبيلة خصوصاً. قالت لزوجها «هلّق نحنا صرنا هيك متلو؟». لكن إبراهيم الذي يعرف كيف يخفّف القلق الذي يصيبها من جرّاء التقدّم في العمر قال لها إنّ الرجل مريض على الأرجح، أو هو من أولئك الذين جاؤوا إلى الكليّة بعد أن قضوا سنوات

في التعليم. وعاد إلى طمأنتها بعد أن صارا في السيّارة مضيفاً إلى ما قاله هناك في داخل المول أنّ الرجل «لا بدّ حالة خاصّة».

تعرف أنّهم كبروا، جميعهم، لكن ما زالت فكرتها عن تلك الحفلة كما هي، أو كما كانت قد خطرت لها، لأول مرّة، من حوالى عشرين سنة. آنذاك، لو كانت أسرعت إلى تنفيذ ما فكّرت فيه، لكانت حصلت تلك السهرة ولكانت ربّما تبعتها حفلات تدعو هي إليها أو يدعو إليها آخرون متابعين ما بدأتْه.

كان عليها ألّا تتكاسل آنذاك، قبل عشرين سنة. كانت قد انقضت سبع سنوات أو ثمانٍ على تخرّجها حين خطرت لها تلك الفكرة، حين لم يكن الطلّاب تغيّروا بعد. ربّما بعض شعرات شائبة على رؤوس الرجال، أو فراغات خلّفها هنا وهناك الصلع المبكّر، أو، في ما خصّ النساء، بعض بطون منتفخة لمن كنّ لم يلدن بعد. لكن ذلك لن يهمّ أبداً، بل قد يدفع الحاضرين إلى أن يجعلوا ممّا يرونه في سواهم مجالاً للتنكيت.

* * *

كثيرون فكّروا مثلها في أن يفعلوا شيئاً ليحتفلوا بكلية التربية. دلال مثلاً تجاوزت ذلك بأن اشتغلت لأشهر في إعداد لوائح للطلاب مرفِقة كلّ اسم برقم تلفونه. آخرون نشروا مقالات في الجرائد عن كليّة التربية، ذاك الذي لم يفعله لكليّاتهم طلّاب العلوم والآداب والحقوق والعلوم الإنسانية. وقد سمّى هؤلاء زمن سنواتهم في كلية التربية بالزمن الجميل، مقارنين بينه وبين سنوات الحرب التي نُقلوا جميعهم إليها. لولا ذلك، لو ظلت الحياة جارية على ما كانت عليه، لما شعروا بالفارق بين ما كانوا فيه وما صاروا إليه. لما سمّوا

سنواتهم تلك بالزمن الجميل. وحده محمّد صافي أدرك ذلك في حينه، في وقته، أي قبل أن يأتي الزمن غير الجميل.

ربّما كان يعرف مسبقاً ماذا سيجري في ما بعد، راح يقول بعض من كانوا معه في شلّة الشعرا. نقولا الذي ظلّ يستنبط أفكاراً جديدة ممّا كان محمّد صافي قد قاله، وصل به ذلك إلى حدّ أن صار يقول إنّ محمّد صافي تنبّأ بالحرب، وهو كان يحتفل بالأشياء الصغيرة لأنّه كان يعرف أنّ تلك النعمة قريباً ستزول.

* * *

صارت أيّام كلية التربية بعيدة. فات الأوان على أن تجد نبيلة ملبّين لدعوتها، هذا إن حدث ودعتهم. من خمس سنوات، تُقدّر، كان ذلك ربّما ممكناً بعد. وهي ليست في ذلك وحدها، إذ كذلك هم الآخرون الذين كانت تعدهم من قبل بأنّها لن تنسى مشروعها. في وقت واحد أبعدوا كليّة التربية حتى عن الكلام الذي يتداولونه في السهرات التي، على كلّ حال، باتوا فيها قليلين. صارت أيّامها بعيدة، كأنّها، في ذاكرتهم، صارت في ما قبل الماضي، ولو بمسافة خطوة واحدة صغيرة.